

بين

الحبشة والعرب

تأليف

عبدالمجيب عابدين

مدرس اللغة الحبشية المنتدب بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

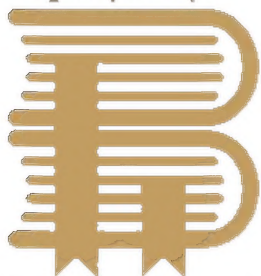
بين الحبشة والعرب

مؤلف

عبدالمجيب عابدين

مدرس اللغة الحبشية المنتدب بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول

شبكة كتب الشيعة



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

shiabooks.net

رابطه يديل < mktba.net

مقدمة الكتاب

كانت فكرة إخراج هذا البحث للناس تتخالج في نفسى منذ ثمانى سنوات ، حين كنت طالبا أدرس اللغة الحبشية القديمة وآدابها بمعهد اللغات الشرقية بكلية الآداب . فلما عقدت النية على إصداره ، آثرت أن يكون موجزا ، فتحاشيت سرد النصوص الكثيرة ، والنقوش التى تتعلق بالبحث ، والآراء المختلفة فى كثير من المسائل ، والإفاضة فى كثير من أجزاء البحث ، وألممت إلماما سريعا بأهم الصلات التى ربطت بين الحبشة والعرب منذ أقدم العصور حتى أوائل هذا القرن الذى نعيش فيه . وجعلت البحث قسمين : تحدثت فى القسم الأول عن تطور العلاقات منذ أن أسس العرب المهاجرون إلى الحبشة دولة أكسوم ، إلى عهد انحلال هذه الدولة ، الذى يقابل فى التاريخ الإسلامى آخر عصر الخلفاء الراشدين أو ما بعده بقليل . وتناوت فى القسم الثانى الحديث عن تلك العلاقات منذ أن أخذت الحبشة فى النهوض والازدهار على يد الأسرة السليمانية ، حتى أوائل هذا القرن . وإنه لواجب على كل شرقى ، يدرس الشعوب السامية وحضاراتها ولغاتها دراسة عميقة واسعة ، أن ينير السبيل أولا وقبل كل شئ ، إلى تاريخ الأمة العربية وحضارتها ولغتها، وأن

يوسع من آفاق الدراسات العربية بما يفيد من البحث والاطلاع
في سائر الدراسات .

لهذا عرضت لهذا البحث ، راجيا أن أكون قد أوضحت
بعض ما استبهم من تلك الصلاة التي قامت بين الحبشة والعرب منذ
أقدم العصور حتى العصر الحديث .

وإني لأشكر للدكتور مراد كامل ما بذله معي من جهد مشكور ،
كما أشكر للدكتور خليل يحيى نامى ما قدمه من معونة صادقة
في حل النقوش السبئية التي ورد مضمونها في هذا الكتاب ؟

المؤلف

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب ١ - ب

الكتاب الأول

تمهيد

- ١ - شعوب جنوب بلاد العرب وإنتهاء الحكم إلى حمير ١ - ٤
- ٢ - مطاعم ممالك العالم القديم في بلاد العرب ٤ - ٧
- ٣ - الحبشة القديمة : أسماؤها ، شعوبها ، لغاتها :
هجرة العرب إلى بلاد الحبشة قبل ميلاد المسيح - أشهر
القبائل المهاجرة - تأسيسهم دولة أكسوم - فكرة عن
هذه الدولة . ٧ - ١٥
- ٤ - حضارات أخرى غير عربية في الحبشة القديمة :
الحضارة اليهودية والحضارة السريانية - اليونانية ١٦ - ٢١

الباب الأول :

- «علاقة الحبشة ببلاد العرب حتى نهاية القرن الرابع الميلادي ،
- ١ - متى بدأت أول حملة حبشية على حمير؟ - حملة أخرى في القرن
الأول الميلادي أو الأول قبل الميلاد ونتائجها . ٢٢ - ٢٦

صفحة

- ٢ — حملة أفيلاس ملك الحبشة على حمير في القرن الثالث
الميلادى — حكم الحبشة على اليمن حتى القرن الرابع الميلادى ٣٦ - ٣٦
٣ — دخول المسيحية إلى الحبشة واليمن في القرن الرابع
الميلادى . ٣٦ - ٣٩

الباب الثانى :

- «علاقه الحبشة ببلاد العرب فى القرن السادس الميلادى ،
أقدم مصادر هذا الباب ٤٠ - ٤٢
١ — اليهودية وحكم اليمن ٤٢ - ٤٥
٢ — نشوب حربين بين اليهود والحبشة فى القرنين
الخامس والسادس الميلاديين ٤٥ - ٤٨
٣ — قصة ذى نواس العربية ومناقشتها على ضوء المصادر
الأخرى - مناقشة آراء المفسرين فى أصحاب الأخدود ٤٨ - ٥٥
٤ —حكام الحبشة على اليمن فى القرن السادس - ثورة
أمرأه اليمن - حكم أبرهة وغزواته وأعماله - غزوة الفيل
ورأى كوتى روسينى ٥٥ - ٦٨
٥ — حكم يكسوم ومسروق الحبشيين، الدور الذى مثله
سيف بن ذى يزن وغزو الفرس بلاد اليمن - طرد

صفحة

الحبشة - غموض تاريخ الحبشة في هذه الفترة - من هو
النجاشي الذي عاصر النبي (ص) ؟
٧٤ - ٦٧

الباب الثالث :

« بين الحبشة والمسلمين في عهد الرسول (ص) »

١ - رأى في هجرة المسلمين إلى الحبشة - كتب النبي
إلى النجاشي
٨٣ - ٧٤

٢ - إنتزاع المسلمين اليمن من أيدي الفرس - خاتمة
دولة أكسوم وسبب انحلالها
٨٦ - ٨٣

٣ - نظرة القرآن والنبي إلى الأحباش وملسكهم - أثر هذه
النظرة في تقوية الصلات بين الفريقين
٩٠ - ٨٦

الباب الرابع :

« آثار الحبش في بلاد العرب »

أقدم مصادر هذا الباب
٩٣ - ٩١

١ - كيف تأثر العرب بالأحباش - اختلاط الآثار

اليمنية والحبشية - آثار مسيحية حبشية في اليمن
٩٨ - ٩٣

٢ - الألفاظ الحبشية في اللغة العربية
١٠٥ - ٩٨

٣ - أثر عبيد الحبشة في المجتمع العربي
١١٣ - ١٠٥

صفحة

- ٤ — وفد جعفر بن أبي طالب وأثره ١١٣ - ١١٧
- ٥ — أثر الحبشة في فن الرقص والغناء عند العرب ١١٧ - ١١٩
- ٦ — أثر الحبشة في أدب الجاهلية وصدر الإسلام :
في العروض ، في الغزل ، في شعر الفروسية ، في
الأساطير - قيام عصية حبشية في القرن الأول
الهجري وظهورها في شعر الأحباش . ١٢٠ - ١٣٨

الكتاب الثاني

الباب الأول :

الحبشة والدول الإسلامية ،

- ١ — غموض تاريخ الحبشة فيما بين القرنين السابع
والثالث عشر - أسرة زاجوا - تأسيس الأسرة
السليمانية في أحمر - الارتباط الوثيق بين السياسة
والدين والثقافة في الحبشة ١٤٣ - ١٤٩
- ٢ — هجرات العرب إلى سواحل البحر الأحمر
الغربية - تكوين إمارات عربية عليها - سلطنة مقدشو
وإمارة زيلع (عدل) ١٤٩ - ١٥٨
- ٣ — الحبشة ومصر - الحبشة واليمن - الدول

صفحة

الإسلامية المحيطة بالحبشة من جهة الغرب والشمال

١٥٨ - ١٦٥

الغربي

الباب الثاني :

الحبشة والتعصب الديني،

١ — الحبشة وأسطورة القسيس يوحنا - الحبشة

١٦٥ - ١٧١

تنشعب من فكرة الحرب الصليبية

٢ — بدء اضطهاد ملوك الحبشة المسيحيين من

جاورهم من مسلمي الطراز — رسالة يكونو أملاك

إلى الظاهر يبرس، رسالة ياجبعاصيون إلى قلاوون ١٧١ - ١٧٤

٣ — تطور معاملة ملوك الحبشة لسلطين مصر في

القرن الرابع عشر - محاربة الحبشة مسلمي عدل - توتر

العلاقة بين مصر والحبشة في القرن الخامس عشر ١٧٤ - ١٨٥

الباب الثالث :

انتشار الإسلام في الحبشة ،

١ — زحف المسلمين على داخل الحبشة في القرن

السادس عشر وسيطرتهم عليها - استيلاء الأتراك على

صفحة

أراض حبشية - الثورات الداخلية - استرداد
الأحباش ساطتهم وقع الثورات - ضعف شوكة المسلمين السياسية

١٥٨ - ١٩٦

٢ - بقاء النفوذ الروحي للإسلام في الحبشة - تردد
دعاة المسلمين عليها - تجار الكارمية وأثرهم - نظام
اللامركزية ساعد على نشر الإسلام - اشتغال المسيحيين
بالخلافت المذهبية - سوء معاملة رجال الدين المسيحي
لرعاياهم - تفوق المسلمين في الحبشة - بدء اضطهاد

ملوك الحبشة للمسلمين المقيمين في داخل البلاد ١٩٦ - ٢٠٤

٣ - اضطهاد المسلمين في القرن التاسع عشر - أسبابه :
مخالفة بعض زعماء الحبشة المسيحيين للمسلمين -

الحرب بين الحبشة والمصريين - حركة مهدي السودان

وأثرها - ليح إياسو ملك الحبشة يعتقد الإسلام ٢٠٥ - ٢١٤

٤ - انتشار الإسلام بين القبائل : فكرة التعرب -

قبائل السومال وأريتريا - البجة - الشنقلة - الجلا -

٢١٤ - ٢٢٦

هرر

الباب الرابع :

« الحبشة والثقافة العربية »

١ - اللغات السامية في الحبشة في هذه الفترة - الكتابة

العربية في الحبشة - تأثير الحبشة المسيحية بالثقافة

القبطية العربية

٢٢٧ - ٢٣٨

٢ - تأثير الإسلام بالعقائد الحبشية القديمة

٢١٨ - ٢٤٤

٣ - المذاهب الإسلامية في الحبشة : مذاهب السنة

والشيعة والتصوف - فكرة التمهدي وشيوعها في

إفريقية في القرن الماضي - مسلو الحبشة الذين رحلوا

٢٤٥ - ٢٥٢

إلى بلاد العالم الإسلامي

٤ - المجتمع الحبشي ومدى تأثير الحضارة الإسلامية -

أثر العلاقات الاقتصادية بالحبشة في الثقافة العربية

٢٥٢ - ٢٥٦

الكتاب الاول

تمهيد

١

يرى بعض الباحثين أن لفظ (عرب) كان يطلق أول الأمر على أهل البادية من شمال بلاد العرب وشرقيها^(١) فهؤلاء هم العرب الصرحاء أو العرب العاربة كما يقولون وهؤلاء هم الذين يزعمون بحق أنهم أصحاب هذه البلاد وذوو القدم الراسخة فيها ولهم هؤلاء طبائع وعادات وطقوس توارثوها وارتبطوا بها بحكم طبيعة بلادهم وظروف حياتهم .

إلى جانب هؤلاء ، قوم غرباء نزحوا إلى هذه البلاد في أزمان سنحية في القدم إلا أنهم في نظر أصحاب البلاد طارئون عليها ، دخلاء عليهم ، أولئك هم العرب المستعربة ، الذين ليسوا عرباً خالصاً كالفریق الأول ، والراجح أنهم نزحوا من بلاد عريقة في الحضارة ، لعلها ناحية الشمال ، أولعها على وجه التحديد ، منطقة العراق ، وتعاقبت هجراتهم ، على فترات قاصدين

إلى الجنوب حيث البقاع الخصبة والمناطق المطلة على البحر التي تمكنهم من مزاوله التجارة والسيطرة على منافذها .
 وربما قامت هذه الأفواج ، بعد أن استقروا في الجنوب ، واشتدت شوكتهم ، بتأسيس طرق ومستعمرات في البقاع الشمالية ليضمنوا سلامة تجارتهم من غارات الأعراب وعدوان المنافسين .
 والجنوب كلمة واسعة عامة وإنما المقصود هنا ذلك الجزء الجنوبي الغربي الذي يمتد من خليج عدن جنوبا حتى نجران شمالا ، ومن الحديدية ميناء صنعاء ، حاضرة اليمن ، غربا حتى حضرموت القديمة شرقا .

هذا الجزء ، بوجه خاص ، كان مسرحا لحوادث جسام وآثار ضخام قام بها الأحباش في هذه البلاد . لهذا كان طبيعيا أن نخصه دون سائر أجزاء الجزيرة العربية بالحديث في هذا التمهيد .

وتختلف شعوب الجنوب عن شعوب الشمال بوجه عام في العناصر الثلاثة : اللغة والجنس والدين . فلغات الجنوب ، على اختلاف بسيط فيما بينها ، تكون وحدة متماثلة في خصائصها وكتابتها تختلف عن لغات الشمال اختلافا بينا . والجنس وإن كان قد تعرض في الجنوب لاختلاط العناصر القريية الآتية من الشرق والغرب والشمال ولا سيما العناصر الأفريقية السوداء ، إلا أنه مبين عن أجناس الشمال مبينة تامة . والدين كذلك يتأثر في

الشمال بالوثنية البابلية بينما نجد هذا الأثر في وثنية الجنوب قليلا محدودا .

وكانت شعوب الجنوب كثيرة متعددة يتخذ كل منها رقعة من الأرض لا يتعدها فإذا عظم نفوذ شعب منها ودفعته المنافسة وحب السيطرة إلى توسيع رقعة سلطانه والاستيلاء على زمام التجارة أخذ يشن الغارات ويشب القتال حتى يبسط سلطانه على غيره من الشعوب .

من هذه الشعوب الكبيرة في الجنوب أربعة تحدث عنهم اليونان والرومان القدماء وأثبتت النقوش والآثار عظمهم ومجدهم القديم .

هذه الشعوب هي معين وسبأ وحضرموت وقتبان ، وربما كان المعينيون أقدم هذه الشعوب ويقال إن أقدم ما وصلنا من نقوشهم يرتقى إلى النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد ، أما حضرموت وقتبان فلم تلبث أن انضوتا تحت لواء سبأ حول عام ٣٠٠ م ثم أدركت معين الشيخوخة وغلب عليها السبئيون . وبذلك قدر لسبأ أن تنفرد آخر الأمر بالزعامة من بين شعوب الجنوب ، وأن تمتلك ناصية الحكم والشهرة منذ القرن الثامن ق. م حتى قام في القرن الأول الميلادي بنو حمير وهم غالبا سلالة سبئية فاغتصبوا من سبأ الزعامة وأكلوا حلقات الحكم السبئية

السابق وبدأ نجمهم يتألق منذ ذلك الحين حتى القرن السادس الميلادى . ولقد أطلق العرب كلمة حمير على كل عصور اليمين لأن عصر بنى حمير كانوا أقرب العصور إليهم ومن ثم كانوا أعرف شعوب الجنوب لديهم .

كان ملوك سبأ من قبل يتخذون مأرب عاصمة للملكهم ولكن الحميريين نقلوا حاضرتهم إلى ريدان (ظفار) حتى يكونوا أقرب إلى البحر ولا سيما بعد أن أصاب بعض مدن الجنوب من التخریب فى حملة القائد الرومانى اليوس جالوس سنة ٢٤ ق . م .
وأصبح ملوك حمير يلقبون أنفسهم (ملوك سبأ وذى ريدان) بعد أن كان السابقون منهم يلقبون أنفسهم (ملوك سبأ) فحسب .

يروى التاريخ المصرى القديم أن رمسيس الثالث (هاكون) غزا بلاد العرب وبنى أسطولاً أنزله البحر الأحمر وسافر فيه لارتياح الفنت (أى سواحل السومال^(١)) وكان غرضه الرئيسى تذليل طرق التجارة البحرية بين مصر وبلاد الشرق وأنه استطاع أن ينشئ طريقاً تجارياً برياً بين القصير وقفت وطريقاً بحرياً بين المحيط الهندى والنيل عن طريق بلاد العرب .

وفى عهد الأسرة (١٩) رأى سبتى الأول أن يصل بين النيل والبحر الأحمر بقناة تسهلاً للتجارة أو الحرب بين مصر ومجزيرة العرب .

ولما سقطت مدينة صور واضطربت أحوال الفينيقيين الذين كانوا يحتكرون التجارة فى البحار وجد سليمان ملك أورشليم وحيرام ملك صور الفرصة سانحة لعقد اتفاق تجارى فأنشأ السفن . وسارت من العقبة الى سواحل بلاد اليمن .

وقد أشارت بعض أسفار التوراة الى شهرة سبأ فى التجارة فى الشرق الأدنى فيما بين القرنين العاشر والخامس قبل الميلاد . ولما كانت اليمن طريقاً هامة الى الهند فقد لفتت اليها أنظار الساسة والمؤرخين من اليونان والرومان منذ القرن الخامس

قبل الميلاد ، وتطلع الرومان الى السيطرة على هذا المنفذ الهام المؤدى الى الهند .

كان الرومان قد تطلعوا الى غزو النبطيين وكانوا سادة التجارة في شمال بلاد العرب منذ القرن الرابع ق.م . جرد عليهم الرومان حملات وتمكنوا من إخضاعهم في أوائل القرن الثاني ق.م . وتطلع الرومان إلى غزو جنوب بلاد العرب . وكانوا يجهلون المسالك المؤدية اليها فاستعانوا بالأنباط لإرشادهم وقادوا حملة في سنة ٢٤ ق.م . تحت إمرة القائد الروماني إليوس جالوس ولكن الوزير النبطي ذهب بهم في مسالك وعرة أعجزهم النفاذ منها فقتلوا أياما قاسوا فيها آلام المرض والجوع والعطش وربما كانت نية الأنباط في تضليلهم ترمى إلى إحباط مسعى الرومان حتى لا يضيع الاحتكار التجاري من أيديهم ويدكر استرابو (٦٦ ق.م - ٢٤م) أن إليوس وصل بحملته الى ماريابا (مأرب مدينة السبئيين) وكان يحكمهم إليزاروس (إليشر يحضب ملك سبأ) وقد حاصروها ستة أيام ولكن العطش اضطرهم الى الانسحاب .

وبذلك فشل الرومان في إخضاع الشعوب الغنية في بلاد العرب والاستيلاء على مواطن تجارة التوابل والعطور وإيجاد الطريق المنشود الى الهند .

وكانت البواعث الاقتصادية والسياسية غالباً هي التي دفعت الطامعين إلى الاستيلاء على بلاد اليمن . ولما انتشرت المسيحية اقترنت هذه البواعث بالتبشير وبسط النفوذ الديني في هذه البلاد وكانت دولة الأحباش من أهم الدول المستعمرة وهي التي سنتحدث عن آثارها في شعوب بلاد العرب في القرون الثمانية الأولى من حياتها .

٣

قد يرد لفظ إثيوبيا للدلالة على الحبشة وهو يوناني الأصل مركب من كلمتين بمعنى « الوجه المحترق » وقد أطلق الأحباش هذا اللفظ على بلادهم أسوة — أو تيمناً بذكره في التوراة ، ولم تكن تطلق قديماً على ما نعرفه الآن من بلاد الحبشة وإنما أطلقها قدماء اليونان على البلاد المتاخمة لحدود مصر الجنوبية مما يلي الشلال الأول ، وهو ما كان يسميه الفراعنة مملكة (كوش) واتسعت التسمية في العصر الروماني ، فأطلقت إثيوبيا على البلاد الواقعة بين النيل والبحر الأحمر وشملت أحياناً بعض المناطق في غرب النيل كمنطقة مرو التي كان لها تاريخ حافل ودولة زاهرة عرق من تاريخ الحبشة وأعظم مدنية منها .

وربما دخل في مدلولها بعض المناطق على الضفة الشرقية للبحر الأحمر حتى عد القدماء اليمن جزءاً منها وأطلقوا إثيوبيا الآسيوية على اليمن وضاف خليج فارس .

أما كوش فكان يطلقها قدماء المصريين على حدود مصر الجنوبية وهي ما نسميه (بلاد النوبة) وقد ذكرها العبرانيون في التوراة (تكوين ١٠ : ٦ ، ٧) ^(١) كولد من أولاد حام وذكرتها النقوش الحبشية بصيغة (كاسو) . ^(٢)

والكوشيون من العناصر التي استوطنت الحبشة وهم يتكلمون لغات خاصة ، غير سامية ، يطلق عليها الباحثون (اللغات الكوشية) وهم أحد العناصر الثلاثة الرئيسية التي تتألف منها الشعوب الحبشية وقد يطلق عليها القبائل الحامية نسبة الى حام جددهم الأكبر ، كما يطلق عليها أيضاً القبائل النوبية ، ويرتبطون مع المصريين القدماء برباط القرابة ، لوهم ليس حالك السواد وشعرهم ليس شديد الفلقة في حين امتاز إخوانهم الأفريقيون الذين يكونون عنصراً آخر من سكان الحبشة بحلوة سواد اللون وشدة فلقة الشعر .

(١) وبنو حام كوش ومصر ايم وفوط وكنمان : وبنو كوش سبا وحويله وسبته ورعمة وسبتكا وبنو رعمة سبا وددان

أما الساميون فهم أرقى العناصر جميعا وهم حملة الحضارة إلى الحبشة وهم الذين أسسوا الدولة الأكسومية الزاهرة بعد أن استقروا في الوطن الجديد وتأثروا بطابع البيئة الحبشية وتفاعلوا مع العناصر الأفريقية والحامية .

ولكل من تلك العناصر لغاتها الخاصة فالكوشيون يتكلمون الكوشية وهي فرع من اللغات الحامية (البربرية) ويتكلمها في الحبشة شعوب كثيرة كشعب البجة والأجاو والساهو والجلالا والكافينو وغيرهم .

والأفريقيون يتكلمون لغات شتى منها لغات البانتو واللغات السودانية .

أما الساميون فيتكلمون لغات قريبة الشبه من العربية الجنوبية . وأقدم لغة سامية تكلموها ، فيما نعلم ، هي التي يسمونها (الجعز) نسبة الى بعض القبائل السامية المهاجرة .

هذه اللغة كانت مستعملة في الحديث والكتابة في الثمانية القرون الأولى من تاريخ الحبشة التي هي موضوع هذا البحث . وظلت كذلك حتى القرن الثالث عشر الميلادي حيث غلبت عليها اللغة الأمهارية لغة الدولة السلیمانية التي حكمت منذ ذلك الحين . وتعتبر اللغة الأمهارية أصلا للغتين ساميتين من لغات الحبشة وهما الجوراجواي ولغة هرر . ومن اللغات السامية التي يتكلمها

كثير من الأحباش لغة التيجرى ولغة التجرينيا التى اشتقت من لغة الجعر .

والثابت من النقوش القديمة التى عثر عليها فى المناطق الحبشية أن هؤلاء كانوا يستخدمون فى الحبشة ، فى الدور الاول من تاريخهم اللغة والكتابة السبئية ، وعثر على أسماء أماكن فى الحبشة لها نظائر فى بلاد اليمن مثل (أوم) التى ذكرت فى النقوش السبئية للدلالة على حرم بلقيس أو أحد هياكل القمر قد ظهرت مرة أخرى فى أفريقيا فى نقوش يحا وفى بعض المصادر اليونانية ^(١) وأوجد كوتى روسينى نظائر أخرى مثل مدرى وقلى وضرهم وسهرت وحوزين وغيرها .

بل وجد الباحثون تشابها بين سبأ والقبائل السامية المهاجرة فى العقيدة الدينية فإن أقدم النقوش الجيشية كانت مقدمة الى (ألمقه) الإله السبئ . وكانت فكرة الثالوث شائعة فى عبادة اليمنيين فكانوا كثيرا ما يذكرون آلهتهم فى نقوشهم ثلاثة ثلاثة بادئين بسيد الآلهة أو أعظمها فالهة معين (عثر وودونكرح) وآلهة سبأ : (عثر

(١) Glaser ص ١٢ وقد ذكر أماكن أخرى مثل ألودأرو وصانت

ومرر (انظر ص ١٧ - ١٨)

Journal Asiatique, Juill.- Sept. 1921. (Conti (٢)

Rossini, Exped. et possess. des Habasat en Arabie.

والمقه وشمس) وكذلك ذكرت بعض النقوش الحبشية المنسوبة إلى عيزانا في القرن الرابع الميلادي أنه أقام عرشا في جماية ثلاثة آلهة . (عستر وبراص ومدر) ، والمفهوم أن براص هو إله الرعد ومدر إله الأرض وهما إلهان أفريقيان أوجدهما الأحباش بمرور الزمن بدلا من إلهين يمينيين (أوسبنيين) آخرين .

فوجود هذه النظائر الدينية واللغوية والأثرية في كل من اليمن والحبشة قد جعل الباحثين يرجحون وجود قرابة أو صلة دموية بين الساميين الأحباش وبعض قبائل سبأ .

ولقد رجح الباحثون أن هذه القبائل نزحت إلى السواحل الأفريقية (الساحل الاريتري) منذ زمن بعيد لمزاولة التجارة أونحوها . وربما كانت هجرتهم من شرقى حضرموت (مهرة)^(١) وليس من اليسير تحديد زمان أسبق هذه الهجرات ، لكن الراجح أنها حدثت قبل ميلاد المسيح بقرون عديدة .

وكانت الهجرة إلى الحبشة سهلة ميسورة لقرب الشقة بين الساحلين العربي والأفريقي ولا سيما عند مضيق باب المندب . ومن المعروف أن القبائل التي هاجرت إلى الحبشة كانوا يسكنون قبل الهجرة على الساحل العربي أو قريبا منه .

فقبيلة سهرت (سحرت) كانت فيما يظهر . تسكن على رأس المضيق ، في منطقة مخا الحالية .

وقبيلة حبشت وهى أشهرها ، قدورد ذكرها فى النقوش اليمنية ^(١) ، كانت تسكن على الساحل أيضا ، وقيل إنها اتخذت فى هجرتها الطريق البحرى الذى يصل من خليج مصوع وهضاب الحبشة ثم عرجوا منها على الجنوب فروا بأكسوم وتكازه واحتلوا الجانب الشمالى من الحبشة .

ومادة (حبش) فى العربية تدل على الجمع والتحالف ومن هذه المادة ألفاظ شائعة عند العرب فنجد حباشة سوقاً من أسواق العرب فى الجاهلية ، ومن أسماء الأعلام العربية حبشى وحبيش ؛ والأحايش قوم من قریش أو من عبيد مكة تحالفوا فسموا كذلك ^(٢).

ولما سكنت قبيلة حبشت فى شمال الحبشة نسب الجزء الشمالى إليهم وسمى باسمهم ثم أطلق العرب الحبشة على جميع البلاد . ومنها أخذ الإفرنج لفظ Abyssinia .

(١) ورد لفظ حبش فى النقوش اليمنية بهذه الصيغة : حبشت . ملك حبشتن مصور أحبشن (أى قواد الحبشة) الخ

(٢) كتب الاستاذ لمانس بحثنا عن الاحايش فى كتابه .:

L' Arabie Occidentale avant l'Hégire, Beyrouth 1928 ,p, 237 sqq.

أما قبيلة الأجاجز (أو الأجاجزيان) فهي فيما يقال أقدم من هاجر إلى الحبشة من القبائل اليمنية . وكان موطنهم الأصلي على الساحل بين صنعاء وعدن ولهم نقوش تذكرهم في اليمن والحبشة ، وقد انتقلت إلى الجانب الشمالى الشرقى من الحبشة ، وإليهم تنسب لغة الجعز أو (لسان جعز) كما يسميها الأحابش . وكان الأجاجز شعباً قوياً اشتغل بالتجارة واستطاع بحكم رسوخ قدمه في البلاد واتساع نفوذه فيها أن يصبح على رأس الطبقة الحاكمة .

والمفهوم أن نزاعاً حدث أول الأمر بين الغرباء الطارئین وأصحاب البلاد الحاكين ثم لم يلبث الساميون أن تفوقوا عليهم بتفوق حضارتهم . واتسع نفوذهم تحت زعامة الأجاجز واستطاعوا أن يبسطوا عن طريق نفوذهم الاقتصادى سلطانهم السياسى على البلاد وأن يصبحوا سادة يملكون ناصية الحكم على الجزء الشمالى من الحبشة ، ثم على سائر البلاد .

كانت مدينة أكسوم حاضرة هذه الدولة الزاهرة القوية ، وهى مدينة تقع شمالى الحبشة لا نعرف من تاريخها قبل هذه الدولة إلا ما تزعمه الأساطير الحبشية القديمة من أن أثيوبس أبا الأثيوبيين هو والد الملك أكسوماوى الذى حكم البلاد ولا نعرف أين كان مقر حكمه ، وربما كان هو الذى أسس هذه المدينة^(١) .

وأقدم ما نعرفه عن تاريخ هذه الدولة يرجع الى القرن الأول قبل الميلاد . وقد استخدمت الدولة لغة الجعز ، لغة الحكم الغالبين وكانت فى أول أمرها سبئية لغة وكتابة ثم لم تلبث أن تطورت فى شكلها وفى موضوعها فلم ينته القرن الرابع الميلادى حتى كانت لغة متميزة نوعا ما فى صور حروفها وطريقة كتابتها ، كما تأثرت بمجاورة اللغات الحامية والأفريقية المختلفة .

وقد جهد الباحثون فى استخلاص تاريخ دولة أكسوم مما كتبه الأحباش والأقباط واليونان والرومان وما ورد فى الوثائق الأثرية وحققوا تواريخ ملوكها ومدة حكمهم ما استطاعوا ومن هؤلاء الباحثين البارزين الأساتذة ملر وسالت وبروس وكوتى روسينى وليتمان وغيرهم .

وقد لوحظ أن أسماء الملوك الذين حكموا حوالى ميلاد المسيح حتى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى (٨ ق م - ٢٧٤ م) مصدره بالمقطع (za) كما نرى فى زابازين ، زازناتو ، وزاهكاليه . وهذا المقطع معناه سيد أو صاحب ويقابل ذو بالعربية الشمالية والجنوبية ويقال لأمثالهم فى حمير الأذواء مثل ذويزن وذوقفان وذو جدن . والمعروف أن ما لى هذا المقطع يدل على اسم القبيلة أو الشعب أو المكان الذى ينتمى إليه هذا الملك فبازين وزناتو وهكاليه كلها أسماء قبائل أو أماكن لهؤلاء الملوك كما أن يزن وقفان وجدن كذلك على الراجع .

ثم طائفة أخرى من الملوك تبدأ أسماؤهم بمقطع إل مع نطق اللام مفتوحة مشددة أو مفتوحة من غير تشديد كما يقال في إل أسفح وإل سمرة وإل إسكندى وإل أبرهة ونجد هذا التركيب مطردا في أسماء الملوك من عام ٢٧٥ قبل الميلاد حتى ٤١٨ م ثم لا نجد هذا الاطراد منذ هذا التاريخ حتى نهاية الدولة الأكسومية في القرن السابع الميلادى .

وربما كان معنى إل الإله فيكون معنى التركيب إل أسفح له أسفح فقد جرت عادة اللغة الحبشية القديمة أن تجعل المضاف مبنيا على الفتح فيقال إل أسفح أى إله أسفح ، وربما كانت تقاليد الملوك لذلك العهد تمنعهم بصفات القداسة والتأليه (١) .

هذه الدولة الأكسومية التى لا نعرف دليلا على وجودها قبل القرن الأول ق . م . بدأت تضمحل ويخبو نورها فى أواخر القرن السابع الميلادى وهذه الفترة تقابل فى تاريخ العرب عصر الجاهلية ومايتجاوز الخمسين عاما بعد ظهور الإسلام .

فى هذه القرون الثمانية التى عاشتها هذه الدولة كانت العلاقات اللودية تارة والعداية تارة أخرى قائمة بينها وبين اليمن حيث استطاعوا أن يدعّموا سلطانهم ويثبّثوا آثارهم ويغذّوا هذه البلاد بما أفادوه فى أفريقيا من لغة ودين وحضارة لم يكن لها أثر على اليمن فحسب بل على بلاد العرب جمعاء .

ولم تكن الحضارة السامية هي الحضارة الوحيدة التي تأثرت بها الحبشة بل هناك حضارات أخرى تسربت إلى هذه البلاد لعل من أهمها الثقافة اليهودية والحضارة الهيلنستية أو (السريانية - اليونانية) فمن المقرر أن بعض العناصر اليهودية كانت قد استوطنت في البلاد بعد هجرات الساميين إليها عقب حلقة من الاضطهاد الذي كانوا يمتنون به خلال أعصر التاريخ المتعاقبة ، وربما كان السواد الأعظم من يهود الحبشة من سلالة الهاريين من فلسطين قبيل الميلاد بعد اضطهاد الرومان وتنكيلهم بهذه الطائفة ويسمى يهود الحبشة (الفلشه) وكثير منهم يقيمون الآن بين أكسوم وغندار ويتكلمون لغة كوشية (لغة الأجاو) ويقرؤون كتبهم المقدسة بلغة الجعز وربما كانت العبرية هي اللغة الأصلية التي جاءوا بها الى هذه البلاد ثم تعاطوا لغة الحكومة الرسمية (لغة الجعز في ذلك الحين) ولا سيما بعد أن ترجمت الكتب المقدسة إليها ، فنسوا العبرية شيئاً فشيئاً كما أنهم اندمجوا في العناصر الحامية والافريقية وأثروا فيها كما تأثروا بها .

ولليهود أثر كبير في أفكار الأحباش السياسية والدينية فقد استطاعت قصة سليمان وملكة سبأ التي عرفناها في التوراة والقرآن أن تنفذ إلى الحبشة وأن يلعب فيها خيال الأحباش (أو اليهود الأحباش) فنسجوا حول القصة أفكاراً عجيبة تتلخص في أن

هذه الملكة (ويسمىها الأحباش ماقدة) ، بعد أن اتصلت
 بسليمان ، ولدت منه رجلا تسميه الأسطورة ابن حكيم (أى ابن
 الحكيم سليمان) ، وكانت الملكة قد تعلمت اليهودية على يد سليمان حين
 ذهبت إلى بيت المقدس ، ثم أدخلتها في بلدها أكسوم ، (وهم يزعمون
 أنها كانت ملكة على أكسوم أيضا) ، وربط الأحباش بين ابن
 حكيم هذا وبين منليك مؤسس الأسرة الملكية في بلادهم وزعموا
 أنه هو نفسه وأنه مؤسس دولة أكسوم في القرن العاشر قبل
 الميلاد ^(١) ، ولا شك أن هذه أسطورة . والذي رجحه العلماء أن
 أكسوم لم تؤسس قبل القرن الأول قبل الميلاد ^(٢) . ولا شك
 أن اليهود كانوا جادين في التبشير بدينهم والدعوة إليه بمختلف
 الطرق والوسائل ، وقد قرأ ليمان في بعض نقوش عيزانا أحد
 ملوك أكسوم عبارة (ملك صهيون) ، والمعروف أن عيزانا قد
 اعتنق المسيحية في القرن الرابع الميلادي ، ومن ذلك استنتج
 البعض أنه ربما كان تجرى في هذه البلاد ، في تلك الفترة ، حركة
 تبشير باليهودية أو بمذهب يجمع بين المسيحية واليهودية . ^(٣)

Budge, vol., 1, p. 193. (١)

Id., p. 194. (٢)

Kammerer, p. 86. (٣)

وعلى كل حال ، فلا نعرف شاهدا تاريخيا يدلنا على أن دولة أكسوم كانت قد اعتنقت قبل المسيحية ديناً غير الوثنية .

ومن الشواهد الدالة على أثر اليهود الديني في القبائل الحبشية وخاصة في المسيحية ذاتها ، ما نجده من أن قبائل الجلا يعبدون إلهة يسمونها سمبت ، وهو في الواقع تشخيص ليوم السبت الذي يعظمه اليهود ، والذي يطلق عليه الفلشة سمبت أو سنبت ، وما نجده أيضاً من تفريق المسيحيين الأحباش بين الحيوانات الطاهرة والحيوانات النجسة ، ومن فكرة تدنس الأشخاص الذين يخالطون نساءهم أو النساء وهن في زمن المحيض ، وغير ذلك من الأفكار التي أخذها المسيحيون أولاً من اليهود . (١)

كذلك أثرت الحضارة اليونانية في البلاد ، فقد كشفت لنا النقوش عن استخدام اللغة اليونانية في الحبشة فيما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين .

ومن المعروف أن الساحل الاريتري كان حلقة اتصال بين الأحباش وكثير من الأمم الأخرى ، وأن تاريخ هذا الساحل أقدم في الوجود من الدولة الأكسومية ، فقد يرجع تاريخه الى حوالى القرن الثالث قبل الميلاد ، وفي هذا الساحل كانت تقيم جاليات

يونانية تشتغل بالتجارة ، ولهم موانئ ترسو فيها سفنهم . وكان لميناء عدول Adulis التي ذكرها بعض شعراء العرب في العصر الجاهلي ،^(١) والتي قيل إنها تأسست في زمن بطليموس فيلادلفيا في القرن الثالث قبل الميلاد ، أهمية تجارية عظيمة فكانت ميناء لتصدير أنواع العاج ، وقرون السكر كدُن ، وجلود الحيوان ، والأرقاء الذين كانت لهم فيها أسواق تجارية ، يردون إليها من بلاد أفريقية لتصديرها الى بلاد العرب وغيرها .

وقد كشفت أعمال الحفر التي قامت بها بعثة إيطالية سنة ١٩٠٦ برئاسة باريبيني Paribeni عن أطلال معبد يوناني في نظامه مؤفنه ، ووجدوا فيه كتابات تثبت العلاقة الوثيقة بين عدول ودولة أكسوم . وهذا المعبد يرجع الى عصر استيطان الجاليات الإفريقية في عدول . ويلى هذا العصر عصر كثر فيه البحارة الأغريق الآتون من مصر والإسكندرية . وفي أوائل العصر المسيحي بسطت دولة أكسوم نفوذها على عدول ، وأصبحت عدول منذ ذلك الحين تابعة للحماية الحبشية ، فكان الأبحار يحشدون فيها أسلحتهم وعدتهم عند محاربة بلاد العرب ، وينصبون فيها الأتارند كارألا لتصاراتهم .

(١) قال طرفة بن العبد في معلقته :

هدولة أو من سفين ابن بامن . . . يجورها الملاح طوراً وبهتدى .
قوله عدولية نسبة الى عدول وكانت تصنع فيها السفن .

والمهم ان الآثار العدولية التي ترجع الى العصر الآكسومي تدلنا على أن بلاط الملك والحكومة الحبشية وربما الشعب الحبشى أيضا ، كان متأثرًا بالحضارة الأغريقية واللغة الأغريقية ، وان كان استخدامها محدودا بين الشعب ^(١) .

أضف الى ذلك أن المسيحية فى الحبشة قد أدخلت بدخولها بضعة تحسينات على اللغة الحبشية القديمة حتى أصبحت صالحة لنقل الكتب المقدسة إليها ، وكان الفضل الأول فى ذلك راجعا الى أولئك المبشرين الذين رحلوا الى هذه البلاد .

كانت لغة الساميين المهاجرين كما ظهرت فى أقدم نقوشهم الحبشية خالية من الحركات ، فإذا أريد كتابة صحافى (أى كاتب) ، كتبوها (صحف) فلا يعرف القارئ المقصود على وجه التحقيق ، هل هو صحاف أم صحيف أم صحف أم غير ذلك ، وكانت تكتب أحيانا من اليمين الى الشمال ، وأحيانا على الطريقة المتعرجة التى يسمونها طريقة المحراث (البوسطروفيدون) ، وهى كتابة الأسطر مرة من اليمين الى الشمال ، ومرة بالعكس ، مع اتصال الأسطر من أول الكلام الى آخره .

فاستطاع المبشرون بالمسيحية ان يدخلوا إصلاحات على هذه اللغة ، فاخترعوا حركات وصلوها بالحروف ، وجعلوا الكتابة تبدأ

من الشمال إلى اليمين ، وأضافوا ثلاثة أحرف جديدة الى حروفها الستة والعشرين.

والراجح أن معظم ما طرأ على هذه اللغة من إصلاح إنما هو أثر من آثار السريان (وكانت لهم ثقافة يونانية بطبيعة الحال) ، كما أنه ازدادت ثروة اللغة الحبشية بما أضيف إليها من ألفاظ وعبارات دينية، بعضها سرياني ، ويقال إن في نهاية القرن الخامس الميلادي ، قدمت طائفة تتألف من تسعة رهبان من السريان ،^(١) هارين الى الحبشة ،^(٢) بعد ان رفضوا قرارات مجمع أفزوس (٤٣١م)، وجمع خلقدونية (٤٥١م)، فدعموا المسيحية في البلاد، وأعادوا ذلك النشاط الذي كان قد أظهره من قبل فرومنتيوس أول أسقف على الحبشة في القرن الرابع الميلادي .

Fell, ZDMG, vol. 35, 1881. (١)

Budge, vol. 1, pp. 259-60, (٢)

الباب الاول

١

متى بدأت أول حملة حبشية على حير ؟ هذا مثار خلاف بين الباحثين، فيرى البعض أن أقدم وثيقة تثبت لنا النشاط السياسى والحربى لهؤلاء الأكسوميين فى بلاد العرب ترجع الى القرن الأول قبل الميلاد ، حيث تدلنا قطعة اكتشفت على جدران هيكل وثنى فى أبا بنطليون الواقعة شرق أكسوم ، وهى قطعة مكتوبة باللغة والحروف السبئية القديمة ، وهى تتفق تماما مع النقوش السبئية القديمة التى عثر عليها فى بلاد اليمن ، مما يدل على قدمها . وقد حفظت لنا فى القطعة الكلمات الآتية :

... ملكو دعمت مشرق ...

وذ تبعدن وأب ...

فان كانت (دعمت مشرق) هذه تدل على جهة فى اليمن لدلنا هذا النقش على حملة عسكرية سحيقة فى القدم. ولكن هذا التفسير لم يثبت بالدليل القاطع إذ من الممكن أن يكون المعنى أن هؤلاء القوم ملكوا هذا المكان المرتفع المدعم (الدعامة) فأقاموا عليه

معبدهم في شرق أكسوم^(١) .

وسواء أدل هذا النقش على حملة قديمة أم لم يدل ، فانه يعد من أقدم نقوش الدولة الأكسومية ، ففي خطه وكتابه ما يذكّرنا بنقوش (خريبت سعود) التي ترتقي الى العهد الأول للنقوش السبئية في اليمن .

حملة أخرى في (القرن الأول ق . م . أو الأول الميلادي) ترجع إلى قصة حرب بين بني همدان من جهة ، وبني ريدان وملوك سبأ من جهة أخرى .

وكان بنو همدان تابعين للملوك سبأ وكانوا ذوى منعة يسكنون الجبال بين الغائط وتهامة وجبال السراة ، واغتم الحمدانيون فرصة ضعف ملوك سبأ ، فتطلعوا إلى انتزاع الملك من أيديهم . وقام أحد زعمائهم « علهان نهفان » وسيطر بالقوة ، وأعلن نفسه مع ابنه شاعر أوتار ويريم أيمن ملكا على سبأ .

وكان لابد والحالة هذه ، أن يحدث عن حلفاء حتى يستطيع أن يصمد أمام عدوين عظيمين : ملك سبأ الشرعي الذي طرده الحمدانيون ظلما وبغير حق وبنو حمير الذين يحالفون ملك سبأ

ويؤيدونه ضد الهمدانين ، فلجأ الهمدانيون الى الاحباش وتحالفوا مع ملكهم جدرت كما تسميه النقوش . ويشك بعض الباحثين في كون جدرت هذا ملكا إفريقيا ، زاعمين أنه ربما كان زعيم بعض الاحابيش الذين كانوا يقيمون في بلاد العرب . غير أن الراجح أن جدرت^(١) هذا ملك أكسومي ، وأن الحليفين كما يظهر من النقش قد تبادلتا معه الرسائل بالبر والبحر ،^(٢) فهو لم يشترك بشخصه في هذه الحرب ، وإنما أناب عنه قواده الذين ذكرهم النقش (مصور أحبشان أى قواد الحبشة) ، وهم يترسمون الخطة التي اختطها لهم من وراء البحر .

وكان هذا التحالف هجوميا ودفاعيا ، ثم اتسع الحلف فشمل يدعأب غيلان ملك حضرموت . وانتصر بنو همدان أول الأمر ولكنهم انهزموا أخيراً ، ذلك أنهم تغلبوا أولا على الحميريين (بنى ريدان) ، واستطاع ولدا يريم أيمن (الهمدانيان) أن يحرزا لقب (ملكى سبأ وذى ريدان) ، ولكن الملك الشرعى فارغ بنهب وولديه إليشرح يحضب ويأزل بين وسائر عساكرهم ، لم يلقوا

(١) قيل ربما كان هو جدرت الذى ذكرته الجداول المالكية ولكننا لا نستطيع أن نجزم بذلك .

(٢) CIH, 308, 1-17.

السلاح ، وظلت حمير لا تلقى السلاح كذلك ، ودافعوا طويلا ، ومع ذلك فقد استطاع بنو همدان أن يخضعوا بني حمير وأن يتمتع المملكان الهمدانيان بقلب ملكي سبأ وذى ريدان ردحا من الزمن .

وظل الأحباش مخلصين لحلفائهم حتى نهاية الحرب ، وأخيرا استطاع ملك سبأ الشرعي أن ينتصر ، واتخذ الحبش لهم مدينة سحرت قاعدة في بلاد اليمن ، وطالبوا الملك الأكسومي ببعض رغباتهم كالاتفاظ بجيش بحري كامل في اليمن ، ولكنه لم يقبل^(١) وعلى كل فقد تركت هذه الحملة آثارا هامة في بلاد العرب ، منها تحول سبأ إلى مملكة سبأوريدان ، فانتقلت السلطة السياسية والعاصمة إلى ريدان ، كما أن هجرات القبائل قد ظهرت في هذه الفترة تتجه من الجنوب إلى الشمال ، وربما كان هذا راجعا إلى ما رأوه من اضطرابات وحروب داخلية وخارجية ؛ أضف إلى ذلك أن دولة أكسوم قد ضمنت أملاكا في بلاد العرب ، فقد استوطن الأحباش سحرت ، وجعلوها قاعدة خيرية لهم ، واستقرت جاليات حبشية في اليمن منذ ذلك الحين ، فبعد أكثر من قرن

(عام ١٣٠ م) نجد أحد السريان يلاحظ في خلال رحلته الى بلاد العرب أن ملكاً عربياً ، لا يسكن في الخيام ، شأن البدو ولكنه يعيش في قصر مزين الجدران برسوم الآدميين ، وأن هذا الملك أسود حبشى (كوشى) ، فهل نستطيع أن نزعّم أن هذا الملك كان في جنوب بلاد العرب ، وأن هذه المملكة الصغيرة التي يحكمها هي إحدى الجاليات الحبشية التي استقرت في هذه المنطقة ^(١) ؟

٢

ولا نكاد نعرف من تاريخ أكسوم شيئا يذكر في القرنين الثانى والثالث الميلاديين الا ما ذكره بطليموس الجغرافى من مواقع بعض المدن الحبشية فى القرن الثانى الميلادى ، ومادلتنا عليه بعض النقوش الحبشية من أسماء ملوك ، وإشارة الى ديانة أصحابها .

ومن أهم أسماء هؤلاء الملوك عيزانا ، وسمبروتس ، وإل عميدا ، وأفيلاس ، وإن تحقيق أسماء ملوك الحبشة من الصعوبة بمكان لأن الملك منهم كان يلقب بألقاب كثيرة فضلا عن تعرض الأسماء للتحريف بحسب اختلاف النصوص . فثلا عيزانا قيل

(١) ذكرت هذه الرحلة فى التلمود وتحدث عنها الاسناذ س . كراوس

هو أذينة الذى يذكره العرب، وقيل هو إل أبرهة (٣١٧-٣٤٢ م)،
أو أبرهة الذى حكم مع أصبحتة حوالى ٣٦٠ م .

أما سمبروتس فقد ذكر فى نقش يونانى قصير عثر عليه عام ١٩٠٦
فى مكان شمالى أسمرة ، فى مستعمرة أريتريا ، يسمى دقي محارى،^(١)
وربما يرتقى إلى القرن الثانى الميلادى ، وفيه يلقب الملك سمبروتس
(بملك ملوك أكسوم ، الملك الأعظم) ، وربما كان هو إل سمرة
(٣١٤ - ٣١٦ م) أو إل عميدا والد عيزانا . أما أفيلاس فهو
اسبقهم جميعا كما سنرى . فيكون الترتيب الزمنى لهؤلاء الملوك :
أفيلاس (٢٧٧ - ٢٩٠ م) ثم سمبروتس (إل عميدا) (٣٢٤ -
٣١٦ م) ثم عيزانا (٣١٧ - ٣٤٢ م) .

وفى النصف الأول من القرن السادس الميلادى نسخ أحد
التجار اليونان ، كوزماس ، من ميناء عدول ، بعض النقوش ،
المكتوبة باللغة اليونانية ، ومنها نقش طويل ، وجدده مكتوبا على عرش
من المرمر ، باللغة اليونانية . ولم يتمكن الباحثون أن يعرفوا
اسم الملك صاحب هذا النقش على وجه التحقيق .

يتحدث هذا النقش عن غزوات ملك أكسوم القاهر
وفتوحاته ، وخلاصته أنه اتجه أولا نحو المشرق والجنوب فأخضع

١ - وربما كان سبب وجود النقش فى دقي محارى التى تبعد عن أكسوم
بخمسة أيام أوسنة راجعا إلى حملة عسكرية أرسلها سمبروتس إلى هذه البقعة .

السكان في اتجاه البحر الأحمر ، ثم سار نحو الشمال حتى بلغ الحدود المتاخمة لمصر ، ومر بنهر تكازة ، وفي طريقه أخضع قبائل البجة . ثم اتجه الى الجنوب الشرقي ، فأخضع القبائل الساكنة في الصومال ، وانتقل الى ما وراء البحر في بلاد العرب فأخضع قبائل الأرايين (لعلمهم قبائل تسكن شمالى بنى حمير) ، والكنايكو كولييت (ولعلمهم كنانة أو كندة على شاطئ بحر الحديدة الحالية) ثم زحف الملك الى قلب البلاد العربية ، فالتقى بمناطق مختلطة بالعرب الجنوبيين والأناط ، ومنها وصل الى الحوراء الواقعة في شمال بلاد العرب ، تلك المدينة البنيوية التي يسميها النقش لويكي كومي ، وبسط نفوذه عليها .

والباحثون مختلفون في تاريخ هذا النقش . ولعل أرجح الآراء في ذلك ما أثبتته كوتى روسيني في المجلة الآسيوية في بحثه عن حملات الأحباش وأمالا كههم في بلاد العرب ^(١) . ويستدل كوتى روسيني في إرجاع هذا النقش إلى القرن الثالث الميلادي - لا إلى القرن الاول الميلادي كما زعم البعض - بأمر منها أن صاحب النقش ، كما يفهم من عبارته ، ليس أول الملوك الذين حكموا في أكسوم ، وأن إغفال النقش ذكر مملكة مرو التي ظلت قوية مزدهرة حتى دخول العصر المسيحي ربما كان دليلا على فنائها

أضعفها في وقت كتابة النقش ، ولم يتطرق إليها الضعف إلا بعد القرن الأول الميلادي بفترة من الزمن .

فمن يكون صاحب هذا النقش الذي غزا بلاد العرب ، وشق طريقه فيها متجها إلى الشمال ؟ كان المظنون منذ زمن أن صاحب النقش هو الملك (زو سكاليس) الذي ذكر في كتاب رحلة في البحر الأحمر المسمى (پريلوس) وقال إنه سيطر على ساحل بربرة ، ووصفه بأنه ملكه بخيل شديد الحرص على تنمية ثروته ، ولما قبل بأسماء الملوك المدونة في الجداول رجح أن يكون هوزا هكاليه الذي حكم (بين ٧٧ ، ٨٩ م) .

ولكن الأستاذ رايمر الذي كان عضوا في بعثة حفائر أكسوم ١٩٠٦ يرى من الأنسب أن يكون مؤلف نقش عدول سابقا لعهد زو سكاليس هذا^(١) .

أما كوتى روسيني فقد رجح أن يكون صاحب النقش هو أفيلاس (حول نهاية القرن الثالث الميلادي) ، وقد أثبت ذلك بما أورده من بعض الحوادث والظروف التي وقعت في تاريخ اليمن ومن مقارنته بين النقود الأكسومية واليمنية .

وقد كانت مجموعات النقود الأكسومية ماثرا خلاف في تحقيقها وقد تبين أن من الممكن أن نميز بين مجموعتين كبيرتين من

النقود الاكسومية^(١)، إحداهما تحمل على أحد وجهيها صورة آدمية دون الوجه الآخر والأخرى تحمل صورة آدمية على كل من الوجه والظهر . والطراز من المجموعة الأولى كان معروفا لدى الأحباش منذ القدم في حين نجد الطراز من المجموعة الثانية دخيلاً على العملة الحبشية . ولما كان هذا الطراز الدخيل يشبه العملة اليمنية من حيث نقش صورة على كل من الوجه والظهر ، فقد ترجح أنه قد جاء من أصل يمني ، وربما حدث هذا التأثير بعد أن غزا الحبش بلاد اليمن ، فتمكنوا بذلك من نقل نظام عملتهم إلى بلادهم .

ثم إن هذه النقود من المجموعة الثانية، كما ظهرت من دراستها، قد عاصرت عهدين : الوثنية المنصرمة والمسيحية الطارئة : فمن المعلوم أن الوثنية الرسمية كانت موجودة حتى عصر إل عميذا والد عيزانا الذي كان أول ملك حبشي تنصر وقد عاش في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي .

وإذا رجعنا إلى أقدم ملك استخدم هذا الطراز الجديد المتأثر بالعملة اليمنية وجدناه الملك أفيلاس . وإلى عهده ترجع قطعة من النقود تعتبر تقليداً رومانياً لملك نصفي الوجه يرتدي

(١) راجع ما كتبه الاستاذ بريدو Prideau عن النقود الاكسومية في المجلد الرابع من كتابه :

حلة رومانية (توج) ، وعلى رأسه قلنسوة مزينة بأشرطة ، وعلى ظهر القطعة رسم لشجرة أوسنبلة ، وعلى وجهها مكتوب (أفيلاس ملك الأكسوميين) ونقش على ظهرها (من قبيلة ديميلي) وفيها بعض العلامات التي تميز النقود الوثنية وفيما عدا هذه القطعة فإن هناك مجموعة أخرى ، ترجع الى الملك نفسه ولكنها تمتاز بالطراز ذى الصورتين . ولعل السر في ذلك أن هذا الملك قد عاش في فترتين فترة لم يتأثر فيها الحبش بالعملة البينية واليها ترجع العملة السابقة ، وفترة تأثروا فيها بالطراز البيني وقلدوه ، وربما كان ذلك نتيجة غزوة أرسلها هذا الملك الى بلاد اليمن ، فكانت القطعة الأولى كانت أسبق من اخواتها إذ ضربت قبل أن يغزو الملك بلاد اليمن ، أى قبل أن تتأثر العملة الحبشية بطريقة اليمن في صدك النقود . ومن ذلك رجح أن يكون أفيلاس هو أول ملك أدخل هذه العملة الجديدة إلى بلاد الحبشة ، وان على يديه حدثت غزوة لبلاد اليمن ، وأنه اتجه نحو الشمال حتى وصل إلى مدينة الحوراء . والراجح أن أفيلاس هذا لقب لهذا الملك وأن من القابه أيضا إل أسفح (٢٧٧ - ٢٩٠ م) ، ولفظ أفيلاس مختلف في أصل اشتقاقه ومعناه ، وهو مكتوب على الطريقة اليونانية ، أى بزيادة مقطع as في آخرها ، وربما كان أصل اسمه أفيل أى فم الله ،^(١)

(١) الاحباش يسمون أف كرسطوس أى فم المسيح وأف ورق أى فم الذهب .

وقيل إن الاسم يذكرنا بالاسم الوارد في النقوش اليمنية (هوفيل)
وقيل غير ذلك ^(١)

أضف الى ذلك دليلاً آخر يثبت أن صاحب النقش كان
في النصف الثاني من القرن الثالث، وهو أن مملكة سبأ وذى ريدان
عادت تجتمع في نهاية هذا القرن، تحت لواء أمراء وطنيين، منهم
ياسر يهنم ملك سبأ وذى ريدان الذى ترجع نقوشه الى ٢٧٠،
٢٧٤ م، وشمير عر عش ملك سبأ وذى ريدان الذى يرجع نقشه
الى ٢٨١ م.

وبعد قليل، نجد لقب شمير عر عش يصبح ملك سبأ وذى
ريدان وحضرموت مما يدل على أن شمير قد استولى على حضرموت
وأضافها الى ملكه، وأن الحرب امتدت حينئذ من الحدود الشمالية
لببلاد سبأ أعنى من نجران (مدينة شمير كما يسميها نقش النمارة)
حتى المحيط الهندي، حيث حضرموت التى تقع في الجنوب الشرقى.
ولم تقف حروب شمير عند حضرموت، بل تحدثنا بعض النقوش
عن حوادث أخرى؛ ففي نقش آخر ^(٢) يجد شمير عر عش في
إخضاع القبائل التى لم تعترف له بالزعامة وكانت إحدى حملاته

(١) راجع ما كتبه كوتى روسيف في المجلة الاسيوية عدد يوليو -

سبتمبر عام ١٩٢١.

(٢) CIH, 407.

موجهة الى سحرت وحلفائها لإخضاعها ، وسحرت هي قاعدة الحبش في بلاد العرب ، وتقع في الزاوية الجنوبية الغربية منها ، واستعان شمر بقبيلة مردود (ويظهر أن اسمها لا يزال باقيا حتى الآن في وادي سردود شمالي الحديدة في اتجاه سحرت) فوقفت بجانبه ضد سحرت . وكان من أثر ذلك أن تقهر أهل سحرت الى البحر، وطردها الى الشمال في اتجاه جبلين متفرقين يسميان (عكوتان) في أرض زبيد^(١) ولا يذكر النقش اسم الحبشة ولا الجهة التي لجأ اليها أهل سحرت ، وربما لجأوا الى البحر ليستنصروا أحباش إفريقية .

حدثت هذه الحملة وشمر لا يزال ملك سبأ وذى ريدان . ويظهر أنها كانت سببا في تدخل الأكسوميين مرة أخرى في شئون بلاد العرب ؛ ولكن النقوش لا تدلنا على شيء في هذا الأمر . وإنما دللتنا دراسة النقود ، كما رأيت ، على تأييد هذا الزعم .

وبهذا نرجع حدوث هذه الغزوة في نهاية القرن الثالث الميلادي لتخليص أهل سحرت من يد شمر ، والضرب على يد هذا الملك الثائر الذي أراد التوسع في الفتوح فضم بلاد العرب الجنوبية إلى ملكه .

(١) معجم البلدان لياقوت ٣٨ ص ٧٠٧

وظل الحبش سادة على بلاد اليمن منذ نهاية القرن الثالث الميلادى حتى القرن الرابع الميلادى ، وما يؤيد ذلك ، سكوت النقوش العربية فى هذه الفترة عن ذكر أى خبر عن حكام اليمن . ثم كان أول ذكر بعد ذلك فى النقوش سنة ٣٧٨ م حين حكم ملكى كرب يهنعم فى بلاد حمير .

وفى النقوش الحبشية ما يؤيد وقوع اليمن تحت حكم الأحباش فى هذه الفترة ، فلدينا نقش يرجع الى عهد أحد الملوك الأحباش وكان سابقا لعهده الملك عيزانا (اى قبل سنة ٣١٧م) ويلقب هذا الملك بملك الأكسوميين والحميريين .. ثم كان لقب عيزانا (ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين وصيامو^(١) ويحه وكاسو) وكل الأمم أو البقاع المذكورة كائنة فى بلاد العرب ما عدا أكسوم ويحه وكاسو .

وفى عام ٣١٦م توفى إل عميدا والد عيزانا فأصاب البلاد بعد موته انحلال حين تولى العرش عيزانا وكان طفلا تحت وصاية مؤقته ظلت حتى بلغ عيزانا أشده ، ومن المعروف ان عهد الوصايات تنطوى على ضعف سياسى غالباً فسرى الضعف فى مستعمراتهم ، وساءت إدارة الأحباش ، وبدأ تألب القبائل الجنوبية ، وطمع

(١) قبل سلحين هى مارب ، صيامو هى تهامة اليمن .

عرب الشمال فيهم ، واستغلوا ضعفهم للاستيلاء على اليمن . ففي حوالى ٣٢٨ م ، كما يدلنا نقش النمارة ، الذى اكتشفه ديبسو ، وهو نقش عربى قديم ، رأينا ملكا عربيا اسمه امرؤ القيس ، يلقب نفسه بملك العرب جميعا ، ليس غسانيا ولكنه كان من ملوك الحيرة الذين كانت دولتهم على حدود العراق ، واستطاع بنفوذهم أن يكون حاكما من قبل الرومان أيضاً . وهو فى نقشه يشير إلى أنه أحرز التاج ، وملك الأسدين (أسد وطىء قبيلتان فى بلاد العرب بجوار جبل شمر) ونزاراً وملوكهم (وكانت نزار تقع فى الشمال الغرب من الجزيرة العربية) . وتوسع فى الفتوح حتى بلغ بخران مدينة شمر (شمر يهر عش) .

كان الملك عيزانا مولعاً بالقتال إلا أنه لم يعبر البحر لإخضاع العرب بالرغم من أن العرب كانوا قد أحدثوا بعض القلاقل وأحسوا بضغط الحكم الحبشى ، ولا ندرى هل كان هذا الإغفال راجعاً الى ضعف هذا العهد ، أم إلى أن البلاد المحيطة بدولته بدأت تتمرد عليه من ذلك الحين فانشغل بها عن محاربة اليمن ، أم أنه اكتفى بحكمه الصورى على اليمن وفوض الادارة الحبشية فيها أمر إخضاع هذه البلاد وحكمها .

دخلت المسيحية في بلاد الحبشة على يد أحد رجال الدين الإسكندريين ، ويدعى فرومنتيوس^(١) حوالي ٣٣٠ م أى في حكم عيزانا وقد اعتنق عيزانا المسيحية على يديه ، فهو أول ملك حبشى اعتنقها على الراجح ، وكان معاصر القسطنطين الأكبر ، وبعض الباحثين يسمون عيزانا قسطنطين الحبشة تشبيها له بالاول ، إذ أنه جعل المسيحية ديناً رسمياً في الحبشة ، وفي بعض نقوشه أنه حارب مملكة مرو وهي الأرض التي كان يسكنها أهل النوبة والكوش^(٢) ، وكانت لاتزال على دينها الوثني حين هاجمها عيزانا فهدم ما فيها من الأصنام . ومنذ أن دخلت المسيحية في الحبشة لم نسمع عن ملوك أكسوم حتى نهاية القرن الخامس الميلادى حيث وجدنا الملك تازينا (ويسمى إل عميدا وهو غير إل عميدا والد عيزانا) يتمثل في بعض نقوشه وثني العقيدة وفي بعضها مسيحياً .

وفي ذلك الحين ، كما سبقت الإشارة ، وفد تسعة رهبان من السريان ، من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة Monophysites وبشروا بالمسيحية في البلاد . والظاهر أن المسيحية لم تنتشر وتتأكد دعائمها إلا بعد قدوم هؤلاء الرهبان ، وأن تبشير فرومنتيوس وإن

(١) عين فرومنتيوس مطرانا على الحبشة وسماه الاحباش (أباسلامه) .

(٢) سكن أهل النوبة في المجرى الاوسط لنهر عطبرة ، ويسمى مجراه الاعلى

نهر تسكازه . وسكن الكوش في المجرى الادنى لعطبرة عند اجتماعه بالنيل أى في منطقة مرو .

كان قد ترك آثارا ، إلا أنه لم يصادف نجاحا كبيرا في البلاط
الأكسومي ، وربما كان هذا راجعا إلى ضعف المطارنة الذين تولوا
من بعده كرسي الحبشة ، ووقوف أصحاب المذاهب الأخرى
في وجه انتشار الارثوذكسية في الحبشة .

وقد اكتشف الباحثون قطعا من النقود الحبشية تحمل أسماء
ملوك جديدة ، قد تبلغ العشرة ، لم يذكرها الباحثون القدماء ، ولا
نكاد نجد منهم في جداول الملوك إلا اسمين : إل جيز وأرماح . ويقال
إن أرماح هذا حكم بعد إل عميدا (تازينا) فيكون حكمه من
٤٨٩ - ٥٠٣ م ، ^(١) ويسمى أرماح الأول تميزا له عن أرماح الثاني
الذي يظن أنه عاش في القرن السابع وكان معاصر للنبي عليه السلام .
وبعد بعثة فرومونتوس بستين (أى بين ٣٤١ ، ٣٤٦ م)
ذهبت إلى اليمن بعثة على رأسها ثيوفيلوس الهندي ^(٢) ، وكانت اليمن

(١) Budge vol.1, p. 261

(٢) قيل سمي الهندي نسبة إلى جزيرة هندية اسمها ديبوس ولكن
جلازر أثبت (Abessinier, p. 167) أن هذه الجزيرة تقع على الساحل
العربي للبحر الأحمر قرب أنفودا ، فلو صح ذلك لساعدنا على معرفة لماذا أرسل
ثيوفيلوس على رأس هذه البعثة إلى تلك البلاد ، إذ يكون في هذه الحالة
أجد من غيره برئاسة هذه البعثة لكونه أكثر خبرة بأهل اليمن . وكثيرا ما يطلق
الرومان واليونان على اليمن كلمة الهند ، وأصل هذه التسمية أن الفرس كانوا
يطلقون كلمة السود على الاحباش الذين تحالفوا معهم في جنوب بلاد العرب
أسوة بالشعوب ذوى الجلود السوداء الذين عاشوا قريبا منهم وهم الهنود

في ذلك الحين قد استردت استقلالها وحريتها . وكان ثيوفيلوس آريوسيا ^(١) . أرسله قسطنطين مصحوباً بهدايا إلى حمير للتبشير بالمسيحية على مذهب آريوس في بلاد اليمن .

وكان الخلاف على أشده بين آريوس ومثل مذهب كانت تعده كنيسة الإسكندرية إلحاداً وبين أثناسيوس بطريق الإسكندرية ومثل كنيستها ، وكان فرومونتئوس موفداً إلى الحبشة من قبل أثناسيوس هذا ، لهذا كانت المنافسة شديدة بين ثيوفيلوس في اليمن وفرومونتئوس في الحبشة .

والظاهر أنه كان من أغراض بعثة ثيوفيلوس ضمان حرية العبادة للرومان المسيحيين القاطنين بهذه البلاد ، والحصول على فوز للمذهب الآريوسي يضاهي ما حصل عليه الأرثوذكس في الحبشة . ولما كانت الحروب ناشبة في ذلك الحين بين الروم والفرس

ثم انتقلت هذه التسمية إلى الغرب عن طريق المريان ، لهذا كان من الصعب أن نعرف دلالة (الهند) حين تطلقها هذه الشعوب (راجع ما كتبه ريتشارد بل في كتابه *Origin of Islam in its Christian environment* ,

p. 34. London 1928,

(١) نسبة إلى آريوس ، عالم مسيحي ، نشأ في إفريقية وترك وطنه إلى الإسكندرية ، وعاش في القرن الرابع الميلادي ، وكان يرى أن المسيح مخلوق كسائر البشر ، وأنه لم يكن منذ البدء ، بل أنه مخلوق أخرجه الله من العدم لكي يخلق به بقية الخلائق .

وكان الفرس قد ملكوا ناصية الطرق التجارية البرية مع الهند
 فرمما كان من أغراض هذه البعثة أيضا ، أن يطلبوا الى أمراء اليمن
 المفاوضة في ضمان حسن نيتهم إزاء تجار الرومان الذين كانوا
 يعبرون ببضائعهم عن طريق اليمن ^(١) ، ولكن يظهر أن بعثة
 ثيوفيلوس لم تصادف نجاحا كبيرا في بلاد اليمن .

وكان ثيوفيلوس مزوداً بخطاب من الإمبراطور إلى عيزانا
 وأخيه سيزانا وهو يلقيهما في خطابه (بالشقيقين العزيزين) ،
 وقد سعى ثيوفيلوس للذهاب إلى الحبشة وإقناع فرومنتيوس
 بالتخلي عن أثناسيوس واعتناق مذهب آريوس فلم يفلح .
 وكان طبيعيا ألا يحصل ثيوفيلوس على فوز ديني أو سياسي
 في اليمن لسبب ظاهر: هو تدخل الفرس في شئون اليمن وتحريضها
 على مقاومة نفوذ الرومان في هذه البلاد .

الباب الثانى

. والقرن السادس الميلادى حافل بأخبار الحبشة وعلاقتها باليمن ، وان كانت هذه الأخبار لا تخلو من فجوات غامضة . فقد دونها الرومان ، واليونان ، والعرب ، وعثر على نقوش قيمة ترجع الى هذا القرن . ولعل أهم مادونوه من تلك الكتب :

١ — كتاب أعمال القديس الحارث Acta Si. Aretae وهو من أقدم النصوص التى قصت لنا الحوادث التى جرت فى اليمن من تهود ملك حمير وقتله المسيحيين وعلى رأسهم الحارث زعيم نجران وتدخل الحبشة وقتلهم للملك اليهودى .

والراجع أن هذا الكتاب منقول من أصل يونانى غير معروف ، وإن كثيرا مما ورد فى الروايات العربية ، مما رواه ابن إسحق وهشام من هذه القصة قريب مما ورد فى هذا الكتاب ^(١) .

٢ — كتاب الحميريين (كشافدحميريا) وهو عبارة عن أوراق قديمة جدا باللغة السريانية وفيها أجزاء تالفة وأخرى ضائعة تتناول

(١) راجع مقدمة اكسل موبرج فى كتاب The Book of the Himyarites, Lund 1924

نفس موضوع الكتاب الأول وقد نشره الاستاذ أكسل موبرج في لندن سنة ١٩٢٤ واثبت أنه من أقدم النصوص التي ذكرت هذه الحوادث ، ورجح أن تكون هي المصدر الاصلى لبعض المصادر السريانية الأخرى، وأنه كتب في زمن معاصر تقريبا لشهداء نجران أى حوالى ٥٢٥ م .

ومن النصوص السريانية التي كان الباحثون يعتمدون عليها قبل نشر هذا الكتاب ولا يزالون . خطاب سمعان أسقف بيت أرشام وهو معاصر أيضا ، فقد سمع في العراق خبر القصة من شهود عيان فدونها في هذا الخطاب . وأرسله الى سمعان رئيس دير جابول ، وقد نشر هذا الخطاب في روما ١٧١٩ في رسالة نشرها السمعاني في المكتبة الشرقية ^(١) .

كذلك ليعقوب الرهاوى وصف لهذه القصة في بعض ميامره (منشوراته التعليمية) أرسله إلى المسيحيين من بني حمير ^(٢) . وهناك ترنيمة ليوحنا بسالتى تشيد بهؤلاء الشهداء ، ترجمت من اليونانية الى اللسان الرهاوى (السرياني) ^(٣) .

(١) ٢٦٤ : ١ - ٢٧٩

(٢، ٣) راجع ما كتبه شريتر Schroeter في مجلة ZDMG مجلد ٢١

عام ١٨٧٧ .

ويلاحظ أن هذه الكتب والرسائل (١ ، ٢) تمتاز بروح دينية متعصبة للمسيحية ساخطة على جور اليهود .

٣- ما كتبه المؤرخون الرومان مثل بروكوبيوس، وكوزماس، ومالالاس وغيرهم وهؤلاء عرفوا ما حدث في بلاد اليمن في ذلك الحين من قلاقل دينية ، وعرفوا المعارك الناشبة بين اليمن والحبشة، وتحدثوا عن تدخل الامبراطور البيزنطى . فيتحدث كوزماس عما شاهده بنفسه في عدول ، حوالى ٥٢٥ م من استعداد الحملة حبشية يقوم بها الملك إل أصبحه ملك أكسوم على بلاد حمير . ويمدنا بروكوبيوس بمعلومات صحيحة عن البحر الاحمر والملاحة فيه . ويرسل الامبراطور البيزنطى رسوله نونوزوس الى ملك أكسوم فيكتب تقريراً عن هذه البعثة ، ولكن مالالاس يخبرنا أن هذا التقرير مع الاسف لم يعثر منه إلا على جزادات ذكرها فوتيوس في مجموعة بون للكتاب البيزنطيين .

١

قل إن سلالة من اليهود كانت قد لجأت الى بلاد العرب هرباً من اضطهاد أباطرة الرومان ، ولا سيما عقب تخريب بيت المقدس (٧٠ م) ، حيث ذبح منهم مئات ، وفر عدد كبير الى حدود العالم القديم ، وأنسوا جماعات قوية ولا سيما في بابل . من هؤلاء من

لجئوا إلى بلاد العرب وانتشروا فيها من طور سيناء حتى عمان شرقا وعدن جنوبا . وكانت هذه الجماعات ، إذا اتفق نزولها بين شعوب بدائية ، أو قبائل همجية ، تغلبت عليهم بما لها من حضارة قديمة ، وتحولت الى مستعمرات مستقلة . وهذا ما حدث في بعض المناطق العربية .

ولقد أولع اليهود في التاريخ بحب الانتقام ، وإشعال الثورات كلها وجدوا إلى ذلك سبيلا . فقد فعلوا ذلك على حدود الامبراطورية في الشرق فأشعلوا الثورات ، وحرصوا الفارثين والفرس والعرب وقبائل الشرق المتوحشة . وربما ترجع هذه النزعة الانتقامية إلى (رد فعل) ما كان يحدث من اضطهادهم المتواصل بالسبي والإهانة والتشريد ^(١) .

وقد حدث أن استقرت في اليمن طائفة منهم ، ووجدوا أنفسهم في حماية الفرس أصحاب الدعاية القوية في حمير ، ولا سيما وقد كانوا لاجئين من اضطهاد الرومان أعداء الفرس ، فما كاد اليهود يملكون ناصية الحكم في أرض حمير حتى ظهرت فيهم روح الانتقام من النصارى الرومان العابرين ببضائعهم الهندية في طريقهم إلى الحبشة ومصر .

وتذكر السكتب العربية قصة تهود بعض ملوك حمير ، فتقول
 إن تبان أسعد أبا كرب ملك حمير هو أول ملك مهتود من ملوكهم ،
 وكان له بنون ثلاثة : حسن وعمر ووزرعة ، ويقال إن زرعة هذا
 هو ذو نواس^(١) آخر ملوك حمير الذي حكم في رواية من ٤١٠ -
 ٣٠ ، م وكانت عاضته ظفار (ريدان) .

والمفهوم أن المسيحية كانت تربط الدول المنتصرة بالدولة
 الرومانية ربطا قويا ، وبعبارة أخرى كان اعتناق المسيحية سبيلا
 إلى بسط النفوذ الروماني ، فقد كسبت الدولة الرومانية صداقة
 الأحباش بعد أن صادفت دعوة فرومنتيوس نجاحا فيهم ،
 وفشلت بعثة ثيوفيلوس في اليمن لأن الحركات المناوئة كانت
 عنيفة لم يستطع مقاومتها ، فقد كان للفرس فيها صولة وجولة ،

(١) اختلف في أصل تسميته : ذكر ابن هشام (ص ١٩) أنه زرعة ، ويرى
 ابن خلدون (٢٠ ص ٥٩) أنه لما قلب على ملك آبائه تسمى يوسف ، وقيل إن
 ذا نواس لقب مفسوب إلى أسرته أو عشيرته كما يقال دوزن وذو جدن وذو قن ، وأن
 نواس قبيلة سبئية ذكرت في النقوش وربما كان ذو نواس هذا مفسوبا إليها
 (هارتمان) . واسمه (مسروق) في كتاب الحميرين ، ويرى شروتر أن مسروق
 ترجمة لذي نواس باللغة السريانية ، ذلك أن العرب يقولون أنه سمي ذا نواس
 لأن ذؤابتين كانتا تنوسان على عاتقه (ابن قتيبة ص ٣١١) وأن (سرق) في
 السريانية معناها سرح أو رجل أو مشط الشعر . لهذا سماء السريان مسروقا
 بصيغة مفعول العربية الشمالية . ثم جاء العرب وأخذوا القصة من السريان
 فخرجوا مسروقا بذي نواس .

من هذا نفهم لماذا مكن الفرس لليهود في بلاد امين ، ولماذا لجأ بعض ملوك حمير إلى اليهودية . الغالب أنهم صنعوا ذلك ليحاربوا المسيحية بدين مثلها من جهة ولأن اليهودية كانت تعتمد على تأييد الفرس في حين كانت المسيحية تستند إلى الدولة الرومانية الشرقية الطامعة في غزو بلادهم .

٢

ومن الممكن أن نفهم مما ذكره بعض المؤرخين (كيوخنا الأفزوسى ومالالا وغيرهما) أن تشكيل اليهود بالمسيحيين في بلاد امين كان سببا في نشوب حربين ، فرووا أن دميانوس أو دمنوس ملك حمير اليهودى كان قد أمر بقتل قافلة أو أكثر من قوافل التجار الرومان الذين كانوا يجتازون مملكته إلى بلاد الحبشة ، فأوغر ذلك صدر ملك الحبشة إيدوج Aidog (كما يسميه يوخنا الأفزوسى ^(١)) و امبراطور الروم وانفقا على قتالهم ، وجردوا على الملك اليهودى حملة انتهت بانهزام دميانوس و قتله ، وولى الأحباش والرومان أميرا نصرانيا على حمير ولكنه لم يعش طويلا ، فوجد اليهود الفرصة سانحة لإقامة يهودى آخر عليهم .

(١) ورد اسم هذا النجاشى في كتب القدماء بصيغ مختلفة مثل

Adad, Aiga, Adadas, Andas, Anda etc (Kammerer, 109.)

وكانوا قد استعادوا شيئا من قوتهم ، فلولوا ذانواس^(١) اليهودى ملكا على حمير . وكان التجار قد انقطعوا عن طريق اليمن خوفا على حياتهم ، فاتجه بنوحمير إلى معا كسة المسيحيين الذين يقيمون بين ظهرانهم ، وكان من أهم معاقل المسيحيين مدينة نجران فدخلها ذو نواس عنوة وبكل بأهلها ومثل بجثث القتلى ، وهذا ما حفز ملك الحبشة ، واسمه فى هذه المرة إلأصبحة^(٢) ؛ على القيام بحرب أخرى ضد بلاد اليمن للقضاء على هذا الملك اليهودى التأثير .

فظاهر من هذه الروايات أن هناك حربين حدثتا بعد تهود ملوك حمير ، إحداهما نشبت بين دميان الحميرى وأيدوج الحبشى ، والأخرى بين ذى نواس الحميرى وإلأصبحة الحبشى ، ولكن الباحثين ينكرون وجود حربين ويزعمون أن النصوص الموثوق بها لا تذكر إلا حربا واحدة حدثت بين إلأصبحة وذى نواس فى القرن السادس الميلادى ، ويعدون ما ذكره القدماء

(١) ذكره المؤرخون القدماء بأسماء مختلفة فثلا أطلقوا عليه: Dunaan, Dunaas, phineas etc.

(٢) ويذكر القدماء هذا الاسم أيضا بصور مختلفة منها : Elletzbaas, Ellesboas, Elesbaan, Kaleb, etc.

وقد حكم إلأصبحة هذا حول عام ٥٢٢ م . وقد تحقق الباحثون من أن كالبهو إلأصبحة نفسه وذلك مما عثر عليه من النقود التى ترجع الى عهده (Kammerer, 117.)

متعلقا بنشوب حربين خلطاً منهم في الأسماء وسرد الحوادث ،
 ويزعمون أن دميانوس تجريف لاسم ذى نواس نفسه إلى غير ذلك
 من المزاعم. ولسكتنا نرى أن ما أوردوه من الأدلة لا يكتفى لتدعيم
 ما يزعمون، فليس من اليسير أن يكون دميانوس أو دمنوس تحريفا
 لذى نواس ، كما أننا لا نستطيع أن نوجد الصلة بين إيدوج وإل
 أصبحت. أضف إلى ذلك أن الأستاذ فل Fell قد رجح في بحث
 كتبه في مجلة المستشرقين الألمان^(١) أن إيدوج هذا هو الملك تازينا
 (أول عميدا) والد إل أصبحت، وأرجع تاريخه إلى حوالى ٤٨٠م.
 وفي رواية حبشية أن اضطهادا قد حدث بين النصارى واليهود
 في بلاد اليمين في زمن الملك شرحبيل يقف الذى عاش حول عام
 ٤٦٧م^(٢). ثم إن الروايات السابقة قد دلتنا على أن الملك اليهودى
 دميان ، كان سابقا لذى نواس وأنه كانت بين دميان وذى نواس
 فترة تولى في أثناءها على بلاد اليمين ملك نصرانى لم يعش طويلا ،
 فكان ذانواس لم يل عرش حمير بعد دميان مباشرة . فاذا فرضنا
 أن الفترة التى كانت بين الملكين اليهوديين حوالى الأربعين عاما ،
 كان من المعقول أن يكون دميان معاصرا لإيدوج ومعاصرا

(١). ZDMG, 35, 1881.

(٢) راجع مقدمة اكسل مويرج لكتاب الحميرين .

لشرحبيل يقف. وإذا كان ذو نواس قد ولى العرش حول ٥٢٠ م
كما عرفنا من قبل فالتنا نستطيع أن نحدد زمن الحرب الأولى
بالتقريب حول ٤٨٠ م .

٣

تتلخص رواية ابن إسحق ، المؤرخ العربى ، مما نقله عنه
ابن هشام والطبرى فى أن المسيحية فى بلاد اليمن دخلت على يد
فيمون أو عبد الله بن الثامر وقد تلقاها عن رجل أجنى . وكان
آخر ملوك حمير ذو نواس الذى اعتنق مع شعبه دين اليهودية
واتخذ عاصمته صنعاء . وحدث أن زحف على نجران بجيشه
ليحمل أهلها على دين يهود ، ولكنهم رفضوا فعذبهم بأن حفر
لهم أخدودا وملاها نارا وأحرق من أحرق وقتل بالسيف من
قتل وكان عدد ضحاياه زهاء عشرين ألفا . وكان من بين القتلى
عبد الله بن الثامر أو قتل قبلهم على رواية أخرى . وذهب دوس
ذو ثعلبان إلى ملك الروم وقيل إن الذى ذهب هو حيان أو جبار
بن فيض ، واستنصره على ذى نواس . ولم تسمح طول الشقة أن
يتدخل ملك الروم تدخلا مباشرا . فبعث مع الرجل العربى بتوصية
إلى ملك الحبشة ، فلى النجاشى الدعوة ، وأرسل جيشا بقيادة أرياط ،
وكان فى الجيش أبرهة الأشرم ، وانتهت المعركة بهزيمة الحميريين

والقاء ذى نواس بنفسه فى البحر وهو راكب فرسه ، وحكم أرباط اليمين .

أما رواية ابن الكلبي، فإنها تتلخص فى أن ذا نواس سار إلى نجران، وكان متعصبا لليهودية، ودخلها، وعذب أهلها بسبب تعذيبهم رجلا يهوديا يقال له دوس ذو ثعلبان . ففر رجل (لم يذكر ابن الكلبي اسمه) من نجران إلى ملك الحبشة مباشرة وطلب معونته ، وتلبث النجاشى فى الأثر، ثم قبل ، وكان ملك الروم قد أرسل سفنا تساعد النجاشى ، وأرسل النجاشى جيشا تحت لواء قائدين ، أحدهما أبرهة الأشرم . وانهزم بنو حمير وألقى ذو نواس بنفسه فى اليم ، وتولى أبرهة الملك فى صنعاء . أما أرباط فقد ذكر المؤرخ أنه قد ظهر بعد ذلك .

ويلاحظ أن كثيرا من هذه الروايات العربية قريب من النصوص التى ذكرها كتاب أعمال القديس الحارث، ولعل وفاة الملك اليهودى هو الخبر الوحيد الذى يمكن إرجاعه إلى كتاب الحميريين^(١)، على حين يذكر كتاب أعمال الحارث أن القائد الحبشى قد أخذ الملك اليهودى أسيرا ثم قتله . كذلك تجعل الرواية العربية عاصمة الحميريين صنعاء ، والمعروف فى التاريخ وفى سائر الكتب

الموثوق بها أن ظفار (ريدان) كانت هي العاصمة .
 ويعتقد الاستاذ جويدى أن المؤرخين المسلمين قد تعودوا أن يستقوا الاخبار المسيحية والرومانية في العصر الجاهلي من المصادر (السريانية - اليونانية) التي جاءت غالبا عن طريق السريان^(١). والرواية العربية تخط أيضا حين تشير إلى بدء دخول المسيحية في اليمن ، وفي هذا الخبر أيضا نجد أثر الأفكار السريانية - اليونانية مشوبة إلى حد كبير بالخيال والأساطير ، فمن المعلوم في آداب الكنيسة السريانية أن تاجرا من نجران ، يقال له حيان ، كان أول من أدخل المسيحية في هذه المدينة . فاذا قارنا هذا بما ذكرته الرواية العربية من أن حيان رجل استنصر ملك الروم على ذى نواس نجد اسم حيان يمثل في كل من الروايتين السريانية والعربية دورا خاصا ، ولكن هذا لا ينفى تأثر العرب بالسريان في هذه الرواية ، لأن من المعلوم أن أبطال الأساطير أو الأسماء البارزة فيها كثيرا ما يكونون عرضة لتبادل الأدوار ، وأقرب مثل لدينا دوس ذو ثعلبان ؛ فرواية تجعله رجلا مسيحيا هرب إلى ملك الروم يطلب مساعدته ؛ ورواية تجعله يهوديا يقتل أولاده على يد المسيحيين فيكون بذلك سببا لما حدث من اضطهاد^(٢) .

(١) نفس المرجع Xiii.

(٢) مقدمة اكسل موبرج . XIV.

ثم إن الرواية العربية تذكر أن الشهداء المسيحيين كانوا زهاء عشرين ألفاً ، ولكن ترنيمة يوحنا تذكر أن عدد القتلى يربو على المائتين ، وهذا معقول ، وربما كان ذلك ، في الوقت نفسه ، دليلاً على صحة هذه الترنيمة ومعاصرتها للحادثة . ^(١) كذلك مما لا يتمشى مع المعقول ما تزعمه الرواية العربية من أن ذا نواس بعد هزيمته قد ألقى بنفسه في البحر ، فليس من اليسير تصور اجتياز ذي نواس تلك الطريق الطويلة التي تمتد من نجران إلى الساحل ليلقى بنفسه في البحر . وإنما الراجح أنه أخذ أسيراً ثم قتل . أضف إلى ذلك أن الرواية العربية تذكر أن ذا نواس قد عذب أهل نجران بأن حفر لهم أخدوداً وملاًها ناراً ، ولكن الروايات الأخرى لم تبين لنا أن التعذيب كان على هذه الصورة ، وربما كانت الرواية العربية متأثرة بما جاء في تفسير قوله تعالى : (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود . . الخ) سورة ٨٥ . وأرى أن نناقش ما ذكره المفسرون في تفسير هذه الآيات معتمدين على تفسير ابن جرير الطبري (٢٢٤ - ٥٣١٠) الذي يعد من أقدم المفسرين ، لنعرف مدى العلاقة بين مدلول هذه السورة وبين قصة تعذيب المسيحيين في نجران ، وما هو المقصود من السورة الكريمة .

يروى الطبري تفسيرات شتى لهذه السورة : أحدها أن السورة تشير إلى قصة الحميريين وشهداء نجران ، نقله عن قتادة عن علي بن أبي طالب ، وفيه يقول (إن أصحاب الأخدود هم ناس بمذارع اليمين اقتتل مؤمنوها وكفارها فظهر مؤمنوها على كفارها). وروى مجاهد مثل هذا التفسير ولكنه كان أشد إيجازاً، فلم يزد على أن قال (إن الأخدود شقوق في الأرض بنجران كانوا يعذبون فيها الناس). وهذا كما يظهر ليس بالكلام الصريح الذي يفيدنا في أمر هذه القصة ، فقد سكت الرواية عن ذكر ذى نواس وأمر نصارى نجران معه فلم توضح لنا من هم هؤلاء المؤمنون والكفار الذين اقتتلوا ، ومن هم هؤلاء الناس الذين عذبوا في أخاديد نجران، ويرجح الاستاذ لوث^(١) أن السورة لا تشير إلى هذه القصة. وإن ما رواه قتادة إنما هو من عنده ، استقاه من بعض نصارى نجران الذين أمرهم عمر أن يهاجروا إلى العراق عام ١٢ هـ ، ولا سيما إذا عرفنا أن قتادة (٦٠ - ١١٧ هـ) عالم عراقي نشأ في البصرة ، وعاش قريباً من المنطقة التي رحل إليها هؤلاء النجرانيون بعد نصف قرن من مولد قتادة. فلما جاء ابن اسحق في القرن الثاني الهجري ، وذكر تفصيل هذه القصة ، رأينا المفسرين بعد ذلك، وقد عرفوا تفاصيل

القصة من ابن اسحق وغيره ، يوضحون ما أوجزت رواية قتادة ، بل وجدنا أحاديث تنسب إلى النبي ، يرويها الترمذى ومسلم ، تشير إلى قصة أهل نجران وما نزل فيهم من القرآن ، على حين لم يذكر الطبرى عن النبي حديثاً واحداً يثبت الصلة بين قصة أهل نجران والسورة الكريمة . ويعجبني يا قوت (+ ٦٢٦ هـ) فى تعليقه على ما روى عن ابن اسحق والترمذى ومسلم فى هذا الصدد بقوله : (خبر الترمذى ومسلم أعجب إلى من خبر ابن إسحق ، لأن فى خبر ابن اسحق أن الذى قتل النصارى ذو نواس وكان يهودياً صحيح الدين ودين عيسى إنما جاء مؤيداً ومسدداً للعمل بالتوراة ، فيكون القاتل والمقتول من أهل التوحيد ، والله قد ذم المحرق والقاتل لأصحاب الأخدود ، فبعد إذ أما ذكره ابن اسحق . وليس لقاتل أن يقول إن ذا نواس بدل أو غير دين موسى عليه السلام لأن الأخبار غير شاهدة بصحة ذلك . وأما خبر الترمذى أن الملك كان كافراً وأصحاب الأخدود مؤمنين فصح إذا والله أعلم ^(١) لهذا - كما ترى - نستبعد هذا الرأى وننظر فى غيره من الأقوال :

ب - رواية أخرى يرويها صهيب عن النبي (ص) تلخص فى أن بعض الملوك قد عذب المؤمنين بالله من قومه بأن خذلهم

أخذودا وملاًها نارا فمن لم يرجع عن دينه طرحه فيها وهي قصة لم يصرح فيها باسم ولا زمان ولا مكان . ويرى الاستاذ لوث أن هذه الرواية ، وهي التي تنسب الى النبي (ص) من بين ما رواه الطبرى فى تفسير هذه السورة ، تعبر لنا عن مضمون قصة استشهاد جرجيس Saint George . والعرب يعرفون هذه القصة من قديم وقد أشار الطبرى إليها وذكر أخبارا منها فى الجزء الأول من تاريخه ص ٧٩٥ وهي سريانية الأصل .

ج - ورواية ثالثة ذكرها ابن عباس ترى أن السورة تشير الى رجال دانيال الذين عذبوا فى أتون متقد ، ويرى الاستاذ جيجر Geiger أن هناك تشابها بين العبارات التي وردت فى قصة تعذيب أصحاب دانيال فى التوراة وما ورد فى هذه السورة القرآنية . فكأن نجد فى السفر (فى الاصحاح الثالث) عبارة (أتون نورا يا قذتا) أى أتون النار المتقدة ، ولفظ قتل أى قتل مستعملا بمعنى الإحراق (فى الآية ٢٢ الاصحاح الثالث) ، فكذلك نجد القرآن يعبر عن أتون النار المتقدة بقوله (الأخدود النار ذات الوقود) ويعبر عن الإحراق بقوله (قتل أصحاب الأخدود) . وسواء أكان المقصود من هذه السورة قصة جرجيس أو قصة أصحاب دانيال فمن الراجح أن تكون القصة قد عرفها العرب عن طريق الحبشة - اليمن وربما كان دليلنا فى ذلك كلمة

أخدود ، فسرى فيما بعد أنها ليست عربية الأصل وإنما دخلت إلى العرب عن طريق اليمن أو الحبشة . وربما كان صدور هذه القصة من هذه الجهة قد جعل المفسرين والرواة يظنون أن حوادث القصة قد وقعت في بلاد اليمن ، ومن الروايات التي نجدتها في كتب التفاسير المتأخرة ما يزعم أن القصة وقعت حوادثها في الحبشة ^(١) . وربما ساعد على هذا التصور تشابه هذه القصص ، واشتراكها في مسألة تعذيب المؤمنين واستشهادهم في سبيل عقيدتهم .

٤

وصلت بعثة من اليمن إلى المنذر الثالث ملك الحيرة تنبئ بما صنعه ملك اليمن الجديد من تعذيب المسيحيين والتمثيل بهم . وكان الغرض من هذه البعثة إغراء المنذر لتقديم معونة إلى المسيحيين في اليمن . والمنذر هو ممثل الفرس الذين كانوا يناصرون اليهود ويمكنون لهم في بلاد اليمن ، لهذا كان طبعيا أن يرفض مطالب البعثة . وعرفت الدولة الرومانية خبر ذي نواس من خطاب أرسله الاسقف سمعان إلى ملك الروم يستحثه ويستعطفه ، كما عرف الخبر من دوس

ذى ثعلبان ، هذا النصرانى الذى ذكرت الرواية العربية أنه فر من نجران إلى القسطنطينية وطير الخبر إلى الإمبراطور لاجئاً إليه مستعيماً به . ويقال إن الأمر الذى زاد فى تحمس ملكى الروم والحبشة ، وأكد عزمهما على قتال ذى نواس ، هو ما بلغهما من تعذيبه الحارث النصرانى ، زعيم النجرانيين ، وكان عظيماً فى قومه ، وقوراً ، قد بلغ من العمر أربله ، ولم يمنع ذا نواس كبر سنه ومركزه فى قومه من تعذيبه وتعذيب زوجته وبناته .

وحول سنة ٥٢٣ م أنزل النجاشى جنوده فى البحر استعداداً لقتال حمير ، وساعده الرومان بأسطول بحرى ، وعلى شاطئ ميناء جبزة (قرب عدول) رابط عشرون ألف جندى من رجال إل أصبحه ، واحتلت قوة من عشرة آلاف رجل أرضاً على ساحل مهجور من بلاد العرب (وربما كان فى منطقة موزا - محال الحالية -) وتقدموا سريعاً نحو نجران ؛ وانهت المعركة بهزيمة ذى نواس وسقطت ظفار عاصمة ملكه وقتله الأحباش .

وإذا كان الأحباش قد أفلحوا فى قمع الثورة الدينية التى كانت متأججة بين اليهود والنصارى فى اليمن بقتل ذى نواس ، وتدعيم المسيحية ، والقضاء على آثار الحكم اليهودى فى اليمن ، إلا أن ثورات من نوع آخر قد بدأت تندلع بعد فراغ الأحباش من هذه الحرب ؛ ذلك أن الأحباش قد أتاحوا للنفوذ الرومانى أن يقوى

ويشتد في انمين باستيلائهم عليها ، وهذا ما لم يرضه الفرس الذين عملوا جادين على بث روح الحرية وتنميتها في نفوس السكان المواطنين . ولقد أفلحوا في خلق شعور النفور من الاحباش المستعمرين في نفوس أهل اليمن ، ولا أدل على ذلك مما وجدته الهمداني منقوشاً على بعض الجدران في بلاد حمير « لمن ملك ذمار؟ لحير الاخيار ؛ لمن ملك ذمار؟ للحبشة الأشرار ، لمن ملك ذمار؟ لفرس الأحرار ، لمن ملك ذمار؟ لقريش التجار . (١) »

ثم لم يلبث أن دب الخلاف بين أحباش اليمن وأحباش أفريقية وأراد الأولون أن ينتزعوا الحكم ويستقلوا عن سادتهم في أفريقية وكان على رأس الثائرين أبرهة الأشرم ، ولكن ملك أكسوم يريد أن تظل اليمن ولاية تابعة لدولته ويولى عليها من يدين له بالولاء . وقامت ثورة الأمراء الوطنيين في ذلك الحين وعلى رأسهم سميفع أشوع يريدون أن ينتزعوا السلطة من أيدي الغاصبين ويطردوهم من بلادهم .

والمؤرخون الرومان يعرفون السميفع هذا ويسمونهم إسميفايوس ويذكرون أنه كان مسيحياً تولى أمر الحميريين بعد غزوة إل أصبحه ، ولكن مدة حكمه لم تطل فقد ثاروا عليه ،

وخلعوه ، وأرسل ملك الحبشة جنوداً لإخضاعهم ، فانضم الجنود إلى العصاة . فلما يش الملك من إذلالهم قنع بعقد الصلح بينه وبينهم . والنقوش تؤيد مآذركه الرومان ، فقد عثر على نقش في حصن الغراب بحضرموت يرجع تاريخه إلى ٥٢٥ م يقول إن سميفع أشوع وولديه : شرحيل يكمل ومعديكرب يعقر . . . كتبوا هذه الوثيقة : في حصن مويت (حصن الغراب) حين رموا أسواره ، وبابه ، وصهاريجه ، ودروبه في الجبال ، وتحصنوا فيه لما تقهقروا من أرض الحبشة ، وأرسل الأحباش حملة بأرض حمير ، عند ماقتلوا ملك حمير وأقباله الحميريين والأرحبيين ^(١) .

وربما يدلنا هذا النقش على أن الأحباش كانوا قد ولوا من قبلهم حاكماً على حمير ، فحاربه السميفع وبعض أمراء اليمن ، وربما قتلوه ، واستولوا على ملك حمير ، فأرسل ملك الحبشة حملة اليهم فأفلحت في إخضاعهم ، وهرب السميفع وحاشيته من وجه الأحباش وتحصنوا في الجبال . ولا نستطيع أن نعرف على وجه التحقيق من هذا القائد الذي كان قد ولاه الأحباش على حمير ثم قتل ، وربما

كان هو أرباط ^(١) الذى كان قائدا فى حملة إل أصبحه . والظاهر أن ثورة السميفع وسائر الأمراء لم تقمع نهائيا فى عام ٥٢٥ م الذى كتب فيه هذا النقش ، بل ظلت بعد ذلك فترة من الوقت ، فلقد ذكر النقش أنهم تحصنوا فى الجبال ، وأن ملك الحبشة أرسل اليهم جيشا لمحاربتهم ، ولم يذكر لنا نتيجة هذه الحرب ، والظاهر أن أبرهة ^(٢) كان فى هذا الجيش الذى طارد السميفع وأمراء حمير ، وربما وجد الفرصة سانحة ، بعد أن قمع الثورة وهزم السميفع ، أن يعلن نفسه حاكما على حمير (ربما حول عام ٥٢٠ م). ويقص لنا أبرهة فى بعض نقوشه أنه تابع للملك الحبشى رحبيس أو رماحس الذى باليمن (زيمان) وذلك فى عام ٥٤٢ أو ٥٤٣ م وربما كان رحبيس هذا لقبا للملك بيت إسرائيل بن إل أصبحه الذى تولى بعد أبيه حكم البلاد وربما كان هو الذى اعترف بأبرهة الأشرم ملكا على اليمن وأقر بمطالبه فيها ^(٣) .

(١) أرباط نقل محرف لكلمة الحبشية حواريات أى الحوارى ، والطبرى (١ ص ٩١٣) يذكر اسمه (أرباط أباصحم) فيكون معنى اسمه الحوارى أباصحم ، والحوارى عندهم كلمة تدل على القداسة والتدين .
(٢) الغالب ان ابرهة هذا كان من رجاله الدين المسيحى فى الحبشة ، والمرب تسميه الاشرم ، وبروكويوس بسميه ابراموس ، وهو بلغة الاحباش أبراهام .

وقيل ان بيت إسرائيل هذا قد حكم بنفسه بلاد اليمن وأقام فيها، ومن ثم ذكر النقش كلمة زيبان أى الذى باليمن . ثم تولى بعد بيت إسرائيل أخوه الأصغر جبر مسقل (أى عبد الصليب) على عرش أكسوم حول ٥٥٠ م وقيل بين ٥٧٠ ، ٥٨٠ م ^(١) . وكان أبرهة مسيحياً وقد بدأ بعض نقوشه بقوله : « بقدره الرحمن ومعونته ورحمته وبمسيحه وبالروح القدس » ^(٢) وروى أنه بنى كنيسة صنعاء وأنه قدس من فى الكنيسة قبل البدء بترميم سد مأرب .

وكان أبرهة يصبو الى استقلال اليمن وانفصاله عن دولة أكسوم لهذا كان يغتنم الفرص للتألب على النجاشى ؛ فثار فى أيام إل أصبحه ولكنه أرغم على دفع الجزية والخضوع للدولة الأكسومية . فلما تولى الملك الجديد (بيت إسرائيل) ثار مرة أخرى، وأفلح فى أن يعترف له الملك بسيادته على اليمن، وأن تكون تبعيته لدولة أكسوم اسمية فحسب . وفى بعض نقوش سد مأرب يلقب أبرهة نفسه بالأمير التابع للملك الحبشة، ملك سبأ ، وريدان ، وحضر موت ، ويمنات ، وعرب النجاد وعرب تهامة .

Id, p. 265. (١) .

Handbueh der Altarab. Altertum. Kopenagen, (٢)

1927 p. 103

وقد وصف العرب كنيسة صنعاء التي تسمى (القليس)^(١) وذكروا أن الذي بناها أبرهة ، ويلوح أنه بالغ في بنائها وزخرفتها حتى تكون قبلة العرب ومتوجه أنظارهم ، وحتى يكون لها أبلغ أثر في نفوسهم ، قال المؤرخون العرب في وصفها (ويدخل من باب الكنيسة الى بيت طوله ثمانون ذراعا ، وعرضه أربعون ذراعا ، مسقف بالساج المنقوش ، مسمر بمسامير الذهب والفضة ، وفي صدر القبة منبر من الآبنوس المرصع بالعاج ، المصفح بالذهب والفضة . .)

ورمم أبرهة سد مأرب عام ٥٤٢ م وكان قد تهدم قبل ذلك أكثر من مرة ، وفي هذه المرة بعث أبرهة الى القبائل بانفاذ الحجارة للاساس والحجر الخام والأخشاب ورصاص الصب لترميم السد ، وقد نبشت الانقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه . وقد قدم احتفال ترميمه وفود من الروم والفرس كما حضر المنذر ، ملك الحيرة ، والحارث بن جبلة ، وأبو كرب ابن جبلة .

ونظر أبرهة فوجد ولايات الجنوب التابعة له تحتاج الى

(١) كلمة مشتقة من اللفظ اليوناني Ekklesia ومعناه الاجتماع العام أو الكنيسة.

إدارة حازمة وتنظيم يكفل لها الأمن والسلام ، ولاسيما بعد تلك الثورات الداخلية التي اشتعلت في هذه البلاد فترة من الزمن . فولى يزيد بن كبشة أمر القيادة والإدارة على كندة بدلا من ولاتها السابقين ، وأسند اليه إمارة الولايات الأخرى وقيادتها بمساعدة بعض أقبال سبأ الأسحار (أو الأساحر) وهم مرة وثمامة وحنش ومرثد وحنيف ذو خليل ، كما استعان يزيد ببني أزان (يزأن) الأقبال ، وهم معديكرب بن سميفع وهعان وأخوته بنوسلم ، لكي يعينوه في إرسال بعض العصاة اليه الذين كانوا لا يزالون في طاعة ملك المشرق ، فأرسلوا اليه جاروه ذازنبار ، وقتلوه ، وهدموا قلعة كدار ، وجمع يزيد من أطاعه من كندة وحارب حضرموت ، وأسر مازن هجن الأذمرى أحد زعماء حضرموت ، وحاصر عبران ، وهناك استغاثت جموع كبيرة بيزيد وأعوانه فأنبروا لاغاثتهم ، وجمعوا هناك جيوشا كثيرة العدد من الأحباش والحميريين عام ٥٤١ م وتقدمت الجيوش شمالا من صروح الى نابط التي توجد في عبران وهناك سلم له قائد جيوش الأعداء . وظل يزيد يخضع العصاة في سبأ ويرسل من يؤدب العرب الذين لم يدعنوا له ويأخذ منهم الرهائن حتى تمت له الغلبة ، واستتب له الأمر ، ورجع أبرهة الى مدينة مأرب بعد أن رمم السد في موكب

من الأقبال الذين كانوا في سلم معه ، وهم ذومعاهر ابن الملك ومر
جذف أمير ذرانج وعادل أمير فياش وذو شولمان وذو شعبان
وذو رعن وذو همدان وغيرهم (١) . .

وسعى الروم الى ايجاد وحدة بين القبائل العربية لتقف
جبهة واحدة في وجه الفرس ، فتضافرت القبائل المعدية مع بني
حمير ، وجردوا حملة كبيرة على أرض فارس .

ويظهر أن الروم كانوا قد طلبوا إلى أبرهة أن يعمل على
مساعدهم في هذا السيل . ويذكر بروكويوس أيضا أن أبراموس
(أبرهة) عند ما بسط نفوذه ، وأمن ملكه ، وبعد الامبراطور
جستينان أن يغزو الفرس ، وقد بدأ غزوه بالفعل ، ولكنه
قفل راجعا في الحال . وربما مهدت هذه الحملة السيل إلى حملة أخرى
قام بها لغزو مكة ، وهي التي يسميها العرب غزوة الفيل .
والظاهر أن نية أبرهة في غزو مكة كانت متجهة إلى بسط نفوذه
على بلاد العرب ، وصرف العرب عن الوثنية وزيارة الكعبة

(١) هذا مضمون ما ذكر في نقش أبرهة الذي ورد في كتاب

إلى كعبة نجران وإلى كنيسة صنعاء . ويروى العرب أن أبرهة أراد بغزوته غسل الإهانة التي تعرضت لها كنيسته من جراء ما صنعه نفيل الخثعمي الوثني من أنه جاء بعذرة فلطخ بها قبلته كنيسته ، وجمع جيها فألقاها فيها . ^(١) تقول الرواية العريضة (فلما حل أبرهة على باب الكعبة، أتاها عبد المطلب، وقدها أبرهة للدخول ، وهياً جيشه ، وهياً فيله ، وكان فيلاً لم ير مثله في العظم والقوة) وأقبل نفيل الخثعمي ^(٢) إلى الفيل ثم أخذ بأذنه وقال له : أبرك محمود ، وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك يلد الله الحرام ، فبرك الفيل ، وأصيب جيش أبرهة بأن أرسل الله عليهم طيراً من البحر . . ، وخرجوا هارين يتبدرون الطريق الذي منه جاءوا) . وحدث أن أصاب الحبش إبلاً لعبد المطلب ، فأغضبه ذلك ، فقال لأبرهة : (أردد على أبي ودونك البيت فإن له ربا يحميه) ^(٣)

(١) الطبري ١ - ص ٩٤٤

(٢) تحتاج قبيلة خثعم إلى دراسة خاصة من حيث علاقتها بالحبشة ، إذ أن اسمها كثيراً ما يفتقر بالحبشة في الآثار والأخبار التي ذكرها المؤرخون العرب .

(٣) الطبري ١ - ص ٩٣٢ - ٩٤٥ .

على أن أبرهة قد فشل في هذه الحملة ، وكاد يهلك هو وجيشه بما لقيه من وعورة المسالك ، وتفشى الأمراض التي وصفها المؤرخون بقولهم : (إن أول مارؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام) ^(١).

والعرب يضعون هذه الغزوة في عام ٥٧٠ م ، ويسمونه عام الفيل ، والراجح عندهم أنها السنة التي ولد فيها النبي (ص) ، ولكن الباحثين يرجعون تاريخها الى حوالى ٥٤٠ م ، كما يرجعون استيلاء الفرس على بلاد اليمن إلى عام ٧٠ م . فيدعون بذلك ما بين الفترة ٥٤٠ ، ٥٧٠ م لحكم يكسوم ومسروق الحبشيين اللذين حكما بعد أبرهة . والعرب أنفسهم لا يجزمون بأن عام الفيل هو عام مولد النبي (ص) ، فقد قيل إن هذا العام كان قبل مولد النبي بأربعين عاما ، وقيل بثلاث وعشرين عاما .

على أن بعض الباحثين ، كوتى روسيني ، لم يقبل ما ذكرته الرواية العربية في غزوة الفيل ^(٢) ، فزعم أن القصة قد خلطت أو أدرجت غزوة أبرهة بغزوة أخرى قبلها ، هي غزوة أفييل (أفيلاس) في نهاية القرن الثالث الميلادى ، تلك التي تحدثنا عنها فيما سبق .

(١) الطبرى ج ١ ص ٩٤٥ .

J. A. Juill-Sept, 1921 (٢)

وقد حاول كوتى روسيني إثبات هذه النظرية بقوله إن أول من ذكر غزوة الفيل من المؤرخين هو ابن إسحق (١٥١ هـ) أى بعد حدوثها بحوالى قرنين ، فلا شك أن غوامل الزمن والنقل الشفوى وخيال المؤرخين قد أثرت إلى حد كبير فى تشويه حقيقة هذه القصة . ورأى هذا الباحث أن استخدام القيلة فى حملة تجريب المسالك الوعرة ، وتقطع الفيافي المترامية ، فى قلب الجزيرة العربية ليس بالأمر السهل ولا المقبول عقلا ، ورجح أن تكون غزوة الملك أقييل لبلاد العرب قد تنقلت بين أفواه العرب ، ووصلت إلى الحجازيين بعد قرنين من الزمان بعيدة عن حقيقتها ، وانقطعت العلاقة بين اسم الملك ومسماه ، وصار لقربه من لفظ الفيل علما على الحيوان المعروف ، وسمى هذا الحيوان باسم انسان ، فسمى محمودا ، ولعب الخيال فى أذهان الرواة ، فاندجحت هذه القصة القديمة فى قصة أبرهة التى هى أحدث عهدا منها ، والتى حدثت بعدها بثلاثة قرون، وجعل الفيل هدامية لأبرهة فى هذه الغزوة . ولعل الذى قرب هذا التصور إلى ذهن الباحث ما رآه من الروح الأسطورية فى سرد القصة العربية . وشك المؤرخين العرب فى عدد الفيلة ، هل كانت واحدا أم أكثر ، فقد زعموا أنه كان مع أصحاب الفيلة فيل واحد ، وقيل كانوا فيلة ثمانية ، وقيل

اثني عشر فيلا ، وإنما ذكره الله ^(١) موحدا لأنه نسبهم إلى الفيل
الاعظم الذي كان يقال له محمود ، وقيل إنما وحده لوفاق الآي ^(٢) .
ثم إن ما ورد في القرآن لا يدلنا صراحة على أن الفيل هذا هو
الحيوان المعروف ، بل ربما قصد بقوله (أصحاب الفيل) أصحاب
الملك الذي كان يسمى الفيل .

هذا رأي كوتى روسنى ، وهو وإن كان لا يخلو من طرافة
إلا أنه لا يخلو من تخيل أيضا . وعلى كل فنحن لا ننكر أن
في الرواية العربية روح الأسطورة ، ولكن نخشى أن يكون الخيال
قد لعب بذهن الباحث الإيطالي كما لعب في الرواية العربية .

٥

وانتهى حكم أبرهة حوالى (٥٤٤م) وتولى بعده ولده يكسوم ،
وقد حكم تسعة عشر عاما ، ثم خلفه مسروق أخوه ، وحكم اثني
عشر عاما . ولكن عصر الأول كان غامضا لم تصلنا منه أخبار
ذات غناء . وفي عصر الثانى بلغ ضيق حمير بالأحباش مبلغه ،
ووجد الفرس الفرصة سانحة لغزو اليمن .

(١) أى في قوله تعالى في سورة الفيل : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب

(٢) تفسير الخازن ج ٤ ص ٥٣٨

الفيل الخ . . .

وكان سيف بن ذى يزن ممن لعبوا دورا هاما في هذه
الآونة ، وهو رجل من أذواء حمير من أسرة عريقة في اليمن ،
سمعنا عن بعض أفرادها منذ عهد ذى نواس^(١) . وأبرهة الأشرم .
وكان للأسرة اتجاه سياسي واحد ، هو التمسك باستقلال اليمن
وانفصالها عن السلطان الأجنبي .

تقول الرواية العربية إن ذائزن كان يسمى أبا مرة الفياض ،
وكان أحد أشرف اليمن في عهد أبرهة الأشرم ، وكان تحته ريحانة
ابنة ذى جدن ، فولدت له غلاما سماه معديكرب ، وكانت ذات
جمال ، فانتزعها الأشرم من أبي مرة ، وتزوجها ، وولدت له غلاما
سماه مسروقا ، ونشأ معديكرب بن ذى يزن مع أمه ريحانة في
حجر أبرهة .

وعرف الفتي معديكرب ، بعد حين ، أنه ليس ابنا لأبرهة
الذى مات هو وابنه يكسوم ، فخرج ابن^(٢) ذى يزن قاصدا إلى
ملك الروم فلم يجد عنده ما يحب ووجد يحمى على الحبشة لموافقتهم
إياه على الدين^(٣) .

(١) مقدمة أكسل موبرج لكتاب الحميريين .

(٢) يقول ابن اسحق إن الذى خرج يستنصر ملك الروم والفرس هو
سيف بن ذى يزن ، ولكن ابن الكلبي يزعم أن الذى خرج هو معديكرب
ابن ذى يزن (طبرى ١ - ص ٩٤٥) .

(٣) طبرى ١ - ص ٩٥٢ .

فلجأ إلى كسرى ، وأقنعه ، فأرسل معه قوة من الجيش بقيادة
وهرز ، وركبوا البحر في ثمانى سفائن ، فخرجوا بساحل حضرموت
وسار إليهم مسروق في مائة ألف من الحبشة وحمير والأعراب ،
ولحق بآبن ذى يزن بشر كثير . ونزل وهرز على سيف البحر ،
وجعل البحر وراء ظهره . وقاتل الحبشة . وكان ملكهم راكبا
فيله ، عاقدا تاجه على رأسه ، بين عينيه يا قوتة حمراء ، ثم ظل
يتنقل على فرسه ، ثم على بغلته ، فأوتر وهرز قوسه ، ثم أمر
بحاجبيه فعصبا له ، ثم وضع في قوسه نشابة فمغط فيها ، حتى إذا
ملأها أرسلها فصك بها الياقوتة التى بين عينيه ، فتغلغل النشابة
فى رأسه حتى خرجت من قفاه . وتنكس عن دابته . واستدارت
الحبشة ، ولائت به . وحملت عليهم الفرس ، وانهزمت الحبشة ،
فقتلوا ، وهرب شريدهم فى كل وجه .

فلما ملك وهرز على اليمن ، ونفى عنها الحبشة . كتب إلى كسرى
بذلك . قال ابن إسحق : « فكتب إليه كسرى يأمره أن يملك
سيف بن ذى يزن على اليمن وأرضها ، وفرض كسرى على سيف
جزية وخرجا يؤديه إليه فى كل عام معلوم ، وكتب إلى وهرز
أن ينصرف إليه ^(١) . »

« فلما انصرف وهرز إلى كسرى ، وملك سيف على اليمن .
 عدا على الحبشة فجعل يقتلها ويقرر النساء عما في بطونها ، حتى إذا
 أفناها إلا بقايا ذليلة قليلة ، اتخذهم خولا ، واتخذ منهم جمازين
 يسعون بين يديه بحراهم ، فكث بذلك وقتا قصيرا .
 ثم إنه خرج يوما والحبشة تسعى بين يديه بحراهم حتى إذا
 كان في وسط منهم . وجثوه بالحرا ب حتى قتلوه ، ووثب بهم
 رجل من الحبشة فقتل باليمن وأوعث وأفسد . فلما بلغ ذلك
 كسرى ، بعث إليهم وهرز في أربعة آلاف من الفرس وأمره
 ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية من أسود إلا قتله صغيرا
 أو كبيرا ، ولا يدع رجلا جعدا قططا قد شرك فيه السودان إلا
 قتله ، فأقبل وهرز حتى دخل اليمن ففعل ذلك لم يترك بها حبشيا
 إلا قتله ^(١) . »

وهكذا تمكن الفرس وبنو حمير من طرد الحبشة المستعمرين
 وطغى الساسانيون على الشرق ، واستمر الفرس بعد قتال
 اليمن في غزو سواحل البحر حتى خضعت تحت سلطتهم .
 أما دولة أكسوم في الفترة ما بين ٥٧٠ ، ٦٣٠ م فتاريخها مثار
 خلاف بين الباحثين ، فالعرب يتحدثون عن ملكين من ملوك
 الحبشة أحدهما كان سابقا لعصر النبي (ص) ويسمونه أبجر ، والآخر

عاصر النبي، وكان بينه وبين المسلمين علاقة ودية، ويسمونه أصحمة^(١) والعرب يقولون إن الحبش قتلوا أبحر وولوا أخاه الذي هو عم أصحمة، وأبعدوا أصحمة عن الحبشة حتى يأمنوا جانبه فلا يطالب بحقه في العرش، فأتوا به إلى بلاد العرب، وباعوه لرجل عربي من بني ضمرة. وظل أصحمة في بلاد العرب، يرعى الغنم لسيدته حتى مات النجاشي عمه، وبحثوا عمن يخلفه، فلم يجدوا من يصلح من بعده غير الفتي الطريد، فبحثوا عنه، وأحضروه، وملكوه عليهم^(٢) إلى أن توفي في السنة التاسعة من هجرة النبي عليه السلام.

أما الباحثون المحدثون فيرجحون أن الملك الحبشي المعاصر للنبي (ص) هو أرماح الثاني^(٣) (أو أرمحة) وترجع إلى عهده قطع من النقود النحاسية، نقش على بعضها.

(نجوش أرماح، فشحا ليكون لأحزاب).

ومعناه: الملك أرماح، ليسعد شعبه.

(١) ويروي اسمه برسوم مختلفة: أصحمة، وأصحة، وصحمة، وأصبحة، وأصخمة، والصحيح عندهم هو النطق الأول.

(٢) الحبشان ص ١٥٨ — ١٦٢.

(٣) Budge, vol.1, pp.137, 270, 271. وقيل إن الملك المعاصر كان

يسمى مليخ الثاني وقيل غير ذلك.

وعلى بعضها الآخر :

(نجوش أرماح ، شهل وسلام) .

ومعناه : الملك أرماح ، رحمة وسلاما .

وليس من اليسير التوفيق بين أصحمة الذي عرفه المسلمون

وأرماح (أو أرمجة) الذي يذكره المحدثون . ولا يبعد أن

يكون أصحمة هذا ملكا على أقليم من الأقاليم الحبشية .

وقد سئل أحد علماء الأحباش في العصر الحديث عن

أصحمة هذا فأجاب بأنه كان حاكما على أقليم يقع في جوار مايسمونه

الآن (تبحكي دنسا)^(١)

الباب الثالث

١

تساءل كثير من الباحثين لماذا كانت الحبشة وجهة المسلمين حين ضاقت بهم سبل الحياة بين قومهم . والواقع أن النبي (ص) لم يأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة إلا بعد تفكير طويل ، ووفق سياسة محكمة .

كان لميناء عدول - كما رأينا - الفضل الأول في تسهيل سبل التجارة بين مكة وبلاد الحبشة ، « فقد كانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رفاغاً من الرزق وأماناً ومتجراً حسناً^(١) » ، فلم تكن الحبشة إذن بلداً غريباً على قريش ، ولا شك ، من جهة أخرى ، أنه كان قد ترامى إلى المسلمين أن الأحباش قد قاموا بحماية المسيحية في اليمن من عدوان اليهود ، وأنهم جردوا حملة للقضاء على الوثنية في الحجاز . لهذا آثر المسلمون اللجوء إلى بلاد الحبشة لعل الأحباش يستطيعون أن يقوموا بحمايتهم من عبدة الأوثان ومن اليهود كما هو المسيحية وجردوا على الوثنية حملة من قبل .

هذه كلها أسباب دفعت النبي (ص)، حين لاقى قومه في مكة العنت، إلى التفكير في هجرة أتباعه إلى بلاد الحبشة، على أنه ليس من المعقول أن تكون فكرة الهجرة قد تمت دون أن يمد المسلمون لهجرتهم في بلاد الحبشة، وأن يتعرفوا نية القوم الذين سيهاجرون إليهم، ذلك أن ما أضمره المسلمون نحو الأحباش من حسن الظن، والاعتقاد بانهم سيلقون منهم في هذه البلاد النائية وسيفسح الأحباش لهم صدورهم، لم يكن كافياً - فيما أعتقد - لأن يلتقي أتباع النبي (ص) بأنفسهم، وكلهم ذوو نظر ثاقب، في بلاد بعيدة نازحة، محفوفة بالأخطار، دين أصحابها يخالف دينهم، وطباعهم تخالف طباعهم، قوم جلبوا على النضال، وأولعوا بنفك الدماء.

وهذا ما أغفل الباحثون التنبيه عليه، والإشارة إليه؛ وفيما يلي سنناقش مقاله المؤرخون العرب عن هذه الهجرة، ونخلص منها إلى ما يفسر لنا ما قام به المسلمون من خطى لتحقيق فكرة الهجرة. قال المؤرخون إن الهجرة إلى الحبشة كانت دفعتين: ففي الدفعة الأولى كانوا أحد عشر أرائثي عشر شخصاً وأربع نسوة أو خمساً، خرجوا خفية في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة فوصلوا إلى ساحل البحر حيث ركبوا سفينتين من سفن التجار إلى أرض الحبشة. وما كادوا يستقرون في تلك البلاد حتى أشيع بينهم أن كفار قريش

في مكة قد آمنوا بالنبي (ص)، فعاد المهاجرون ثانية الى مكة في شوال من نفس السنة . فكانهم لم يمكثوا في الحبشة إلا شهرين أو ثلاثة، ثم قفلوا راجعين الى مكة .

قالوا: وفي هذه السنة ذاتها بدأت هجرة ثانية إلى بلاد الحبشة ، هاجر فيها عدد كبير من الصحابة ، وكان فيهم معظم من كان قدم من الهجرة الأولى وجماعة ممن شهدوا بدر (وقد حدثت غزوة بدر في السنة الثانية لهجرة النبي إلى المدينة) .

ولكن المؤرخين يذكرون أن أصحاب الهجرة الثانية قد قدموا جميعا عام افتتاح خيبر أى في السنة السابعة للهجرة . فكيف يكون من المهاجرين من شهدوا بدر على حين لم يقدموا من الحبشة إلا بعد وقوع غزوة بدر بخمسة أعوام . وقد نبه ابن القيم الجوزية على هذا الخلط فقال (فاما أن يكون هذا وهما وإما أن تكون لهم قدمة أخرى قبل بدر فيكون لهم ثلاث قدمات : قدمة قبل الهجرة و قدمة قبل بدر و قدمة عام خيبر ^(١)) .

وبينا نجدهم يجعلون الهجرة دفعتين ، نراهم يذكرون أن المهاجرين لم يهاجروا جميعا من مكة بل إن منهم فوجاً قد هاجروا من اليمن برئاسة أبي موسى الأشعري ، قال أبو موسى : بلغنا نخرج

(١) زاد المعاد - ٢ ص ٤٥ (طبعة ١٩٢٨م) .

النبي (ص)، ونحن باليمن، فخرجت مهاجرا، أنا وأخواني. أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، في بضع وخمسين رجلا من قومي، فركبنا سفينة، فألقنا إلى أرض النجاشي. فاجتمعنا بجعفر بن أبي طالب ومن معه من الصحابة بها (وكان جعفر من هاجر، على زعمهم. في الهجرة الثانية) فأقمنا معهم حتى قدمنا جميعا عليه (ص) عام افتتاح خيبر . . ويختلف العلماء في معنى قول أبي موسى (بلغنا مخرج النبي (ص) ونحن باليمن) هل يريد مبعث النبي أم خروجه إلى المدينة . ويجمع ابن حجر بين المعنيين بقوله (ويمكن الجمع بأن أبا موسى قد هاجر أولا إلى مكة فأسلم وبقى بها إلى أن أذن رسول الله (ص) لأصحابه في الهجرة الثانية إلى أرض الحبش. فتوجه معهم إلى بلاد قومه الكائنة في مقابلة بلاد الحبش من الجانب الشرقي للبحر، فسكن بها إلى أن تحقق استقرار النبي (ص) وأصحابه بالمدينة المنورة، فخرج منها مهاجرا هو وأخواه ومن أسلم بدعايته من قومه إلى المدينة المنورة، فركبوا سفينة في البحر، فألقتهم السفينة لهيجان البحر بالرياح إلى أرض الحبش المقابلة لبلادهم من الجانب الغربي للبحر، فاجتمعوا بجعفر ومن معه . . . وعلى هذا فيكون قول أبي موسى الأشعري بلغنا مخرج النبي أي إلى المدينة المنورة لا مبعثه بالرسالة الخ (١) ...)

وظاهر أن ابن حجر يضع لحل هذا الاشكال فروضا تحتاج إلى إثبات ، فرض إسلام أبي موسى بمكة والبقاء بها إلى أن أذن الرسول بالهجرة الثانية ، وسفر أبي موسى إلى اليمن ، وعزمه في الهجرة إلى المدينة بعد استقرار النبي فيها .

ويتضح من مناقشة الروايات السابقة أن هناك خلطاً من الرواة في ذكر حقيقة هذه الحادثة ، ونرى أنهم قد كيفوا وضع هذه الهجرة أو هذه الهجرات على وجه مجانب قليلاً عن الحقيقة . والوضع فيما نعتقد هو أن الفوج الأول لم يكن في واقع الأمر قوما قد فروا بأنفسهم إلى الحبشة ، وإنما كانوا بعثة إسلامية ، أرسلها النبي (ص) إلى ملك الحبشة لتعرف مدى رغبة النجاشي واستعداده لقبول المهاجرين ، ولتمهد للمسلمين في البلاط الأكسومي ، وكان من أفراد البعثة التاجر ، والمتكلم ، وصاحب النفوذ ، والخبير بالحبشة وأهلها ، ومكثوا في الحبشة فترة قصيرة ، شهرين أو ثلاثة . يفاوضون الملك في أمر إخوانهم . ولا بد أنهم قد وجدوا من الملك استعداداً للقبول ، ولكي تثبت الملك من حقيقة هؤلاء المسلمين ، يخبرنا الرواة أنه أرسل وفداً من الحبشة إلى النبي وهو بمكة ، وأغلب الظن أنه قدم قبل أن يؤذن للمسلمين بالقيام بهجرة ، أو بهجرات أخرى ؛ فقد أخرج الحافظ بن كثير في تفسيره عن سعيد بن جبيرة والسدي وغيرهما أن النجاشي بعث وفداً من الحبشة إلى النبي (ص) ليسمعوا كلامه ، ويزوا صفاته ، وكان

عدده اثني عشر، وقيل خمسون. وقيل بضع وستون. وقيل سبعون رجلا، سبعة منهم قساوسة وخمسة رهايين. فلما رأوا رسول الله (ص) وقرأ عليهم شيئا من القرآن أسلموا. وبكوا وخشعوا. ثم رجعوا إلى النجاشي وأخبروه بما شاهدوه^(١). ويرى ابن إسحق أن عشرين رجلا أوقرييا من ذلك من نصارى الحبشة قدموا وهو بمكة (ص) وذلك حينما بلغهم خبره فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه، وتكلموا معه، وسألوه عما عندهم من المسائل، ورجال من أكابر قريش في أنديةهم حول الكعبة، فلما فرغوا من سؤالهم رسول الله (ص) عما أرادوا دعاهم النبي (ص) إلى الإيمان بالله تعالى وحده، وتلا عليهم شيئا من القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله تعالى وآمنوا به (ص) وصدقوه. وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا من عنده تعرض لهم أبو جهل في نفر من كفار قريش الذين كانوا جالسين حوالى الكعبة؛ وناظرين لما وقع منهم. وقالوا لهم، خبيكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لترتادوا لهم، فتأتونهم بخبر الرجل، يعنون النبي (ص)، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم، وصدقتموه، ما نعلم ركبا أحق منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم، لانجأه لكم؛ لنا

أعمالنا ، ولكم أعمالكم ^(١) .

ولا شك أن هذا الوفد قد رجع الى النجاشي كما رأينا في رواية الحافظ أنهم (وجعوا الى الحبشة ليخبروا النجاشي بما شاهدوه) ، ولا شك أنهم أخبروا النجاشي بروح تنطوى على الإعجاب وتم عن الود ؛ وبذلك صادف المسلمون قبولا لدى النجاشي فأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة ليكونوا في حماه وتحت رعايته . وتكفل منبغى البعثة الإسلامية بالنجاح . ولم يكن رجوعها لإشاعة سرت بينهم ، أن أهل مكة قد أسلوا ، كما زعم الرواة ، ولكنهم رجعوا بعد أن أدوا مهمتهم وفاوضوا الملك في أمر إخوانهم .

وأذن النبي للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة بعد أن اطمأن إلى حماية النجاشي إياهم وإفساح صدره لهم ، فتدفق المسلمون إلى بلاد الحبشة آمنين مطمئنين ، وهناك استقر النساء والرجال من المسلمين مع أولادهم ، ونسموا الحرية بعد أن مسهم في ديارهم الضرو والجزع ، ونظم شعراؤهم في الحبشة الشعر يهجون قريشا الكفار ، ويذكرون أن الله خلصهم من شرهم بالمهاجرة الى بلاد واسعة ، وهجا بعضهم أشخاصا من الكفار كانوا يعذبونهم في مكة ، وكان من أشهر شعراء هذا المهجر عبد الله بن الحارث ، وعثمان بن مظعون ^(٢) .

وأغلب الظن أن المهاجرين لم يرحلوا جمعا واحدا إلى الحبشة ، بل هاجروا على دفعات ، وليس في وسعنا أن نعرف متى بدأت كل دفعة منها بالهجرة ، ولا متى قدموا من الحبشة ، فإن قدومهم قد حدث غالبا على دفعات كذلك ؛ وربما كان آخر قدمة لهم عام افتتاح خير في السنة السابعة للهجرة .

ولم يطب لقريش أن ترى هؤلاء المهاجرين يفلتون من أيديهم ويلجئون إلى سند قوى يظهرونهم به ، فأتسمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي ، بعد أن حدثت غزوة بدر ^(١) ، رجلين جلدين منهم ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا عما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له كثيرا ، ولم يتركوا له من بطارقه بطريقا إلا أهدوا له هدية . ثم بعثوا عمرو ابن العاص مع عبد الله بن أبي ربيعة (وقيل عمارة بن الوليد) وكان عمرو معروفا بدهائه وسعة حيله ، كما كان عبد الله ابن أبي ربيعة تاجرا موسرا ، خيرا بالحبشة ، عارفا بأهلها .

كان الغرض من بعثة قريش إحباط أعمال المسلمين في الحبشة وإقناع النجاشي بالتخلي عنهم . وكان محامى المسلمين بين يدي النجاشي جعفر بن أبي طالب ، وقد حاول عرض قضية الإسلام بين يدي النجاشي ، وتقريبها إلى ذهن رجل مسيحي مثله .

وكان قصارى عمرو بن العاص أن يتحين الفرص للإيقاع بالمسلمين ، فمن ذلك قوله يخاطب النجاشي : « إنهم مستكبرون عليك ، ولذا لم يحيوك بتحيتك التي يحييكم بها الناس وهي السجود » ، « إنا كنا نحن وهم على دين واحد ، نخالفونا ، وأتوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أئمتهم ، فتريد أن نردهم إليه » ، « إنهم يخالفونك في ابن مريم العذراء » (١) .

ولكن جعفر أ استطاع أن يفند ماوجه إلى قومه من التهم ، ويجيب على ماخوطب فيه من الأسئلة بوضوح وجراءة ، مما جعل النجاشي يحكم لهم بقوله : « أبشروا ولا تخافوا فإنه لا زهوبت اليوم على حزب إبراهيم » (٢) .



كان رسول النبي إلى النجاشي رجلا من بني ضمرة ، يقال له عمرو بن أمية ، ولا تعرف عن بني ضمرة شيئا كثيرا ، وأعتقد أن

(١) قبل ومن حيل عمرو في الحبشة ، حين رأى فشله في قضيته التي جاء من أجلها ، أن أوعز إلى حمارة بن الوليد ، وكان جيلا ، أن يتعرض لزوجته النجاشي ، لعلها أن تشفع لهم عنده ، فيقضى لهم ما لاجله جاءوا ، ولما مالت إليه ، وأهدت إليه شيئا من عطرها كشف النجاشي العلاقة بين العربي وزوجته فأنزل به أشد العذاب .

(٢) الحبشان ص ٢٠٦ — ٢١٠ .

لهذه القبيلة أهمية خاصة لتوضيح جانب من العلاقة بين الحبشة وبلاد العرب ، ويروى أن أصحمة النجاشي كان قد بيع في شبابه إلى رجل من بني ضمرة في بلاد العرب .

والظاهر أن عمرو بن أمية كان ذا مواهب خاصة تؤهله لهذا العمل ، لذلك كان النبي كثيراً ما يبعثه في أموره الهامة ، فقد بعثه عينا إلى قريش كما أرسله إلى النجاشي بكتبه في كل مرة .

كان أول كتب النبي إلى النجاشي في السنة السادسة للهجرة ، فأرسل إليه عمرو بن أمية الضمري بكتاب يدعو فيه إلى الإسلام ، ويذكر له أنه بعث إليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب ومعه نفر من المسلمين . وقيل إن النجاشي حين قرأ الكتاب كتب إلى النبي أنه اعتنق الإسلام ، وبايع ابن عمه جعفر . وينكر بعض المحدثين رسالة النبي إلى النجاشي واعتناقه للإسلام^(١) .

وفي السنة السابعة للهجرة بعث النبي عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي بكتاب يطلب إليه أن يخطب له السيدة أم حبيبة ، واسمها رملة بنت أبي سفيان ، وكان عبيد الله بن جحش بعلمها قد تنصر في الحبشة ومات وثبتت هي على الإسلام . فرد أصحمة عليه بأنه زوجه

(١) جويدى في دائرة المعارف الاسلامية — 'Abyssinia

Budge, vol. 1, p. 273.

إياها ، وأهدى إليه قيصا ، وسراويل . وعطافا (أى طيلسانا) ،
وخفين ساذجين (غير منقوشين) وبعث إليه أم حبيبة .

وفي نفس هذه السنة ، أرسل النبي عمرو بن أمية بكتاب يطلب
فيه إلى النجاشي أن يرسل من بقي عنده من مهاجري الصحابة
بأرض الحبشة ، فجهزهم النجاشي ، وأنزلهم في سفينة أوسفيتين مع
عمرو بن أمية ، وكان فيهم جعفر بن أبي طالب ، ووفد من الحبشة ،
وقدموا جميعا على النبي (ص) عام فتح خيبر في السنة السابعة
للهجرة (٦٢٩ م) .

وفي السنة التاسعة للهجرة ، كان النبي قد أرسل إلى النجاشي
هدايا : حلة ، وأواق من مسك ، فردت إليه لموت النجاشي ، قيل
فلما عرف بموته أرسل عمرو بن أمية بكتاب إلى النجاشي الجديد
يدعوه إلى الاسلام .

٢

ظل حكم الفرس على اليمن قائما حتى انتزع المسلمون سيادتهم
عليها ، وكان باذان آخر وال فارسي من قبل كسرى پرويز (خسرو
الثاني) وقد اعتنق باذان الإسلام بعد وفاة خسرو ٦٢٨ م .
وانتشر الإسلام في بلاد العرب ، وأتت وفادات اليمن إلى
النبي (ص) تدخل في دين الله . وقدم وفد نجران إلى النبي ، وهم أربعة
عشر رجلا من أشrafهم ، وكانوا نصارى ، فيهم الرئيس ، وصاحب

مشورتهم واسمه العاقب ، وأسقفهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ،
أبو الحارث بن علقمة ، وهو رجل من بني ربيعة ، والسيد ، وهو
صاحب رحلتهم . قيل إنهم دخلوا على النبي وعليهم ثياب الخبرة
وأردية مكفوفة بالحرير ، فأعرض عنهم النبي لزيهم فانصرفوا وأتوه
بزي الرهبان فسلموا عليه ، فرد عليهم ، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ،
وكثرت الكلام والحجاج بينهم ، ولم يقتنعوا ، فصالحوا النبي على ألفي
حلة ، ألف في رجب وألف في صفر ، وكل حلة أوقية من الأواقي ،
كما صالحوه على عارية ثلاثين درعا ، وثلاثين رحما ، وثلاثين بعيرا ،
وثلاثين فرسا ، إن كان باليمن كسيد ، ولنجران وحاشيتهم جوار
الله وذمة محمد . ولم يلبث السيد والعاقب إلا يسيرا حتى أسلما^(١) .
وفي عام ١٣ هـ كتب عمر إليهم أن يسيروا إلى العراق فنزلوا
بالنجرانية قرب الكوفة .



كانت الصلة وثيقة بين الحبشة وبطارقة الاسكندرية منذ أن
اعتنقت الحبشة المسيحية على يد (فرومتيوس) في القرن الرابع
الميلادي . وظلت العلاقة حتى بعد أن فتح عمرو بن العاص الإسكندرية
في ٦٣٨ م . فقد ذكرت إشارة في عهد إسحق بطريق الإسكندرية

(١) ابن سعد القم الثاني من المجلد الاول ص ٨٥ .

٦٨٦ - ٦٨٨ م، تنبىء بوقوع حرب بين الحبشة والنوبيين. فكتب هذا البطريق إلى ملك الحبشة وإلى ملك النوبة في الصلح بينهما حتى لا يحدثا قلاقل في بلادهما، ولا يشعلا نار الخصومة بينهما^(١). ومنذ ذلك الحين، لم نعد نسمع شيئاً عن الحبشة يستحق الذكر، ولم تعد تلعب في السياسة الخارجية دوراً ما، وظلت منطوية في نطاق بلادها، ولعل السبب في ذلك راجع إلى تلك الشيخوخة التي أدركت هذه الدولة بعد خراب ميناء عدول، همزة الوصل بينها وبين العالم المتحضر.

ففيما بين ٦٣٠، ٦٤٠ م تم خراب عدول من جراء غارات العرب وغيرهم، فانقطعت الصلة بين الحبشة والعالم الخارجي، وتوقفت سوق أكسوم، ولم نعد نرى فيها إلا جانب التجار، وتعطل بناء الكنائس، وهجرت دراسة الأدب القديم^(٢).

ولم نسمع بعد موت الرسول (ص) ٦٣٢ م أن أحداً من المسلمين قد و طئت قدماه تلك البلاد إلا ما كان من حملة بحرية صغيرة أرسلها عمر بن الخطاب ٢٠ هـ (٦٤١ م) إلى الساحل الحبشى ولكنها لم تكمل بالنجاح.

Budge, vol. 1, p. 274. (١)

Id. passim. (٢)

ومنذ ذلك الحين ظل المؤرخون والجغرافيون من العرب
يجهلون جغرافية الحبشة وأخبارها حتى جاء المقرئى (٥٨٤٥+)
فكان أول مؤرخ ذكر أخباراً صحيحة عن ولايات الحبشة
وتاريخها في عصره (١) .

وهكذا انطوت الدولة الأكسومية ، وسكت هذا الصوت
الجدير الذى ظل مدويا فى أرجاء العالم زهاء ثمانية قرون .

٣

وكانت هذه المعاملة التى لقيها النبى وأصحابه من النجاشى
خاصة والحبش بوجه عام ، باعثا قويا على توثيق العلاقات بين
نصارى الحبشة وبين الإسلام ، وكان طبعيا أن ينوه القرآن الكريم
والنبى الحكيم بالحبش ويثني عليهم ، ولقد روى عن عطاء بن
أبى رباح أن ما ذكر الله به النصارى من الخير فى القرآن فإنما
يراد بهم النجاشى وأصحابه ؛ (٢) ومن هذه الآيات قوله تعالى :
(وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ، وما أنزل إليكم ، وما
أنزل إليهم ، خاشعين لله) ، (ولتجدن أقربهم مودة للذين

(١) جوبدى — Abyssinia

(٢) الحبشان ص ٤٤

آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ،
وأنهم لا يستكبرون) (سورة المائدة آية ٨٢). وقد قيل إن المقصود
بقوله تعالى : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض
من الدمع مما عرفوا من الحق) (سورة المائدة آية ٨٣) إنهم
قوم من الحبش ^(١).

وكان طبعيا كذلك أن يمدح النبي الحبش ، وأن يمحو النظرة
العربية القديمة التي كانت تنكر العبيد ، وتفرق بين الناس باللون
والنسب ، فجعل التفرقة بينهم على أساس التقوى ، فقال : « الجنة
لمن أطاعني ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصاني ولو كان
شريفا قرشيا ، وحبب الناس إلى الحبش ، وقربهم إليهم ، فجعل البركة
على أيديهم بقوله : « من أدخل بيته حبشيا أو حبشية أدخل الله
بيته بركة ، وقوله : « اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات
أهل الجنة : لقمان الحكيم ، والنجاشي ، وبلال المؤذن . وقيل
لقمان ، وبلال ، ومهجع ، ^(٢)

وأرسل النجاشي إلى النبي هدايا كثيرة ، فأهدى إليه مرة بغلا ،
وخفين أسودين ساذجين ، وزبرجدا ، وثلاث عنزات (اى رماح)

(١) الطراز المقوش ص ١٧ ب ، ١٨ ا ، ب
(٢) نفس المرجع ص ١١ ويصفى بالسودان الحبش .

وأهدى إليه مرة أخرى حلة فيها خاتم من ذهب ، فيه فص حبشى ، فأعطاه لأمامة بنت العاص . والفص الحبشى صنف من الزبرجد يبلاد الحبش لونه إلى الخضرة أقرب ^(١) . وأهدى إليه مرة أخرى قارورة غالية ، وهى نوع من الطيب مركب من مسك ، وعنبر ، وعود ، ودهن ، كما أهدى إليه بغلا حبشيا . ^(٢)

وكان بينهما مراسلات ودية كما رأينا ، وقيل إن النجاشى زوج النبى أم حبيبة التى كانت تقيم ، فى جملة المهاجرين ، فى الحبشة ، وأدى إليها مراه قدره ٤٠٠ دينار (أى حوالى مائتى جنيه) ، وأرسلها إليه . ولما قدم وفد النجاشى على النبى قام النبى (ص) يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « إنهم كانوا لأصحابى مكرمين فأحب أن أكافئهم » . ^(٣) ولما بلغ النبى وفاة النجاشى أمر أصحابه بالصلاة عليه بقوله : (اخرجوا فصلوا على أخ لكم) فقال المنافقون عند ذلك ، انظروا إلى هذا الذى يصلى على عجل لم يره قط ، ولم يكن على دينه ^(٤) .

(١) الطراز المنقوش ص ٢٩ ل ٦ ب

(٢) نفس المرجع . الكلمتان (بقل) و (عنبر) حبشيتا الاصل . الاولى أصلا (بقل) والثانية (عنبر) .

(٣) الطراز المنقوش ص ١٨ ب

(٤) الحبشان ص ٤١

ولا شك أن النبي نفسه ، فضلا عن المسلمين والعرب بوجه عام ، قد تأثروا بالحبش في لغتهم وحضارتهم . والرواة يذكرون أنه (ص) قد نطق ببعض الألفاظ الحبشية في بعض المناسبات ، كقوله وهو يصف أشرار الساعة : (إن بين يديها فتنة وهرجا) . ولم يعرف الصحابة معنى الهرج ، فسألوه فقال : هو القتل بلسان الحبش ؛ وكقوله لأم خالد عندما قدمت من أرض الحبشة فكساها خميصة (كساء له أعلام) وجعل يمسح الأعلام بيده ويقول : (سنه سنه) أى حسن حسن بلغة الحبش ^(١) .

وقد أفسح الإسلام بهذه العلاقات الطيبة مجالا للمؤثرات الحبشية لكي تعمل في جو أكثر طلاقة وحرية في عرب الشمال وأهالي الحجاز بوجه خاص ، كما عملت من قبل في أهل الجنوب . وكانت هذه المؤثرات الحبشية قوية فعالة ، لأنها كانت تتغذى من جهات كثيرة ؛ فكانت تنمو وتزداد من تلك الصلات المباشرة بين العرب ووفود الحبشة التي قدمت على النبي ، وبين العرب وهؤلاء العبيد من الحبشة الذين كانوا يعيشون في الحجاز وغيره في أكناف ساداتهم ، وبين المسلمين وبلاد الحبشة التي اتصلوا بها وهاجروا

(٣) الطراز المنقوش ص ١٤ ، ب . وفي الحبشية هرج بمعنى قتل ، وشناى بمعنى جيل .

إليها وعاشوا فيها فترة من الزمان . ثم من تلك الصلوات غير
المباشرة التي جاءت عن طريق اليمين ، ذلك الصقع الذي كان
مسرحا للهزئات الحبشية ثمانية قرون ، على الأقل ، قبل عصر
الرسول عليه السلام .

الباب الرابع

آثار الحبش في بلاد العرب

عنى القدماء بتصنيف الكتب والرسائل الجامعة لفضل الحبش وآثارهم في الإسلام .

ولعل أول من كتب في ذلك أبو عثمان الجاحظ (+ ٢٥٥هـ) فقد ألف رسالة في فخر السودان على البيضان ، ذكر مناقب السودان ومنهم الحبش ، وهي مطبوعة في مجموعة من رسائله ^(١) .

وفي القرن السادس الهجري ألف ابن الجوزي (+ ٥٩٧هـ) كتابا سماه « تنوير الغبش في فضل السودان والحبش » ، وتوجد منه نسخ خطية في مكتبة جوتا وأسكوريال ورامبور ^(٢) .

ثم جاء أبو حيان النحوى (+ ٧٤٥هـ) وكان من أصل بربرى ، ويقال إنه شرع في تأليف رسالة في اللغة الحبشية ولم يتمها ^(٣) .

(١) ثلاث رسائل مطبوعة لدى ١٩٠٣

(٢) Brockelmann, vol. 1, p,505

(٣) دائرة المعارف الاسلامية — أبو حيان النحوى

وكان القرن العاشر أكثر القرون عناية بهذا الموضوع ، فألف
السيوطي (+ ٩١١هـ) ثلاث رسائل ، إحداهما « رفع شأن الحبشان » ،
وهي توسيع لرسالة ابن الجوزي السالفة الذكر ، وتوجد منها
نسخ خطية في باريس والمتحف البريطاني ، والثانية سماها « أزهار
العروش في أخبار الحبوش » ، وتوجد منها نسخ خطية في جوتا
وأسكوريال . والثالثة « نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود
والسمر » ، وتوجد منها نسخ خطية في برلين وليدن ^(١) .

وفي هذا القرن ، وضع محمد بن عبد الباقي البخاري الذي كان
خطيبا بالمدينة المنورة (+ ٩٩١هـ) رسالة سماها « الطراز
المنقوش في محاسن الحبوش » ، اعتمد فيها على رسالة السيوطي
« أزهار العروش » ، وغيرها ، ويوجد منها نسخ خطية في جوتا وبرلين
وباريس والمتحف البريطاني ورامبور ودار الكتب المصرية وغيرها .
وقد ترجمها إلى الألمانية الأستاذ فيلر وطبعت في هانوفر سنة ١٩٢٤ (٢)
وقد اختصر الطراز على بن إبراهيم الحلبي الشافعي وسماه « إعلام
الطراز المنقوش » ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

وفي العصر الحديث ألف الشيخ محمد الحفني القنائي كتابا
(المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٠هـ) سماه « الجواهر الحسان

Brockelmann, vol II, p.158 (١)

Id. (Suppl.) , vol II, p. 519, (٢)

بما جاء عن الله والرسول وعلماء التاريخ في الحبشان ، و ذكر
في مقدمته أنه استفاد مما في رسالتى السيوطى «رفع شأن الحبشان» ،
و «أزهار العروش» ، ورسالة البخارى السالفة الذكر .

١

هؤلاء الحبش الذين هاجروا إلى بلاد العرب أحراراً وأرقاء ،
وهؤلاء العرب الذين كانوا يهاجرون إلى الحبشة للمتاجرة أو
المهاجرة - هؤلاء جميعاً كانوا قد حملوا معهم كثيراً من ثقافة الحبشة
وعاداتها وحضارتها ، فتركوا في المجتمع العربى آثاراً قوية في
الجنوب والشمال .

وعن طريق اليمن وصلتنا ثروة عظيمة من الآثار لاشك أنه
كان للحبشة منها نصيب كبير ، وليس من اليسير أن نحقق أصول
كثير من هذه الآثار ، فقد انصهرت في البيئات اليمنية ، وأصبح
من العسير تحليلها ، وردها الى عناصرها .

ولعلك تعجب أيضاً حين تجد اختلاط آثار الحبشة واليمن
بالأخبار اليهودية والنصرانية وغيرها مما جاءنا عن طريق الحبشة
أو اليمن ، مثال ذلك قولهم إن لقمان كان عبدا حبشيا ، وفي رواية
أنه كان قاضيا في بنى إسرائيل . وقولهم إن طفلا من بنى إسرائيل
كان يسمى صاحب الحبشة ، كان قد نطق في المهد . وقولهم إن

أصحاب الأخدود كانوا قوما من بني إسرائيل، أو قوما من الحبشة ،
أو قوما من اليمن أو غير ذلك .

يرى الأستاذ هارناك أن الكتاب المقدس لم يترجم إلى العربية
في عصر ما قبل الاسلام . وهذا دليل على أن المسيحية كانت
ضعيفة الأثر في العرب في هذا الوقت المبكر ^(١) .

والواقع أنه لا دليل على أن كنيسة مسيحية كانت تستخدم
اللغة العربية في بلاد العرب وربما كانت السريانية أو العبرية من
اللغات المستخدمة في بعض الكنائس المسيحية في هذه البلاد .
ويروى أن ورقة بن نوفل النصراني (كان يكتب الكتاب
العربي ، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء أن يكتب) ومنه
استنتج هامر أن ورقة ترجم الإنجيل أو قطعا منه من العبرية
إلى العربية ^(٢) . والراجح أن القراءة الصحيحة لهذا النص هي
أنه « كان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب بالعبرانية من الإنجيل
ما شاء أن يكتب » ، وقد ذكر مصححاً في الأغاني (مط التقدم ١٤/٣)
ومع هذا فإننا لا ننكر أثر المسيحية في اليمن ، وفي شمال
الجزيرة العربية ، ولقد أثرت الحبشة في العرب من هذه الناحية
تأثيراً لا ينكر .

(١) R. Bell, p. 16.

Renan, Hist, gener. des langues semit., (٢)

p. 363 . (paris, 1878,)

ولقد سمعنا عن كنيسة يمانية ، تدين بمذهب الطبيعة الواحدة الذى بثه فرومنتيوس فى الحبشة منذ القرن الرابع ، ورأينا ذلك الخطاب السريانى الذى أرسله يعقوب السروجى إلى نصارى نجران ، مما يدل على أن اللغة السريانية كانت مفهومة هناك .

ومع هذا فلم تكن للمسيحية كنيسة واحدة ولا مذهب واحد فى اليمن ، فيرى البعض أن نصارى الشمال من أهل العراق كانوا يترددون إلى اليمن^(١) ، وذكر السمعاني فى المكتبة الشرقية (٢/٣) بعض أخبار تثبت أنه كان فى دولة خمير أربع أسقفيات : فى ظفار ، وعدن ، وعلى مدخل الخليج الفارسى ، وفى نجران .

ومهما يكن ، فإن آثار المسيحية الحبشية تظهر واضحة قوية فى نجران ، ومن الآثار المدونة . ما كتبه الأحباش عن دخول النصرانية فى نجران فى نسخة خطية بالحبشة^(٢) تتحدث عن أعمال القديس (أزقير) وخلاصتها أن أزقير هذا كان كاهنا نصرانيا دعا إلى دينه أهل نجران ، فأمر الملك شرحبيل يقف بحبسه ، لكنه نجا من الحبس ، وعمد كثيرين ، وتبعه رجل يدعونه قرياقوس ، واجتمعت

(١) لويس شيخو، النصرانية وآدابها ص ٥٨ طبعة بيروت ١٩١٢

(٢) نفسه ص ٦١

عليه اليهود فقد أقوالهم جهاراً وقضى لمحاولته آخره بقطع الرأس مع ثمانية وثلاثين آخرين، وله عيد في التقويم الحبشي^(١).

ثم إن الأحباش بعد غزوتهم الأخيرة بنوا في نجران مزاراً (وقيل بناء نصارى نجران) ليكون قبلة العرب، ويسمى كعبة نجران أو كعبة اليمن، وفيها يقول الأعشى:

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخى بأبوابها

نزور يزيداً وعبد المسيح وقيساً؛ هم خير أربابها

ويصف العرب كعبة نجران بأنها قبة من آدم من ثلثمائة جلد كانت على نهر بنجران^(٢).

وكان الحارث زعيم نجران في زمن ذي نواس، ويسميه الفرنجة أريتاس، وهو الحارث بن كعب الذي عرف أبناؤه في نجران في عهد النبي (ص)، وكانوا من بين الوفود التي جاءت تعلن إسلامها. وقد لفتوا نظر النبي (ص) بضخامة أجسامهم وسواد لونهم، فقال حين رآهم مقبلين: «من هؤلاء الذين كأنهم رجال الهند»^(٣) وكان الحارث هذا مسيحياً متعصباً. يستمد سلطته من معونة الأحباش، حتى إنه لجأ إليهم حين تحرش ذو نواس

(١) لويس شيخو ص ٦١

(٢) معجم البلدان لياقوت - نجران

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبير القسم الثاني من الجزء الأول ص ٢٠٧

به وبقومه، وقيل إن تعذيب الحارث كان السبب المباشر في غزوة
الاحباش الأخيرة.

ومن اشتهر في الجاهلية من أساقفة نجران قس بن ساعدة
الإيادي، ومن عظمائها يزيد بن عبد المدان، وكلاهما أديبان،
لهما في الأدب العربي أثر يذكر.

وتجلت آثار المسيحية الحبشية في صنعاء أيضاً، ولا سيما بعد
أن بنى أبرهة فيها كنيسة يصفها العرب ويبالغون في عظمتها
وفخامتها، ويقال إن كثيراً من قبائل العرب حجها سنين ومكث
فيها رجال يتعبدون ويتألهون ونسكوا لها. (١)

وكذلك في ظفار، بنى الاحباش كنيسة، كان المتولى تديرها
أسقفاً يدعى جرجنتيوس، اتخذ ملك الحبشة مستشاراً ومساعداً
لتنصير حمير، فما ألى جهداً في ذلك. وقد ترك لنا من آثاره كتاباً في
شرائع الحميريين التي ترى ترجمتها اليونانية في مجموع الآباء المني،
وكان يجادل اليهود ويدعى مزاعمهم وله جدال مع هرمان الرباني (٢).
وناحية أخرى تأثر بها المجتمع العربي، تلك هي الخرافة
والسحر. ولا شك أن هناك أفكاراً مشتركة هنا وهناك، كالجن
والرقية والتطير وغيرهما.

(١) الطبري ١ - ص ٩٤٢

(٢) لويس شيخون ص ٤٦

غير أن هناك أفكارا أخذها العرب عن الأجباش، وما كانوا يعرفونها من قبل ، كالزار وكان - كما حقق دى غويه - معروفا في زمانه في مكة يديره نساؤها ، وأنه من أصل حبشى واللفظة في الأمهرية معناها (الروح الشريرة ^(١)) ويستقدم المصريون بعض أفراد من السود للقيام ببعض المراسم في حلقة الزار كالرقص والغناء .

٢

لعل أجدر الآثار بالذكر تلك الاصطلاحات والألفاظ التي استعارتها من الحبشية اللغة العربية والقرآن بنوع خاص . ومن المعروف حتى لعلماء المسلمين ، أن القرآن قد استعار كثيرا من الألفاظ الحبشية . فقد أورد السيوطي في الإتيان بابا ذكر فيه ماورد في القرآن من الألفاظ بغير لغة العرب، ذكر منها قرابة ستة وعشرين لفظا أرجعها إلى اللغة الحبشية ، ولكن أكثرها لم يثبت اشتقاقه منها .

وقد اجتهد الأستاذ نلدهكه ^(٢) في إيراد ما استطاع الاهتداء إليه من الألفاظ الحبشية التي استعملها القرآن واللغة العربية

(١) نلدهكه ص ٥٠ والزار هو مرض الشياطين الذي تتلبس به النساء الجاهلات

(٢) Th. Noeldeke, Neue Beitrage Zur semit. Sprachwissenschaft, Strassburg, 1910.

وقد ألقى الأستاذ برجشتراسر بالعربية محاضرات مطبوعة الآن^(١) ذكر فيها طائفة من الألفاظ العربية الدينية التي ترجع إلى أصل حبشي. وقد اعتمدنا في أكثر ما ذكرناه في هذا الفصل على ما كتبه هذان العالمان الجليلان في هذين الكتابين .

وقد فطن الباحثون بعد جمع هذه الألفاظ إلى أن كثيرا منها يعود إلى أمهر دينية ، كالحواريين ومنافق وفطر ومنبر ومحراب ومصحف وبرهان الخ ..

ورب سائل يقول : إن اللغات السامية ترجع كلها إلى أصل واحد ، هي لغة الأم ، كما يسميها العلماء ، وفيها جميعا ألفاظ كثيرة مشتركة ، كالأب والأم واليد والدم والهن والسنة والشفقة والأمة وغيرها . فهذه كلها مشتركة في جميع اللغات السامية أو في أكثرها . فلابد سبب يجوز أن نقول إن بعض الألفاظ التي تشارك العربية فيها الحبشية ليست بأصلية في كلتا اللغتين بل هي حبشية الأصل ، واللغة العربية استعارتها من الحبشية ؟ الجواب أنا نستنتج ذلك من تحقيق لفظ الكلمة ومعناها وكيفية استعمالها في اللغتين والعلاقة بينهما وبين سائر اشتقاقاتها . فمن الممكن أن



(١) التطور النحوي لغة العربية من ١٢٦ وما يليها (معر ١٢٩٩) م .

نعد الكلمة حبشية الأصل إذا حققنا فيها صفة من الصفات الآتية :

١ - وجود اشتقاق للكلمة في الحبشية أظهر وأبين منه في العربية مثل حواريون ومنافق وفطر ومنبر . فكلمة حوارى مع كون بنائها غير مألوف في العربية ، لا يمكن اشتقاقها من حار لأن ماهو أقرب إلى معنى الحواريين من معانى هذه المادة وهو الرجوع أبعد عنه بكثير من معناها في الحبشية وهو السير والسفر . والحواريون في لغة الكنيسة رسل المسيح . ومنافق مأخوذ من نافق الحبشية أى شك وداهن وخالف . ولا علاقة في العربية بين النفاق وسائر معانى مادة نفق فيها ، وهى في الحبشية تدل على المخالفة والانفصال ، فالمنافق هو الذى يخالف ظاهره باطنه . وفطر لم تؤد معنى الخلق في العربية قبل مجيئها في القرآن الكريم ، وأصل معناها العربى الشق ، وهى في الحبشية مألوفة فى معنى الخلق . كذلك منبر فعلها في الحبشية نبرأى جلس ، ولا اشتقاق للمنبر في العربية .

ب - نقل الكلمة من الحبشية محرقة أو مغيرة للأصل مثل محراب ، فربما كان أصلها محرام فى الحبشية أى المعبد ، فأبدلت الميم باء . أو ربما كان أصلها مكراب أى المكان المقدس فأبدلت الكاف حاء ، ومن ذلك كلمة بغل وقد وردت فى القرآن ، وهى لفظة حبشية

أصلها بقل بالقاف . فقد تبين أن تغير الكلمة في حرف من حروفها قد يكون دليلا على عدم أصالة الكلمة في اللغة المنقولة إليها .

ج - انفراد الكلمة في العربية بحيث لا يكون لها قرابة إلا ما اشتق منها، مثل برهان ومائدة . فبرهان مشتق من مادة (بره) في الحبشية وهي تقابل (بهر) أى أنار وأضاء في العربية . فأصل معنى برهان النور والتنوير، فهو لفظ منفرد في العربية لا قرابة له فيها إلا ما اشتق منها كبرهن . وكذلك مائدة فهى في الحبشية (مائد) وليس لها في العربية اشتقاقات من مادتها . (١)

ومن هذا النوع الفاظ أخذتها العربية من الحبشية ، وهي ليست حبشية الأصل، وإنما سبقت الحبشية إلى أخذها من لغات أخرى ثم استعارتها العربية منها . من ذلك إنجيل وجهم وتابوت ، فهذه الفاظ أجنبية بعضها يونانى ، وبعضها عبرانى (٢) .

د - ورود نص موثوق به يؤيد أن اللفظة حبشية الأصل . من ذلك ما ذكره القدماء في مشكاة من أن أصلها حبشى فاذا رجعنا إلى الكلمة في الحبشية نجد أن Maskōt معناها السكوة . وفي القرآن يرسم المقطع الثانى بالواو، مما يدل على أن حركته لم تكن فتحة

(١) راجع التطور النحوي في باب المفردات .

(٢) نلذكه ٢٤ ٦ ٤٧

معدودة في الأصل بل كانت \bar{o} كما في الحبشية تماما .

ومثلها كلمة مصحف ، فيروى أن سالما مولى ابي حذيفة جمع القرآن بين دفتين ، ثم ائتمروا على أن يسموه باسم ، فقال البعض منهم سموه السفر ، فقال لهم إن ذلك تسمية اليهود لكتبهم ، فكرهوا ذلك ، فقال إني رأيت مثله في الحبشة يسمى المصحف فأجمع رأيهم على أن يسموه المصحف فسمى به ^(١) .

وإذا رجعنا إلى الحبشية نجد كلمة Mashaf مشتقة من صحف أى كتب . ومصحف في العربية تروى ميمها محركة بالحركات الثلاث .

هـ - وهناك دليل آخر على أن مصحف حبشية الأصل وهو أن العرب لما أخذوا الكتابة من جيرانهم الذين سبقوهم إلى التمدن ، يحتمل أن يكونوا قد أخذوا منهم الأسماء الدالة على هذا التمدن . فكان ينتظر إذن أن تكون المصحف آرامية كما أن الخط العربي آرامي الأصل ، غير أنا لا نجد في الآرامية كلمة تقابل مصحف ، فاتجه العرب إلى اليمن وإلى الحبشة لأن الكتابة كانت معروفة ومستعملة هناك كذلك ^(٢) وكان بعض العرب يكتب بالحروف اليمانية قبل أن يألفوا الحروف الآرامية ^(٣) .

(١) الحبشان ٩٣ (٢) والقلم كلمة يونانية ، جاءت عن طريق الحبشة (قلم) وقد ورد ذكره في القرآن (نلذكه ص ٥٠)
(٣) برجشتراسر ، باب المفردات .

كذلك مما أدخلته الحضارة الحبشية من الألفاظ في بلاد العرب طائفة تدل على الأبنية وتأسيس الطرق، مثل الخوخة (١)، والسكة (٢)، والمشكاة، والصرح (٣)؛ وفي الملابس والزينة، كالجلباب والوقف، والدملاج، والزربية، والحنبل؛ وفي التوقيت كالترارخ والساعة، والزمن؛ وفي الألوان كالشواصين، والصواع؛ وفي الحيوان كالخريش، والزرافة، والهرماس، والذمة، والبغل (٤).

و- ندره معنى من معاني الأوزان في العربية مع شيوعه في الحبشية. من ذلك كلمة أخذود، فيما أظن. فمن المعلوم أن وزن أفعول بالفتح يأتي في الحبشية (وربما في لغات يمنية أيضا) للدلالة على الجمع، فيقال أهجور أى بلاد، جمع هجر، وأجموس نوع من النقود جمع جمس. ولا نعرف أن أفعول قد ورد في العربية مفتوح الأول، وإنما ورد مضموم الأول للدلالة على معان شتى من بينها معنى الجمع، على أن ورود هذا الوزن للدلالة على الجمع قليل نادر في العربية. وقد وجدنا أن

(١) الخوخة الفتحة في الحائط كالنافذة الصغيرة، وهي في الحبشية (خوخت)

(٢) أصلها في الحبشية (سكوت)

(٣) بمعنى القصر، ووردت في بيت شعر قاله عثمان بن مظعون وهو في الحبشة:

أأخرجتني من بطن مكة آمنا وأسكنتني في صرح بيضاء تقذع

أى أسكنتني في حجرة أو مخدع، وصرح في الحبشية بهذا المعنى.

(٤) راجع نذكره في المرجع المذكور آنفاً.

السيوطى لم يذكر مما جاء على هذا الوزن للدلالة على هذا المعنى إلا ثلاثة ألفاظ^(١) : أمعور ، القطيع من الظباء ، وأحبوش جيل الحبش ، وأركوب الجماعة من الركاب . وإذا أمعنا النظر نجد ألا فارق بين الوزن المضموم الأول الدال على الجمع فى العربية ومثله المفتوح الأول فى الحبشية والينية ، ذلك أن العرب لم تجر ألسنتهم على نطق أفعال مفتوح الأول (كما لا تستسيغ نطق أفعال مفتوح الأول إلا فى ألفاظ قليلة) .

ونرجح أن أفعال الدال على الجمع فى العربية دخيل ، جاءنا عن طريق الحبشة أو اليمن ، وحين تسرب إلى ألسنة العرب أجروه مجرى ما ألفوه فضموا أوله ، وأدرجوه فى جملة أفعال الدال فى أصل اللغة العربية على معان كثيرة لا صلة بينها وبين معنى الجمع . وما يؤيد رأينا فى أن معنى الجمع فى هذا الوزن دخيل ما نجده من معانى تلك الألفاظ الثلاثة التى أوردها السيوطى : أمعور وأحبوش وأركوب ، فعانيها توخى بأنها غريبة ، جاءت عن طريق الحبشة أو اليمن .

وإذا رجعنا إلى أأودود نجد أن أكثر المفسرين واللغويين

يذكرون أن أخذود مفرد لا جمع ، ويجمعونه على أخايد .
ونرجع إلى اللفظة في سياق نصوص قديمة فنجدها تعامل معاملة
المؤنث ، ففي الحديث الذي رواه الطبري أن الملك « خد لقومه
أخذودا وملاًها ناراً » ، ونجد مثل هذا في نصوص أخرى (١) .
وأصحاب المعاجم يذكرون أنها مفرد مذكر ، فلماذا عوملت
معاملة المؤنث ؟ لا شيء إلا لأن القدماء كانوا يدركون أن هذا
اللفظ جمع لامفرد . والمادة موجودة في الحبشية في (حدد) أى
أحدث قطعاً ، والحاء والحاء وسائر حروف الحلق عرضة كثيراً
للتبادل في الكلمات الحبشية . ثم يؤيد هذا الرأي ما ذكره النسخ ،
دون سائر المفسرين واللغويين ، من أن أخذود جمع خد أى شق
عظيم في الأرض (٢) . وإذا كنا نجد في العربية أخايد فإنما هو جمع
الجمع كما نجد أفاعيل ترد لجمع الجمع في ألفاظ كثيرة .

٣

لم يطلق العرب لفظ العبيد على الذين كانوا يشترونهم من
الأجناس السوداء فحسب ، بل كانوا يطلقونه كذلك على الذين
يمسكونهم بالشراء أو الأسر ونحو ذلك من الأجناس المختلفة ،
وفيه من العرب أنفسهم (٣) .

(١) راجع تفسير الطبري لسورة البروج .

(٢) مداوك التنزيل على هامش الخازن ج ٤ ص ٤٠٣ :

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة عبد .

وكانت في الحبشة منذ عهد قديم جدا ، أسواق لبيع العبيد ،
فيروى أن الفراعنة كانوا يعيشون بالجملات إلى بلاد كوش
لاستجلاب العبيد منها .

وكان لهؤلاء العبيد الإفريقيين ، مناطق على البحر الأحمر ،
ولاسيما في ميناء عدول ، حيث كانوا يخصون ويحملون في السفن
إلى بلاد العرب وغيرها .

وكان للعبيد الأحباش والإماء الحبشيات ميزات تجعل
ساداتهم يؤثرونهم على غيرهم ، ويعتمدون عليهم في أعمالهم . ولاحظ
بعض الباحثين أن الجوارى ، في بلاد العرب ولاسيما الحبشيات
منهن كن أكثر حظوة لدى ساداتهن من نسائهم الحرائر لأسباب
كثيرة (١) وكانت عادة العرب في الجاهلية إذا ولد الرجل منهم من
إحدى أولاء الجوارى ولدا استعبده ، فإن أنجب (صار نجيبا)
اعترفوا به ، وإلا بقي عبدا (٢) . ويتفاوت ثمن العبد حسب قيمته
ومنفعه (٣) .

وجاء الإسلام والعبيد من الأحباش طائفة ممتنة ، قد ذلت
نفوسهم وهانت كرامتهم ، ولا أدل على ذلك من قول جعال أحد
عبيد مكة من الأحباش حين سأل النبي يارسول الله أ رأيت ، إن قاتلت

(١) نفس المادة في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) الاغانى > ٨ ص ٢٣٧ (٣) نفسه > ١ ص ٣٣٤ .

بين يديك حتى أقتل ، أيدخلني ربي الجنة ، لا يحترقني . فقال له (ص) نعم ، فقال وأنا منتن الريح اسود اللون ، يا رسول الله ، قال نعم ^(١) ، وجاء رجل من الحبشة إلى النبي فقال يا رسول الله فضلتنا علينا بالألوان والنبوة ، أخبروني إن آمنت بمثل ما آمنت به ، وعملت بمثل ما عملت به ، إني لكائن معك في الجنة فقال له النبي (ص) نعم ^(٢) . وهكذا رفع الإسلام من شأن العبيد ولم يفرق بينهم وبين سائر الناس إلا بالتقوى ، وأعد الجنة لمن يطيعه ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصاه ولو كان شريفا قرشيا ، وجعل البركة مقرونة بالأحباش .

وبذلك سمى روحهم المعنوية ، وكان طبعيا أن يسرعوا إلى تلبية دعوة الإسلام الذي خلصهم ورفع من شأنهم وأنقذهم من وهدة الذل والمهانة ، فلا غرو إذ أثار أيمانهم يسارعون إلى الإسلام ، فوجدنا بلالا يبادر إلى الدخول في الإسلام في فجر الدعوة ، ووجدنا كثيرين من موالى النبي وموالى صحابته من الأحباش يحذون حذوه ، من أمثال لقيط ، وكان مولى من موالى النبي (ص) ، وأسلم ويسار وكنا عبيدين ليهوديين ، ثم أسلمنا على يد النبي (ص) في حصار خيبر ، وغيرهم كثيرون من « مسلمة الحبشة »

(١) الغراز المنقوش ص ٣٤ ب .

(٢) نفس المرجع ص ٣٥ أ .

الذين ذكرهم النبي (ص) حين حضرت أحد مواليه الوفاة ، فقال (ص) : « أنظروا من بمكة من مسلمة الحبشة فادفعوا ميراثه لهم ^(١) » . وكانت حاضنة النبي أم أيمن حبشية مسلمة ، فلما كبر النبي أعتقها ، ثم أنكحها زيد بن حارثة ، وقيل إنها كانت من سبي جيش أبرهة وأنه لما انهزم عن مكة ، أخذها عبد المطلب من معسكره . وقد توفيت أم أيمن بعد رسول الله بخمسة أشهر (٢) .

وكان بلال بن رباح - غالباً - من سلالة الساميين الذين اختلطوا بالعناصر الحامية والإفريقية في الحبشة ، فليس في أوصافه التي ذكرها العرب ما ينطبق على الجنس الحبشي الوطني والذي يميز الحاميين والإفريقيين ، وهي فطس الأنف ولفلة الشعر . كانت أم بلال من إماء السراة أو من إماء مكة ، وكان سادته بني جمح واشتراه أبو بكر الصديق ، واعتقه بعد ما رأى من تعذيبه ، وكان من عمل بلال في صحبة النبي قبل بناء المصلى أنه كان يحمل العنزة بين يديه (ص) ويركزها حيث تقام الصلاة ، وكانت إحدى العنزات الثلاث التي أهداها النجاشي إلى النبي ، وقد ظلت تتداولها أيدي الحراس في عهود ولادة المسلمين بعد عصر الخلفاء . وكان

(١) الحبشان ص ١٤٦ .

(٢) الطراز المنقوش ص ٣٥ ، ب .

من عمل بلال أيضاً حمل الزاد للرسول في خرجاته (ص)، ولهذا سمي خازن الرسول. وكما كان بلال أول ثمرة من ثمار الحبشة فكذلك كان أول مؤذن في الإسلام، ويقال إنه ربما كان قد تلقن من والدته السوداء شيئاً من تلك الخواطر الفجة التي شاعت في الحبشة باسم الديانة المسيحية في القرن الرابع الميلادي فبيأت ذهنه لقبول وحدانية الإسلام.

وعرف الأذان بعد بناء مسجد المدينة، وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة، وقد تبين للنبي أنه في حاجة إلى طريقة لدعوة المسلمين إلى إقامة الفرائض العامة والشعائر العلنية، وخطر للنبي أول الأمر أن يتخذ بوقاً للدعوة إلى الصلاة أو ناقوساً أو ناقوراً من الخشب ونسكن لم يرغب في استخدام أداة كان يستخدمها اليهود في بعض الصلوات^(١).

وكانت توكل إلى العبيد بعض المهن الصغيرة بالإضافة إلى ما يقومون به من خدمة سادتهم، فكان يسار مولى المغيرة بن شعبة يرش المسجد النبوي ويكنسه^(٢). وكان أنجشة مولى النبي (ص) حسن الصوت بالحاء وكان يحذو بالنساء^(٣). ودخل عمر على النبي

(١) من رسالة الكاتب لافسكاريو هرن ترجمة الاستاذ العقاد في كتابه (بلال داعي السماء) ص ١٥٠

(٢) الحبشان ص ١٤١ (٣) نفسه ١٤٦

وغلام حبشى يضم ظهره (ص) لأن ناقة كانت اقتحمت به (١) .
 وكان من الحبشيات الإماء من ينبذن التمر للنبي في سقاءٍ عشاء فتوكثه
 فاذا أصبح شرب منه (٢) . وكان أيمن بن عبيد مولى الرسول
 متوليا أمر مطهرته (ص) وتعاطيه حاجته (٣) .

ومن الطريف ما يحكى عن مولين كانا لرسول الله ، أحدهما
 حبشى والآخر قبطى ، تشامايوما ، فقال أحدهما للآخر يا حبشى وقال
 الآخر له يا قبطى وذلك من باب المعايرة لبعضهما بالأصل ، فقال
 لهما رسول الله (ص) « لا تقولوا ذلك ، إنما أنتما رجلان من آل
 محمد (٤) » .

ومن المعروف عن الأحباش ، وهم فى ذلك كسائر
 الشعوب الفطرية ، أنهم سريعو التعبير عن انفعالهم ، ولهذا سرعان
 ما تجد الحبشى يعبر بيديه ورجليه وحركات وجهه عما يخالجه
 نفسه من مشاعر . وما الرقص إلا مظهر من مظاهر هذه الطبيعة
 وهذه ظاهرة تتحقق فى كثير مما وصلنا من أخبارهم . من ذلك ما روى
 أن حبشيا سأل النبي (ص) هل يدخل الجنة مع سائر المسلمين ،
 فطمأنه النبي فبكى الحبشى حتى فاضت روحه . قال ابن عمر : فلقد

(١) الحبشان ص ١٤٤ — ١٤٥ (٢) نفسه ص ١٥٦

(٣) نفسه ص ١٧٠ (٤) نفسه ص ١٤٥

رأيت رسول الله يدليه في حفرة (يعنى بيده الشريفة) ^(١). وذكر
 النبي النار ذات يوم وبين يديه حبشى قد اشتد بكاؤه ، فنزل جبريل
 عليه السلام وقال يا محمد إن الله تعالى يقول وعزتي وجلالي
 وكرمي وسعة رحمتي لا تبكي عين عبد في الدنيا من مخافتى إلا أكثر
 ضحكك في الآخرة ^(٢). وروى أن حبشيا أتى النبي (ص) فقال
 يا رسول الله! إني كنت أفعل الفواحش ، فهل لى من توبة ؟ فقال
 له النبي (ص) نعم ، فولى الحبشى ثم رجع فقال يا رسول الله! أكان
 الله يرانى وأنا أعمل ؟ فقال له النبي (ص) : نعم يا حبشى ، فصاح
 الحبشى صيحة خرجت فيها روحه ^(٣). ولعلنا نذكر الآية الكريمة :
 (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع
 مما عرفوا من الحق) فقد قيل إنها نزلت في قوم من الحبش ^(٤).
 على أن للأحباش صفة عظيمة هى الشجاعة فى القتال .
 والإسلام مدين لهم من هذه الناحية أيضا . نذكر وحشى بن
 حرب الذى كان يقول قتلت خير الناس فى الجاهلية ، يعنى حمزة
 ابن عبد المطلب عم النبي ، وشر الناس فى الإسلام ، يعنى مسيلة
 الكذاب . وكانت أم أيمن قد ولدت من زيد بن حارثة أسامة بن

(١) الحبشان ص ١٤٤-١٤٥ (٢) نفسه ص ١٤٧

(٣) الحبشان ص ١٤٧ (٤) نفسه ص ٤٢

زيد ، وهو بطل من أبطال الإسلام (توفي حول سنة ٥٥٧هـ) قد استعمله النبي (ص) وهو ابن ثمانى عشرة سنة على جيش كان فيه عمر بن الخطاب ، وأمره أن يسير به إلى الشام . ولما فرض عمر بن الخطاب للناس ، فرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف ، وفرض لابنه عبدالله ابن عمر بن الخطاب ألفين ، فقال له ابنه : أراك قد فضلت على أسامة يابى ، وقد شهدت ما لم يشهد من المشاهد ، فقال له : إن أسامة وأباه كانا أحب إلى رسول الله منك ومن أهلك (١) ، وقيل إن أبا عامر الراهب أحد الكفار في زمن النبي ، وكان النبي يسميه الفاسق ، حارب النبي في مكة ، وفي أحد ، ويقال إنه لقي المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة (٢) . والأحباش بطيعة يحذقون فن القتال ، ويتعلقون بأساليب النضال . وقد عرف العرب فيهم هذه المزية كما استعاروا منهم ألفاظا تدل على أسلحة القتال (٣) . وكان لعبد الله بن أبي ربيعة عبيد من الحبشة . يتصرفون في جميع المهن ، وكان عددهم كثيرا ؛ فروى عن سفيان بن عيينة أنه قيل

(١) الحبشان من ١٦٨ - ١٦٩

(٢) ابن اسحاق ص ٥٦١ - ٥٦٢

(٣) ومن ذلك المعابل (وهى آلات مديية تشبه السهام والنبال) فهى فى الحبشية معبكت جمعها معابل ، والدروع ، والوضف بالوضاف (فى الحبشية وضف وضافى أى رمى بالمقلاع) 6 - 55, 53, Noeldeke, p.

لرسول الله (ص) حين خرج إلى حنين : هل لك في حبش بني المغيرة تستعين بهم ؟ فقال : لاخير في الحبش ، إن جاعوا سرقوا ، وإن شبعوا زنوا ، وإن فيهم لخلتين حسنتين ، إطعام الطعام ، والبأس يوم البأس (١).

وكان كثير من هؤلاء العبيد الأحباش الذين طال بهم العمر بعد موت الرسول (ص) ، يعتكفون في ديارهم ، وينقطعون عن الحياة السياسية ، ويعيشون في عزلة وانكماش بعيدا عن الناس ، فقد ذهب بلال إلى دمشق ، وآثر حياة العزلة حتى مات ٢٠ أو ٢١ هـ ونزل أبو بكره مولى الحارث بن كلدة الثقفي بالبصرة ، فلم يسمع عنه خبر حتى مات ، ونزل وحشي بن حرب بجمص في آخر أيامه وظل بها حتى مات . وكان عثمان بن مظعون وهو من الذين هاجروا إلى الحبشة من مسلمي مكة مجتهدا في العبادة ، يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويتجنب الشهوات ، ويعتزل النساء حتى إنه استأذن رسول الله (ص) في التبتل والاختصاص فنهاه عن ذلك (٢).

٤

هاجر جعفر بن أبي طالب بعد البعثة التي هاجرت إلى ملك الحبشة لمفاوضته ، تصحبه زوجته أسماء بنت عميس . وكان جعفر

(١) أعاني طبعة دار الكتب ١ ص ٦٥ (٢) الحبشان ٣٥٨-٣٥٩

شخصية قوية ، محبوبة لدى الرسول ، وله (ص) فيه أحاديث تدل على حبه له ، ويقال أنه كان يشبه النبي في خلقه وخلقه (١) .
ولقد أبلى جعفر في الحبشة بلاء حسنا في الدفاع عن قضية المسلمين بين يدي ملكهم أصحمة . وولد لجعفر في أرض الحبش عبد الله وعون ومحمد ، وقيل أنه لما ولد النجاشي ابنا كانت أسماء بنت عميس ترضعه مع ابنها (٢) .

وقدم جعفر عام خيبر على النبي (ص) (أى في السنة السابعة للهجرة) ، وإذا صح أنه كان قد هاجر إلى الحبشة في السنة الخامسة من مبعث النبي ، فهو قد مكث زهاء أربعة عشر عاما في الحبشة ، وهي فترة طويلة كفيلة بإحداث مؤثرات فعالة في جعفر وأصحابه .
وفد على النبي مع جعفر وفد من زعماء الحبشة ، اختلف العلماء في عدده ، قيل كان عددهم اثنين وستين رجلا ، وقيل ثمانية شاميون واثنان وثلاثون رجلا من الحبشة (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن من هؤلاء الأجباش من بقي بجوار الرسول ، وتطوع لخدمته وخدمة المسلمين . فيروى أنه كان من بين القادمين منهم ذو مخمر (أو ذو مخبر) ابن أخي النجاشي ، وقد لزم

(١) الجبشان ص ٢١٧

(٢) نفس المرجع ص ١٦٤

(٣) نفس المرجع ص ١٤٢

النبي ملازمة كلية حتى عده بعض العلماء من مواليه ونزل الشام في آخر أيامه ، ومات في حدود الستين للهجرة ، وقد روى الحديث عن النبي ، فروى عنه قوله : « تصالحون الروم صلحا آمنا وتغزون أتم وهم عدوا من ورائهم ، قتلون ، وتغزمون ، ثم تنزلون بمرج ذى تلول ، فيقوم رجل من الروم فيرفع الصليب ويقول لأغلب الصليب ، فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله ، فعند ذلك تغدر الروم ، وتسكون الملاحم ، فيجتمعون إليكم ، فيأتونكم في ثمانين غاية ، مع كل غاية عشرة آلاف » . وحديث آخر رواه ذو مخمر : « كان هذا الأمر في حمير فتزعه الله منهم ، فجعله في قريش وسيعود إليهم » (١) .

وهذان الحديثان ينمان عن روح حبشية سياسية طاهرة ، فالأول حديث الخبير بالروم وتحالفها ومسيحياتها ، وفي حديثه روح تنبؤية قريبة من نزعة الأحباش في نظرهم الدينية . والثاني يتحدث عن حمير ، ومن أكثر خبرة بحمير من هذا الحبشى ؟ ، وهو حديث سياسى يخبرنا عن تنقل السلطان بين حمير وقريش . ويتنبأ بصيرورة الغلبة لحمير آخر الأمر ، وفيه روح تماليء حمير ، وتشير إلى عصبية جنسية خفية سنرى آثارها بعد قليل .

ومن الآثار التي أفادها جعفر من هجرته ما يروى أنه لما قدم على النبي سنة ٧ هـ احتفى به النبي (ص) ، فصار جعفر يحجل حوالى النبي (ص) (وفي رواية وصار يرقص) وقد أقره (ص) ولم ينكره عليه (١) . كذلك من آثار النساء المهاجرات ما يروى أن فاطمة لما حضرها الموت قالت لأسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب : يا أسماء إني والله لمستقبحة لما يصنع بالنساء إذا متن من طرح الثوب على إحداهن عند حملها الذي ربما وصفها . فقالت لها أسماء : ألا أريك شيأ رأيت الحبش يصنعونه بنسائهم إذا متن ؟ قالت : نعم . فدعت أسماء بجراند خضر فجىء بها فأخذت أطرافها فخنثها ثم طرحت ثوبا عليها ... فلما رآه أبو بكر حسبه هو دجال القرب هيئته من هيئة اليهودج (٢)

وقد قيل إن نساء رسول الله تذاكرن عنده في مرضه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها مارية ، فذاكرن من حسناتها وتصاويرها ، وكانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا من أرض الحبشة ، فقال رسول الله (ص) : « أولئك قوم إذا كان فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره

(١) قيل ومن هنا أخذت الصوفية جواز الرقص عندهما من لذة المواجيد في مجالس الذكر والسماع . والحجل المعنى على رجل واحدة بما يشبه الرقص . (الحبشان ص ٩٢) .
(٢) الحبشان ص ٩٢

مسجداً ، ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق
عند الله ^(١) .

٥

يقول الباحث لا فكاديو في رسالته ^(٢) : ذكر الدكتور
بيرون في كتابه عن النساء العربيات الذي نشر بالجزائر ١٨٤٨
أن معظم المشهورين بالغناء كانوا عبيداً ، وأن جميع العبيد قبل
الدعوة المحمدية كانوا على وجه الإجمال من الحبش أو الزنوج .
ولا يبعد أن تكون القيتان المشهورتان باسم جرادتي عاد ولا يزال
لاغانهما بقية مروية فتاتين حبشيتين ، وتقول الأخبار أنهما كانتا
لعبد الله بن جدعان من سلالة عاد .

وربما يرجع السبب في أن المغنين كانوا من بين الموالي في
بلاد العرب إلى نقص في الآداة الصوتية أو القدرة الفنية عند
العربي الأصيل ، أو أنفة من هذه الصناعة واعتقاداً منه بأن الغناء
بالنساء أولى ، وإنما كان العرب أهل تجارة وحرب فلعلمهم انشغلوا
عن صناعة الغناء بالقتال وتسيير القوافل .

وكان للعرب صناعة غناء لا ينكرونها وهي الحدااء والنصيب

(١) عطايات ابن سعد القسم الثاني من الجزء الثاني ص ٣٤

(٢) نقلاً من كتاب بلال داعي السماء للاستاذ العقاد ص ١٥٠ وما بعدها

وما إليه ^(١).

« وكانت الأنغام العربية لاتتعدى أنواعا ثلاثة :

١ — النغم البسيط ويغنى به فى مقام الوقار ، ومعارض البطولة أو السهولة كغناء الحرب والحداء .

٢ — النغم المركب ويتألف من حركات عدة ، وترجيعات صوتية كبيرة .

٣ — النغم الخفيف وهو يستخف السامع إلى الطرب ويهزه ويحرك أشجانه . »

« ولما كان بلال عبدا ، وكان لاريب فى بعض أوقاته يسوق الأبل ، فقد كان على الأرجح يتغنى بالحداء ، ويعالج النغم البسيط ، وربما وجد من وقته متسعا لترديد الأصوات المركبة ، واستطاع أن يلقي الأذان فى ألحانه المعروفة متأثرا بطابعه الحبشى ، ولا يبعد أن يكون بلال قد سمع الأذان ، وصاغ منه اللحن الذى أوحته إليه سليلته الإفريقية ، فأقره النبى عليه كما أقره على بعض الزيادات التى أضافها إلى أذان الصبح كقوله (الصلاة خير من النوم) ^(٢) .

وكان من الأحباش من يقوم بصناعة الرقص واللعب بالحرايب فى الحفلات والأعياد فى الجاهلية وصدر الإسلام ، وروى أن

(١) بلال ص ١٥٥ وما بعدها

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحات .

الحبشة لعبوا بحراهم في المسجد، فكان النبي يستعرضهم مع عائشة وهي متكئة على منكبيه كما يروى أن الحبشة قد زفوا بين يدي الرسول^(١). وكانوا يرقصون ويقولون محمد عبد صالح فقال الرسول: ما يقولون؟ قالوا: يقولون محمد عبد صالح^(٢). ورؤى الأحباش يلعبون فأخرج أحد الصحابة درهمين فأعطاهم^(٣). وأخذ المسلمون من الأحباش بعض أنواع الرقص وهو الحجل الذي صنعه جعفر احتفاء بالنبي حين قدم من الحبشة. وفي اللغة القنين من أسماء طنبور الحبشة.

وكما كان غير مستساغ لدى العرب الصرحاء أن يقوموا بصناعة الغناء كذلك كان الرقص في نظرهم، فهم يعدونه مهنة لا تليق بأمثالهم، وإن كان لديهم أنواع أخرى من الرقص لا يرون فيها عيبا كما كان لهم أنواع من الغناء (الحداء والنصيب) لا يرون فيها عيبا كذلك. حتى الحبشي منهم كان إذا صلحت حاله وعلا مركزه يأنف من صنعة الرقص؛ ولقد همر نصيب الشاعر بعد أن اتصل بالخليفة وحسنت حاله، بآبن خالته سحيم وهو يزن ويتمر مع السودان، فأنكر ذلك عليه وزجره^(٤).

(١) الزفن والزيف نوعان من رقصهم يمتازان بالسرعة وتوالي الحركة.

(٢) التراتيب الادارية طبعة الرباط > ٢ ص ١٤١

(٣) نفسه > ٢ ص ١٤٥

(٤) الاغاني > ١ ص ٣٣٩

على أننا نريد الآن أن نعالج مسألة يستفها شيء من الغموض،
 إذ لا نكاد نجد فيها من الأخبار والروايات ما يعيننا على تحقيقها،
 تلك هي مدى تأثير الأدب الجاهلي وأدب صدر الإسلام بالأحباش.
 ونلاحظ أن كثيرا من الشعراء، والأدباء بوجه عام، كانوا في
 الجاهلية على اتصال بالبيئات الحبشية سواء عن طريق مباشر أو
 عن طريق اليمن، فضلا عن طائفة من الشعراء الأحباش كانوا قد
 استوطنوا بلاد العرب، وتعلموا اللغة العربية، ونظموا بها الشعر.
 ولقد عرفنا كيف كانت مدينة نجران، بخاصة، معقلا من
 معاقل المسيحية الحبشية في بلاد اليمن. والأخبار تدلنا على أنه
 كان لهذه المدينة أثر في تخريج فريق من الشعراء والخطباء من
 العرب. وكنا نعرف أن قس بن ساعدة الأيادي كان أسقفا
 لنجران، كما كان خطيبا مشهورا، سمعه أبو بكر الصديق وأعجب
 به ^(١) وهو يخطب في سوق عكاظ خطبته المعروفة «أيها الناس! اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، أنه مامات فات، وكل ما هو
 آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات الخ،
 ولعلك تحس في هذه الخطبة روح الحكمة التي يمتاز بهارجال

الدين ، كما تحس فيها بذلك السجع الذى يذكركنا بسجع الكهان .
ثم إذا نظرنا فى آخر هذه الخطبة نجد قساً قد ذيل خطبته بأبيات
من الشعر :

فى الزاهيين الأولين م من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر

أيقنت أنى لا محالة م حيث صار القوم صائر

وإن ما اتبعه قس من تذيل خطبته بختام شعرى إنما هو
طريقة معروفة فى الأدب الحبشى ، حين يسرد رجال الكنيسة
من الأحباش قصة حياة قديس من القديسين ، أو شهيد من الشهداء ،
فيذيلون هذه القصة بمقطوعة شعرية ينشدونها عقب الفراغ من
سردها ، ويسمون لها سلام ، لأنها تبدأ بلفظ سلام ، وتتناول
الإشارة بذكر أعمال القديس أو الشهيد المترجم له . وتجرى فى
أواخر أبيات المقطوعة قافية واحدة . ونظن أن نظام التذيل هذا ،
ولو أنه لم يصل إلينا مدوناً إلا فى عصور متأخرة ، متأثر بالأدب
الشعبى الحبشى . والمعروف أن الأدب الشعبى فى أية أمة أعمق فى
تاريخ أجيالها ، وأبعد تأثيراً بالأدب الأجنبى من الأدب الرسمى .
ثم إن هذا الختام الشعرى زاهر بالموسيقى اللفظية التى تتجلى
بوضوح فى نظام التقفية وفى تكرار لفظ سلام فى أول كل

شطر ، وهذا التناسق الموسيقي موجود ، من غير شك في أبيات
 قس ، موجود أيضا في ذلك السجع الذي التزمه في خطبته وتقريبه
 بين ألفاظه المسجوعة بتقصير عباراته . والمظنون أن السجع في
 النثر ، كالقافية في الشعر ، قد انبعثا من واد واحد ، من معابد
 الآلهة ، ومن أقوال الكهان ، والسحرة ، ومنشئ الرقي والتعاويز
 وذلك لما في السجع والقافية من موسيقى ، وتوقعات تساعد
 الكاهن والساحر والراقى على التأثير في نفوس السامعين وإحاطة
 صناعته بضرب من التهويل والإغراب ، وما أجدد أن تكون
 نجران وما شاكلها مركزا لهذا النوع من الأدب .

ويذكر ابن قتيبة أن من أقدم الشعراء الذين لا نعرف عنهم
 إلا البيت والبيتين ، الحارث ولعله الحارث بن كعب زعيم النجرانيين
 الذي رأينا ذا نواس يعذبه والنجاشي يثأر له . والرواية يذكرون
 أنه كان شيخا فانيا قد بلغ من العمر خمسة وتسعين عاما ، حين أقدم
 ذو نواس على تعذيبه ، ويروى ابن قتيبة أن الحارث هذا قال :
 أكلت شبابي فأفنيته . . وأفنيت بعد شهور شهورا
 ولكني أشك من نسبة هذا الشعر إليه . وإن كنت أعتقد أن
 مجرد نسبة الشعر إلى رجل نجراني ، إن صح أنه النجراني ، مما
 يلفت النظر في هذا المقام .

ويقول القدماء إن الأعشى ، وهو صناجة العرب الذي كان

يغنى شعره ويرتله ، « كان يعود في كل بسنة إلى بني عبد المدان (وقيل إن عبد المدان رأس هذه الأسرة ، هو الذى بنى كعبة نجران) فيمدحهم ويقيم عندهم يشرب الخمر معهم وينادهمهم ويسمع من أساقفة نجران قولهم ، فكل شئ في شعره من هذا فمنهم أخذه ^(١) ، ومن أسرة عبد المدان النجرانية شاعر جاهلي معروف يقال له يزيد بن عبد المدان ترجم له الأغاني . ^(٢)

ثم نرجع إلى شعراء اليمن في الجاهلية فنجد امرأ القيس الكندى ، وكندة كما رأيت ، كانت متجه أنظار الغزاة من الأحباش منذ قديم الزمان ، فغزاها أفيلاس في القرن الثالث الميلادى ، ثم أخضعها أبرهة وولى عليها يزيد بن كبشة في القرن السادس الميلادى . كذلك كان من الشعراء الجاهليين من اتصلوا بأهل اليمن ، وعاشوا معهم كما فعل الأعشى ، ومنهم أمية بن أبى الصلت ، وكان تاجرا متصلا باليمن وله شعر في مدح سيف بن ذى يزن ، كما أنه يذكر في شعره كثيرا من الآثار اليمنية .

أضف إلى هؤلاء طائفة من الشعراء ينحدرون من سلالة حبشية ، منهم عنتر بن شداد ، وخفاف بن نذبة ، وسليك بن

(١) الأغاني ١٠ ص ١٣٦ . يشير النص بقوله من هذا الى بيت الاعشى :

استأثر اقة بالبقاء وبالعدل وولى الملامة الرجال .

(٢) الأغاني ١٠ ص ١٣٦ .

السلكة ، وسحيم عبد بنى الحسحاس ، ويقال للثلاثة الأولين أغربة العرب ، سموا كذلك لسواد لونهم .^(١)

فلعلنا نستطيع ، بعد الذى سبق ذكره ، أن نزعم أنه كان للأحباش أثر ، فى وضع لبنة فى بناء موسيقى الشعر العربى . وربما يؤيد ما نذهب إليه ، ما نعرفه من أن الأحباش كما مر ، قد أدخلوا ضربا من الرقص والغناء فى الحجاز ، والصلة وثيقة بين الشعر والرقص والغناء ، ولا يبعد أن يكون الشعر قد أفاد من توقيعات الرقص والغناء كما أفاد الأذان من صوت بلال وطريقته فى الغناء .

وإذا رجعنا إلى الشعراء من الأحباش فى الجاهلية وصدر الإسلام ، نجدهم على وجه الإجمال غزلين أو فرسانا . والحبشى بطبعه يميل إلى الغزل الجامح الذى يصل أحيانا إلى درجة المجون . ومن المعروف أن الأحباش ، لكونهم أمة تعيش على الفطرة ، لا يتورعون فى التعبير عن انفعالهم وغرائزهم ، والعرب أنفسهم يعرفون فيهم هذه الطباع فقد حكم النبي (ص) على عبيد الحبشة

(١) بالاضافة إلى هؤلاء تطلق أغربة العرب أحيانا على نفر من الشعراء وهم عمير بن الحباب ، وهشام بن عقبة بن أبى معيط ، وتأبط شرا ، والشنفرى وعبد الله بن خازم ، وممير بن أبى ممير ، وهمام بن مطرف ، ومنتشر بن وهب ومطر بن أوفى ، وحاجز ، ولم يثبت لدينا أن واحدا من هؤلاء ينسب الى جنس حبشى .

بأنهم قوم «إن جاعوا سرقوا ، وإن شبعوا زنوا» . ويرى أن عبد الله بن أبي ربيعة اشترى الشاعر الحبشي سحيا وأحب أن يهديه إلى عثمان بن عفان فكتب إليه «لا حاجة لنا فيه ، إنما حظ أهل الشاعر منه إذا شبع أن يشرب بنسائهم وإذا جاع أن يهجوهم»^(١). وفي الأدب الحبشي بعض الأناشيد الدينية يسمونها ملكي ، وهو عبارة عن شعر يصف القديس أو الشهيد وصفا دقيقا من رأسه حتى أظافر أصابع رجليه وهو لا يتخرج من ذكر القبيح ، وهو يذكّرنا بشعر نشيد الانشاد في التوراة .

ولعل سحيا عبد بنى الحسحاس خير مثال على هذه الطبيعة ، فهو عبد حبشي ، اشتراه أبو سعيد فشبب ببنته عميرة ، وفخس وشهرها^٢ ومن ذلك قوله فيها :

ألكنى إليها عمرك الله يافتي بأية ما جاءت إلينا تهاديا^(٢)
وبتنا وسادانا إلى علجانة وحقف تهاده الزياح تهاديا^(٣)
وهبت شمال آخر الليل قرة • ولا ثوب إلا بردها وردائيا
توسدنى كفا وتثنى بمعصم على ، وتحوى رجلها من ورائيا
فأزال بردى طيبا من ثيابها إلى الحول حتى أنهج البردباليا^(٤)

(١) الشعر والشعراء ص ١٤٢ .

(٢) ألكنى إليها : أبلغ رسالتى إليها .

(٣) علجانة شجرة معروفة والحقف ماتراكم من الرمل .

(٤) أنهج البرد أى أخلق ويل .

ومع ذلك فقد كان سحيم دميم الحلقة ، قبيح المنظر وهو
القاتل في نفسه :

أتيت نساء الحارثيين غدوة بوجه براه الله غير جميل
فشبهنني كلبا، ولست بفوقه ولا دونه، إن كان غير قليل
وكانت فيه لسكنة حبشية ، وكان ربما أنشد فيقول أحسنك
والله ، يريد أحسنت ^(١) واللغة الحبشية تستخدم الكاف للمتكلم
والمخاطب بدلا من التاء التي تستعمل في العربية ^(٢) ،

وهو من المخضرمين أدرك الجاهلية والإسلام ولا تعرف له صحبة
ولما أنشد عمر بن الخطاب هذا المطلع :
عميرة ودع إن تجهزت غاديا كفى الشيب والإسلام للبرء ناهيا
قال له عمر : لو كنت قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك
فقال سحيم ما سمرت يريد ما سمرت ^(٣) .
وأكثر شعره في الغزل ، وقد أورد طائفة منه البغدادى فى

(١) الشعر والشعراء ص ٢٤١

(٢) ويروى النحاة شاهدا على إبدال الكاف من التاء قول الراجز :

يا ابن الزبير طالما عصيكا وطالما عنيكنا إليك

لنضربن بسيفنا قفيكا .

وأورده أبو زيد فى نوادره ونسبه لراجز من حمير (خزانة الأدب للبغدادى

ج ٢ ص ٢٥٧)

(٣) خزانة ج ١ ص ٣٧٢

خزاة الأدب^(١). ومات سحيم مقتولا، وقيل إن سبب قتله كانت امرأة يحبها، وكان آخر ما قال وهو مقدم للقتل :

شدوا وثاق العبد لا يغلبكم إن الحياة من الممات قريب
فلقد تحدر من جبين فتاتكم عرق على ظهر الفراش، وطيب^(٢)
ويروى أن عنترة بن شداد كان يعشق عبلة، ولكن أكثر
ما قال في شعره في الحرب والفروسية .

ويروى أن عمر بن أبي ربيعة كانت أمه أم ولد من حضرموت
أو من حمير أو من الحبشة، وقيل بل الحبشية أم أخيه . ويرى
بعض الرواة إن من حمير أتاه الغزل^(٣) ويقال غزل يمان
ودل حجازي^(٤) .

ونصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان كان شاعرا غزلا
أيضا، وكان حبشيا، كان يأتي مشيخة من بني ضمرة، وهم مواليه
ومشيخة من خزاعة فينشدهم القصيدة من شعره ثم ينسبها إلى بعض
شعرائهم الماضين، فيقولون أحسن والله! هكذا يكون الكلام!
وكان هذا مشجعاله على الخروج إلى عبد العزيز بن مروان وهو
يومئذ بمصر^(٥) .

(١) نفسه ١ ص ٢٧١ - ٢٧٤ ، ٣ ص ٤٠١ - ٤٠٢

(٢) خزاة ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ (٤٦٣) الاغانى ج ١ ص ٦٦

(٥) الاغانى طبعة دار الكتب ١ ص ٣٢٥

وكان منظره لا يشجع على الاحترام ^(١) طلب أن يدخل على عبد العزيز ليدحه فازدري وطرده . فلما تمسكن من الدخول، صعد عبد العزيز فيه بصره وصوب ثم قال له : أنت شاعر ! ويلك ! فعندما سمع أحد جلساء الخليفة شعره حكم بأنه أشعر أهل جلده (٢) .

وكانت صاحبة نصيب أم بكر زينب بنت صفوان بن غادى كنانية فى الأصح وليست زنجية كما زعم . وسبب الوصلة بينهما أن صبيا كان يرعى إبلا لمولاه وكانت رعاة مولاه تحالط رعاة صفوان فى المبرك بوادى البوار ، وكانت زينب تأتى رعاة أبيها فتأخذ لبنا ، وأن نصيبا تولع ببرى القسى وإراشة السهام وحجز الأوتار ، فبرع فى ذلك حتى اشتهر فى أحياء العرب ، وكان يجلس لفعل ذلك وتذهب الرعاة فتقوم عنه بالخدمة ، وتتخلف الحلوب من النوق فى المعائن فتأتى زينب وهى جارية صغيرة ، فتأخذ اللبن فينظرها وكان حاذقا حسن التأمل فى دقائق المحاسن ولطائف الشمائل وهى من ذلك فى أرفع المراتب ، فنشأ عنده من حبها ما غير باله فشبب بها ، ونشأ ذلك ، فأتت العرب مولاه فقالت إن عبدك هذا قد برع فى الشعر

(١) نفسه - ١ ص ٣٢٨

(٢) قيل كان لونه حائلا وشعره مفللا وخلقه مشوهة (الآغانى - ١ ص ٣٤١)

ونخشي أن يشبب بنسائنا، فباعه مولاه لعبد العزيز بن مروان ^(١).
وقد قصر قصصا غرامية ليزيد بن عبد الملك ^(٢) ولعبد العزيز ^(٣).
وله شعر في الغزل ، وهو صاحب البيت السائر :
أهيم بدعد ما حيت فإن أمت فيا ويح دعد من يهيم بها بعدى



أما أثرهم في شعر الفروسية في الأدب العربي ، فنه نوع قاله
شعراء الأحباش في الحروب والقتال ونوع قيل في الصلعة .
ومن الصفات الأصلية في الأحباش الصبر في القتال وجراءة
القلب وقوة البنية وخفة الحركة . والعرب يسمون ثلاثة من
شعراء الأحباش أغربة العرب : وهم عنتر بن شداد وخفاف
ابن نذبة والسليك بن السلكة وكانوا جميعاً فرسانا .
أما عنتر وخفاف فقد اشتهرا بالشجاعة في الحرب وقتل
الأعداء . الأول جاهلي ، كان يقال له عنتر الفلحاء ، وذلك لتشق
شفتيه ، وأمه أمة حبشية ، يقال لها زبيبة ، وكان لها ولد عبيد
من غير شداد . وروى أن أباه ادعاه مكافأة له على إنقاذه لبنى
عبس من بعض الغارات . وله معلقته التي أولها :-

(١) تزيين الأسواق - ١ ص ٩٨

(٢) أغاني - ١ ص ٣٥٤

(٣) أغاني - ١ ص ٣٧٥

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
وفيها يصف شجاعته وكره وفره على حصانه، وثباته في القتال
وقتله لخصمه الشجاع وهجومه على الأعداء .

أما خفاف بن ندبة، فكان مخضرمًا أدرك الجاهلية والإسلام،
أمه ندبة سوداء حبشية، وكان شديد الأدمة، وأسلم وشهد فتح
مكة، وكان معه لواء بني سليم، وثبت على إسلامه في الردة،
وبقى إلى عهد عمر بن الخطاب. وكان في الجاهلية يهاجى العباس
ابن مرداس. قال الأصمعي: خفاف ودريد بن الصمة أشعر
الفرسان .

أما شعر الصعلكة، فكان من أبطاله السليك بن السليكة،
وكانت أمه السليكة سوداء، وهو أحد الصعاليك العدائين الذين
كانوا لا يلحقون ولا تعلق بهم الخيل إذا عدوا. وكان إذا جاء
الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار، وكان لا يغير على مضر،
وإنما يغير على اليمن، فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة، وربما
كان هذا راجعا إلى أنه درس مسالك اليمن أكثر من غيرها من
جهة، وأن الثروة والمتاع كان في اليمن أكثر وأضمن منها في
بقاع الشمال .

كان السليك من أشد رجال العرب، وكانوا يدعونه سليك

المقانب ، وكان أدل الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها وأشدهم عدوا على رجله (١) .

وكان إذا جاء الربيع عمد إلى بيض النعام فيملؤه من الماء ويدفنه في طريق اليمن في المفاوز . فاذا غزا في الصيف مر به فاستأثره (٢) ، وكان يعطى عبد الملك بن مويك الخثعمي أتاوة من غنائه ، على أن يحيره فيتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من أهل اليمن .

انتقل من الأحباش إلى العرب بعض آثار في الحكمة . والقرآن الكريم يذكر عن لقمان وصايا قدمها لابنه وهو يعظه (٣) ، وزعم وهب بن منبه أنه قرأ عشرة آلاف فصل من حكم لقمان ، وقيل إن النضر بن الحارث كان قد حفظ (مجلة لقمان) ليضاهى بها أقوال الرسول في مجالس قریش (٤) . ويروى أن لقمان هذا كان عبدا حبشيا ، وقيل إنه كان عبدا مصريا أو نوبيا ، وقيل في مهنته إنه كان نجاراً أو راعيا أو وزيرا لداود أو قاضيا لبني إسرائيل ، ويجعله الباحثون المحدثون مقترنا بشخصيات

(١) الاغانى مط التقدم - ١٨ ص ١٣٤

(٢) نفسه - ١٨ ص ١٣٥

(٣) سورة لقمان آية ١٣ - ١٩

(٤) الطبرى - ١ ص ١٢٠٨

ثلاث : بلعام بن باعور ، حكيم بن إسرائيل ، وأحيقار حكيم بابل القديمة ، وإيزوب حكيم اليونان ^(١) ، وبعد عهد الرسول تتطور شخصية لقمان ، فبعد أن كان يصنع الحكمة القصيرة ، أصبح مؤلفا للقصص الخرافية والرمزية التي تشبه في تأليفها قصص كيلة ودمنة .

ولقد رأينا كيف كان الأعشى يجالس أساقفة نجران ويأخذ عنهم الحكمة ، ورأينا تلك الحكم التي جرت على السنة قس بن ساعدة ، أسقف نجران ، وغيره من المسيحيين الذين تأثروا بالمسيحية الحبشية .

والآدب الحبشى يميل إلى الخرافة ، وحسبك دليلا أن تقرأ تاريخا لأحد شهدائهم أو قديسيهم ، فستجده حافلا بالخوارق ، زائرا بالمعجزات ، ولم تكن هذه الروح وليدة البيئة الحبشية وحدها ، وإن تكن هذه البيئة الحبشية قد ساعدت على نموها وازديادها . وللقمان قصة في الجاهلية ، تدلنا على أنه رجل قد بلغ من العمر أربعا ، وأنه قد عاصر النور السبعة التي آخرها لبد ، وتظهر في هذه القصة روح أسطورية واضحة ^(٢) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية - Iukman

(٢) طبرى - ١ ص ٢٤٠

ويروى العرب قصة صاحب الحبشة الذى نطق فى المهد (١).
ويروى عن أم أيمن الحبشية أنها لما هاجرت إلى المدينة ، امست
بالمنصرف (اسم محل بين مكة والمدينة) فعطشت فأدلى عليها من
السماء دلو من ماء برشاء أبيض ، فشربت حتى رويت ، فكانت
تقول ما أصابنى عطش بعد ذلك أبدا ، ولقد تعرضت للعطش
بالصوم فى الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة (٢) .



كان العرب فى الجاهلية يعيرون عبيد الحبشة بسواد لونهم ،
وركاكة أنسابهم ، وكان شعراء الحبشة فى الجاهلية يردون عليهم
شتائمهم فى رفق وحذر ، فيقال إن عنتره نظم معلقته التى أولها ؛
* « هل غادر الشعواء من متردم ، * لأن رجلا من بنى عبس
سأله ؛ فذكر سواده وسواد أمه وإخوته وعيره بذلك (٣) ، وهو
يرد على ركاكة نسبه بقوله :
إنى امرؤ من خير عبس منصبا شطرى ، وأحمى سائرى بالمنصل

(١) الحبشان ص ١١١

(٢) الحبشان ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٣) الاغانى - ٩ ص ٢٢٢

ويعير سحيم بأنه عبد أسود فيجيب بقوله :
 إن كنت عبداً ففسى حرة كرمأ أو أسود اللون إنى أبيض الخلق
 ويرد خفاف بقوله :

كلانا يسودّه قومه على ذلك النسب المظلم

فيظهر من ذلك أنه لم يكن لديهم في الجاهلية من الجراءة
 ما يجعلهم يتجاوزون هذا الدفاع السلبي إلى ما هو أبعد من ذلك
 وأقوى ، كإثبات أن العنصر الحبشى خير من العنصر العربى
 مثلاً ، أو إثبات أن الأحباش غلبوا على بلاد العرب ، وكانوا
 سادة عليها ردحاً من الزمن ، فلم يذكروا شيئاً من ذلك ،
 كأنهم كانوا يعترفون بضعف أنسابهم وحقارة عنصرهم .

فلما جاء الإسلام وعظم شأن الأحباش ، وأثنى الرسول
 عليهم ، واعترف المسلمون بفضلهم ، قويت فيهم الروح المعنوية ،
 وأخذ أدباؤهم يناخون عن الجنس الحبشى ، ويفأخرون العرب
 بماضيهم المجيد ، وقد وجدنا هذه النواة فى أقوال بعض صحابة
 النبى (ص) من الأحباش .

ومما قوى هذه النزعة ، تلك الهوجة التى اتتبت شعراء القرن
 الأول الهجرى ، والتى دفعت إليها تلك العصبية القبلية والسياسية
 والحزبية التى تفشت فى ذلك الحين ، فقد اشتدت الخصومة بين
 عدنان وقحطان ، وتنهت الخصومة القديمة بين الشمال والجنوب

ووقف شعراء الأحباش يؤازرون القحطانيين على عدنان .
ولا شك أن القحطانيين كانوا أقرب إلى الأحباش من عدنان
عنصرا .

في ذلك الحين تغيرت تلك الروح الضعيفة التي وجدناها في
شعراء الأحباش فانقلبت روحا قوية ، تغير وتفاخر وتشتد
وتتعصب ، وهي بلا شك روح كانت مكبوتة من قبل ثم أظهرها
الإسلام بما أتاح لهم من نفوذ روحى ، وما أسبغه عليهم من
الرعاية والثناء ، لا نستثنى منهم إلا نصيبا ، فقد كان لا يحب
الهجاء ولا يصطنعه ، فيروى أنه سئل لم لا يقول الهجاء ؟ فقال
رأيت الناس رجلين : إمارجل لم أسأله شيئا فلا ينبغى أن أهجوه
فأظلمه ، وإمارجل سألته فنحنى ، فنفسى كانت أحق بالهجاء إذ
سوّلت لى أن أسأله وأن أطلب مالهديه^(١) . فنراه لا يجيب الفرزدق
حين يقول فى شعره :

وخير الشعر أكرمه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد^(٢)

ولا نراه يجيب حين يقول فيه كثير :

رأيت أبا الحجناء فى الناس جائزاً

ولون أبى الحجناء لون البهائم

تراه على مالا حه من سواده وإن كان مظلوما له وجه ظالم
فان أجاب فإجابته هينة رفيقة ، مر به جرير وهو ينشد ،
فقال له : اذهب فأنت أشعر أهل جلدتك ، فقال نصيب : وجلدتك
يا أبا حزره (١) .

ولكن جرير ألم يسلم من لسان الحيقطان أحد شعراء
الاحباش في القرن الأول الهجرى حين هجاه جرير ، وقد رأى
هذا الأسود ملتفا في قبضه الأبيض ، فأثار سخريته فقال :

كانه لما بدا للناس أير حمار لف في قرطاس
فلما سمع بذلك الحيقطان ، وكان باليمامة هجا جريرا بقوله :
وإن كنت تبغى الفخر في غير كنهه

فرهط النجاشى منك فى الناس أنخر
تأبى الجندى وابن كسرى وحارث

وهوذة والقبطى والشيخ قيصر
وفاز بها دون الملوك سعادة

فدام له الملك المنيع الموقر
ولقمان منهم وابنه وابن امه
وأبرهة الملك الذى ليس ينكر

غزاكم أبو يكسوم في عقر داركم
وأتم كغيض الرمل أو هو أكثر

ثم يذكّر أن مكة خالية مما يشجع الغزاة على فتحها :
ولو كان فيها رغبة لمتوج إذا لآلتها بالمقاول حمير
وليس بها مشتي ولا متصيف

ولا كجوانا ماؤها يتفجر

ثم يشتم جريراً ويعير قومه بسبة مشهورة :

ألست كلييا وأمك نعجة

لكم في سمان الضأن عار ومفخر

ومن قبله هجاه النجاشي شاعر اليمن بهذا المعنى .

ومن شعراء الحبشة في ذلك العهد عكيم الحبشي ، قيل إنه
كان أفصح من العجاج بن رؤبة ، وكان علماء الشام يأخذون عنه .
سمع عكيم أحد شعراء بني كلب (وهو حكيم بن عياش الكلبي)
يقول :

لا تفخرن بخال من بني أسد

فان أكرم منها الزنج والنوب

فأحس الشاعر الحبشي في هذا البيت إهانة لكرامة قومه

السود ، وهو واحد منهم ، فرد عليه بقوله :

ويوم غمدان كنا الأسد قد علموا
 ويوم يثرب كنا فحلة العرب
 وليلة الفيل إذ طارت قلوبهم
 وكلهم هارب موف على قتب
 منا النجاشي وذو العقصين صهركم
 وجد أبرهة الحامى أبى طلب
 هبنى غفرت لعدنان تهكمهم
 فما لمحير والمقوال فى النسب
 جمارة جمعت من كل محزبة جمع الشبيكة فوق الزاخر اللجب
 وهم السود اليمانون فى قول الشاعر :
 إذا نفر السود اليمانون حاولوا
 له حوك برديه أرقوا وأوسعوا

الكتاب الثاني

الباب الاول

الحبشة والدول الإسلامية

١

أصبحت حدود الحبشة في هذه الفترة أكثر وضوحا ، وقد انفصلت النوبة عنها ، وهذا إلى حد ما كان يحدث من تنازع القبائل والشعوب على حدودها ، فأصبحت تحد من الشمال والشمال الغربي ببلاد النوبة والسودان المصري ، ومن الشمال والشمال الشرقي بأريتريا الإيطالية والسومال الفرنسي والسومال الإنجليزي ومن الجنوب بإفريقية الشرقية البريطانية ^(١) .

ولقد سائرنا تاريخ الدولة الأكسومية وعلاقتها بالعرب منذ قيامها حتى نهاية القرن السابع . والفترة التي بين نهاية القرن السابع وحول منتصف القرن الثالث عشر ، غامضة في تاريخ الحبشة ، لا نعرف عنها إلا النزر اليسير . ولم نسمع أن رحالة من المسلمين

جاسوا خلال هذه البلاد ، في تلك الفترة وظفروا بأخبار هامة عنها . وهذا هو السبب في أن الجغرافيين من العرب لم يتعرضوا لذكر شيء ذى غناء عن بلاد الحبشة ، فابن خردادبة واليعقوبى وابن رسته والمقدسى وغيرهم لم يذكروا من هذه البلاد إلا جرمى التى زعموا أنها حاضرة البلاد . وكان أول من ذكر ذلك الخوارزمى فى كتابه صورة الأرض . وفرق الخوارزمى فى كتابه بين مدينة جرمى الكبيرة وجرمى الواقعة فى بلاد الحبشة . ويقول المسعودى ^(١) إن بلاد الحبشة كثيرة ، ولكنه لا يذكر منها إلا مدينة كمبر ، ويزعم أنها عاصمة ملك الحبشة (لعلها أنكوبر أو أكسوم أو قلفغور ^(٢)). ويشير ياقوت والمسعودى إلى جزر الباضع ^(٣) (لعلها تحريف الناصع وهو الاسم القديم لمدينة مصوع ، ثم أطلق عليها هذا الاسم الأخير قبيل القرن الثالث عشر الميلادى). ويشيران إلى دهلك ، وهى مجموعة من الجزر تقع قبالة مصوع فى البحر الأحمر ، وكلها تقدم الزمن ، وجدنا أخبار المسلمين المؤرخين عن هذه البلاد تزداد وضوحاً وتفصيلاً ، وإن كانت تفتقر فى كثير من الأحيان إلى الدقة

(١) مروج الذهب - ٣ ص ٣٤

(٢) جويدي فى دائرة المعارف الإسلامية - Abyssinia

(٣) التنبيه ص ٣٣٠ والطبرى - ١ ص ٢٤٨٠ وما يليها

والصحة ، حتى إذا جاء القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر ، رأينا المؤرخين يذكرون أسماء بعض القبائل الحبشية مثل أمهرة (أمهرة) وسحرت (سهرت) وداموت وغيرها . على أن المقرئ هو أول مؤرخ عربي كتب كتابة صحيحة عن هذه البلاد وأخبارها في عصره (في القرن الخامس عشر) ، وذلك في رسالته التي سماها « الإلمام بمن في أرض الحبشة من ملوك الإسلام » ، وقد كتبها وهو بمكة عام ٨٣٩ هـ (١٤٣٤ - ١٤٣٥ م) .

وحول عام ١٥٤٣ م كتب المؤرخ العربي « عرب فقيه » كتابا مفصلا تحدث فيه عن غزوة أحد ملوك المسلمين (أحمد محمد جرائي) الذي كانت دولته تحتل جزءا من الساحل الإفريقي للبحر الأحمر ، ثم غزا بلاد الحبشة واستولى عليها فترة من الزمن . ولم تكن هذه الفترة (أعني التي بين القرنين السابع والثالث عشر الميلاديين) غامضة فيما ذكره مؤرخو العرب فحسب ، بل كانت كذلك في غيره من المصادر التاريخية ، والظاهر أن الدعاية اليهودية في تلك البلاد كانت قد آتت ما ترجوه من الثمار في هذه الفترة ، فقد عظم نفوذ اليهود وترك كثير من الناس الديانة المسيحية ، وزادت الحالة سوءا على سوء ، حتى كان النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، فوجد اليهود الفرصة سانحة لامتلاك ناصية الحكم في البلاد ، فقامت امرأة يهودية كانت مملكة على

الفلشة في منطقة شمين الواقعة شمالى الحبشة من جهة الشرق ، وهى منطقة نفوذ يهودى منذ عصور قديمة ، ويطلق على هذه المملكة يوديث ^(١) أو إستير ، وزحفت على رأس ثوار اليهود تساعدها جموع من قبيلة زاجوا (وهم فرع من الأجاو) وكانوا مسيحيين . ويذكر بعض المؤرخين العرب رسالة أرسلها ملك الحبشة إلى حورج مطران النوبة يسأله أن يستخدم نفوذه عند بطريق الإسكندرية لإرسال مطران للحبشة ، وتحدث الملك فيها عن ملكة غزت البلاد وأحرقت المدن وخربت الكنائس وطردت الملك من مكان إلى آخر . وقد أمكن لبعض الباحثين أن يستنتج من بعض نصوص هذه الرسالة أن الملكة اسمها حواء اليهودية ، وأنها تنتمى إلى قبيلة زاجوا الأجاوية ^(٢) ، واستولت على مملكة أكسوم ، وذبحت كل الثوار الذين كانوا يتحصنون فى قلعة دامو ونصبت نفسها ملكة على الحبشة ، وأنزلت بأكسوم الخراب والدمار وقضت على المسيحيين فيها ، ولكن الغريب فى الأمر أن خلفاءها الذين حكموا على هذه البلاد وقدموا من إقليم لاستا وكانوا يمتنون إليها بصلة القرابة ، إنما كانوا يدينون بالمسيحية ، ولكن مسيحياتهم

(١) يشك الباحثون فى تفاصيل هذه الرواية من الوجهة التاريخية (Budge, vol. 1, p. 214.) ويوديث لفظ عبرى معناه يهودية .

(٢) Budge, vol. 1 p. 215 .

كانت مختلفة عن المسيحية التي كان يدين بها الأكوميون من قبل اختلافاً كبيراً^(١) ، والظاهر أنه كان لفتوح العرب في البلاد المختلفة وتعاليم الإسلام التي نقلت لمحات منها إلى الحبشة هجرات المسلمين في عصر الرسول ، ووفود الحبشة إلى النبي ، وهؤلاء العرب المسلمون الذين كانوا يهاجرون إلى ساحل أريتريا والسومال ويستوطنون بعض مدنه ، ويتصلون باليهود لأسباب اقتصادية وسياسية ، كان من أثر ذلك كله أن عبرت بأذهان الأحباش أفكار خاطفة عن الإسلام ربما نهت أذهانهم ، ووجهتهم إلى أفكار جديدة يغذون بها المسيحية واليهودية ، وساعد على ذلك ما تصنعه الدعاية اليهودية في البلاد ، ثم ما نلاحظه من أن الأحباش ، كما يظهر ذلك كلما أمعنا في دراسة طبيعة هؤلاء القوم وتاريخهم ، لم يفهموا العقائد السماوية التي اعتنقوها على وجهها الصحيح ، وإنما أباحوا لأنفسهم أن يمزجوها بخرافاتهم ومعتقداتهم القديمة .

وقد قيل إن أحد عشر ملكاً (وقيل تسعة ملوك) حكموا ٣٤٣ عاماً بعد هذه الملكة ، أشهرهم لا ليلا بن جان شيوم (أى ابن الملك شيوم ، ويقال إنه حدث قحط شديد في مصر في عهد المستنصر بالله ومكث سبع سنوات (١٠٦٦ - ١٠٧٢ م) ، وكان

المستنصر بالله يعتقد أن الأحباش قد حولوا مجرى النيل ، فأدى ذلك إلى هذا القحط ، فأرسل سفارة إلى ملك الحبشة تحمل إليه هدايا ثمينة ، وتطلب إليه أن يعيد النيل إلى مجراه الأول (١) .

وقد ظلت أسرة زاجوا حاکمة على بلاد الحبشة حتى قام نزاع بينها وبين «يكونو أملاك» الذى زعم أنه سليل سليمان بن داود عليه السلام ، و انتهى النزاع ، بتوسط أحد رؤساء الأديار فى الحبشة ، باعتلاء يكونو أملاك عرش الحبشة سنة ١٢٧٠ م ، وبذلك عد هذا الملك مؤسس الدولة السلیمانية فى بلاد الحبشة أو معيد عرش الأسرة السلیمانية (إذا أخذنا بالأسطورة المعروفة) .

واتخذ «يكونو أملاك» عاصمته ، فى مرعدى بإقليم أمهرة ؛ وبهذا انتقلت حاضرة البلاد من أكسوم إلى أمهرة ، ولقب الملك منهم بالخطى ، وأصبحت اللغة الرسمية فى البلاد اللغة الأحرية (بدلاً من الجعز التى كانت قد ضاعت كالغة حديث وأصبحت لغة للكنيسة) . واللغة الأحرية لغة سامية كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وملوك هذه الدولة يدينون بالمسيحية ويتمسكون بالمذهب اليعقوبى القائل بأن المسيح ذو طبيعة واحدة . وقد عرف الأحباش بالتحمس الدينى . والسياسة ترتبط عندهم بالدين وبالثقافة ارتباطاً وثيقاً ، فلوك الحبشة يحملون ألقاباً مسيحية حين يجلسون على

العرش مثل جبر مسقل (أى عبد الصليب) وهو لقب لاليليا ،
ونأ كواتو لأب (أى شكراً للأب) ، ونواى كرسوس (أى
إناء المسيح) ، وبئيد مريم (أى بيد مريم) ، ولبنا دنجل (أى
بجور العذراء) الخ .

ودخلت المسيحية وحياة الأحباش أقرب إلى الفطرة
والهمجية فأدخلت معها كثيرا من الأفكار والنظم والأساليب
فى مختلف نواحي الحياة ، فهم - إلى حد ما - مدينون للمسيحية
حتى فى نظمهم السياسية الإدارية . ومن ثم كانت الصلة وثيقة
بين السياسة والدين عندهم . ولطران الحبشة ، المصرى الأعزل ،
أثر كبير فى التوجيه السياسى والإدارى وللدنى ، فإن له نفوذا
كبيراً فى هذه البلاد ، وعليه يعتمد ملوك الحبشة فى شئونهم
الدينية والسياسية . وكثيراً ما حاول المطارنة المصريون إصلاح
ما يجدونه متفشياً فى المجتمع الحبشى بما يمشى مع دينهم وعقائدهم ؛
فقد بذل المطران ساويرس فى محاربة تعدد الزوجات جهداً مشكوراً
تنفيذاً لأوامر البطريرك كيرلس^(١) . كذلك من الممكن أن يقال
إن الأدب الحبشى أدب كنسى مسيحى ، ظهرت بواكيره بظهور
المسيحية فى ترجمات الكتاب المقدس والكتب التى احتاج إليها
مسيحيو الأحباش فى أداء شعائهم الدينية .

(١) أبو صالح الأرمنى ص ٢١٠

لا شك أن هجرات العرب إلى سواحل أريتريا والسومال كانت مستمرة منذ عصور قديمة . والظاهر أن العرب كانوا قد تعودوا أن يجدوا في هذه السواحل ملجأ يفرون إليه ، ومنفذاً يفزعون إليه من ظروف الحياة القاسية التي قضت بها طبيعة بلادهم وأساليب الحياة فيها ، وكان العرب يجدون في هذا الساحل فرصاً كثيرة لكسب الرزق باحتراف التجارة وسائر المهن البحرية المختلفة . ولم تنقطع الهجرات إلى هذه السواحل حتى الوقت الحاضر ، حيث يحدثنا ليمان أن قبيلة عربية ، يقال لها الرشايدة هاجرت في العصر الحديث من بلاد العرب إلى الجانب الآخر من ساحل البحر الأحمر ، وأخذت تتأثر الطابع الإفريقي ، وتكلم لغة التيجري إلى جانب لغتها العربية ^(١) .

على أن ساحل السومال كان أثر إلى العرب من ساحل أريتريا ، لقرب الشقة بينه وبين بلادهم ، فهاجرت إليه جماعات عربية وكثر عدد المهاجرين منهم ، واشتدت شوكتهم فكونوا إمارات في المدن الساحلية . وكانت قبائل السومال ، سكان البلاد الأصليون ، يقيمون في الأجزاء الداخلية من هذا الساحل ، على حين كان العرب المهاجرون يستوطنون المناطق المشرقة عليه .

وأشهر هذه الامارات في هذه الفترة التي نورخها : إمارة عدل أو الزيلع ، وإمارة مقدشو . والأرجح أن يكون حكام هاتين الامارتين عربا تأقلبوا في البيئة السومالية ، لا أن يكونوا سوماليين تأثروا بالبيئة العربية .

وكان نشاط العرب عظيما فبلغوا الهند وما وراءها ، وكان من سكان السومال من هؤلاء العرب ، كما يظن ، جماعة انتقلوا إلى الهند الغربية واستوطنوا الأماكن الساحلية منها ، وعرفوا باسم (حبشى أو سيدى) ، وقد عرفهم المؤرخون في القرن الثالث عشر ، وذكروا أنهم كانوا يشتغلون جنوداً أو ملاحين . ولما تأسست دولة المغل في هندستان حوالي عام ١٥٢٦م كانوا قواداً للاسطول المغولى . كذلك كان زعماء جنجيرا وستشين ينحدرون من أصل حبشى^(١) .

ومن جهة أخرى وحت جموع من الهند إلى اليمن وسواحل إريتريا والسومال ؛ ويقال إن جنوداً من الهنود ، زحفوا إلى جزيرة العرب في القرن الحادى عشر الميلادى وأخضعوا الشعوب العربية التي في طريقهم ، وعبروا إلى ساحل إفريقية ، واستوطنوا هناك . وقد وجد بعض ضباط الإنكليز الذين كانوا يشتغلون برسم خريطة للسومال بعض آثار المعابد الهندية ، كما أن العلماء

المختصين فى اللغات وجدوا مشابهة عظيمة بين لغة هؤلاء السوماليين وبين لغة الدكن (١) .

ويقال إن أمير مسقط امتنع من أداء الجزية لهؤلاء الهنود فجمع جيشا ، واجتاز إلى ساحل السومال ، واحتل مناطق من تلك البلاد ، بعد أن خرب كثيرا من المعالم والمعابد الوثنية وقلب بعض المعابد إلى مساجد (٢) .

والظاهر أن هجرات العرب أخذت تزداد بمضى الزمن بحكم تلك العلاقات السياسية والدينية والاقتصادية التى سنوردها تفصيلا فى الأبواب التالية . والمعروف أن القبائل كانت حتى القرن العاشر الميلادى محدودة ، ثم كثر عدد المهاجرين ، فكونوا تلك الإمارات .

أما مقدشو ، فهى مدينة فى إفريقية الشرقية على ساحل المحيط الهندى ، وهى عاصمة السومال الإيطالى الآن ، عرفت إمارتها العربية فى القرن العاشر الميلادى ، وكانت هجرات العرب إليها كثيرة متعاقبة ، وأشهر هذه الهجرات تلك التى قدمت من الأحساء التى تقع على الخليج الفارسى ، فى خلال الصراع الدموى الذى كان قائما بين الخلافة والقرامطة .

(١) رحلة صادق باشا ص ٤٧ - ٤٨ .

(٢) نفس المرجع والصفحة

وتحالف المهاجرون مع قبائل السومال التي كانت تحيط بمقدشو على أن يكونوا يداً واحدة على الغزاة الآتين من البحر. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر أسس أبو بكر بن فخر الدين سلطنة وراثية في مقدشو بمساعدة أقوى العشائر العربية السومالية، عشائر المقرى التي تزعم أنها قحطانية النسب، وفي سنة ١٣٣١ م زار ابن بطوطة سلطان مقدشو (ويلقبه رعاياه بالشيخ) واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر، وكان من أسرة فخر الدين « وكلامه بالمقدشى، ويعرف اللسان العربى (١) » .

وفي ظل هذه الأسرة، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ازدهرت هذه الإمارة وبلغت أوج عظمتها. وقد هاجمها فاسكودا جاما في ١٤٩٩ م، وهاجمها غيره من البرتغاليين. وفي القرن السادس عشر تولت أسرة المظفر أمر مقدشو. ومنذ ذلك الحين أخذت قبائل السومال الداخلية تغير على هذه الدولة حتى اضعفت من شوكتها. وفي أوائل القرن الثامن عشر احتلت جنود إمام عمان، سيف بن سلطان، مدينة مقدشو، ولكنه بعد قليل من الزمن أمر جنوده بأن يعودوا إلى بلادهم. وفي هذه الأثناء كانت سلطنة مقدشو قد انهارت تماماً.

(١) ابن بطوطة ج ١ ص ١٦٠ .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي سمعنا عن إمارة عربية أخرى ، قامت في زيلع ، ويسمى ملوكها بملوك عدل ، أو ملوك الزيلع . وهي عبارة عن سبع إمارات صغيرة ذكرها المقریزی^(١) ، وقد كانت هذه الإمارات هدف ملوك الحبشة وقتا طويلا ، فقامت حروب دامية بينهم لأسباب سنذكرها بعد .

وقد أدى تأسيس هذه الدولة وغيرها على سواحل البحر الأحمر إلى فصل بعض الأراضي الساحلية عن المملكة الحبشية^(٢) . ويقال إن مؤسس الأسرة السلیمانية في الحبشة « يكونو أملاك » (١٢٧٠ -- ١٢٨٥ م) ، اضطهد ملوك عدل وحاربهم ، وكذلك فعل عمد صيون (١٣١٤ - ١٣٤٢ م) وقضى على دولتهم . ولكن المسلمين المنتشرين على الساحل لم تضعف عزيمتهم ، فنهضوا مرة أخرى حتى أصبحوا قوة لا يستهان بها في زمن المقریزی وعرب فقيه المؤرخين العربيين . قال المقریزی : « وكان أول قيام هذه الدولة أن قوما من قریش قدموا من الحجاز ونزلوا أرض جبرت

(١) تقع عدل في أقصى حدود هذه الإمارات السبع الشرقية . ولعلها هي التي يطلق عليها الآن ساحل السومال الفرنسي ، ويتألف سكانها من قبائل السومال وقبيلة عفر (دناكل) العربية الأصل . والخلط ظاهر بين المؤرخين ، بين زيلع وعدل ، ولعلهما لفظان مترادفان ، وربما كان ملوكهما من أسرة واحدة .

وهي أراضى الزيلع ، واستوطنوها وأقاموا بمدينة أوفات ، وعرفت جماعة منهم بالخير ، واشتهروا بالصلاح ، إلى أن كان منهم عمر الذى يقال له ولشمع ، ولأه الحطى (لقب ملك الحبشة وهي تقابل كلمة النجاشى فى العصور الأولى) مدينة أوفات وأعمالها، فحكم بهامدة طويلة . ومات وترك أربعة أولاد أو خمسة ملكوا أوفات من بعده واحداً بعد الآخر ، وتوفى آخرهم صبر الدين فى حدود ٥٧٠٠ هـ ، (١) .

وقد ذكر المقرئى فى الإلمام اثنى عشر إقليماً من أقاليم الحبشة وذكّر أن لكل إقليم ملكاً ، وكلها خاضع للحطى ، وتحت يده تسعة وتسعون ملكاً ، هو تمام المائة ، إلا أن بلادهم غير مشهورة عندنا (٢) . ومن هذه الأقاليم ما يسمى إقليم الطراز الإسلامى أو إقليم الزيلع هذا (والزيلع إنما هى قرية من قرى هذا الإقليم وغلب عليه اسمها) وإنما سمي الطراز لمخازنه لساحل البحر ، وهو عبارة عن سبع إمارات لكل منها ملك مسلم ، وكل من هؤلاء الملوك يدين للحطى بالطاعة . فالإقليم الأول أوفات (إفات) ويطلق

(١) الإلمام ص ٢٠

(٢) المرجع نفسه ص ٤

عليها جبرت ^(١) ، وهو شرقي شوا ؛ ومن مضافاتها زيلع وهي
 فرضة من فرض هذه البلاد وأهلها مسلمون ، وغالب أهلها شافعية ،
 وفي عهد المقریزی كثر فيها الخفية ، وأهلها يتكلمون الحبشية
 والعربية كذلك ^(٢) . ويدخل في هذا الإقليم منطقة شوا وعاصمتها
 أنسكوبر ، وإقليم دوارو وكان يقع جنوبي أوفات ؛ وإقليم أرايینی
 (وقيل أرايینی التي تقع في الشمال الشرقي من بحيرة صانا) ؛
 وإقليم شرخا أو شرخا ويقع غربي أوفات وربما كان هو ساركا
 الواقعة في إقليم جوجام جنوبي بلاد الحبشة ^(٣) ، وإقليم هدية
 ويقع جنوب أوفات ، وصاحبة أقوى إخوانه من ملوك هذه
 الممالك السبع وأكثر خيلا ورجالا . وإليها تجلب الخدام من
 البلاد ، فيذهب بهم إلى قرية قريبة منها يقال لها وشلو ، أهلها
 همج ، لادين عندهم ، حيث يخلصون ، وبعد الخضاء ينقلون إلى
 هدية ليعالجوا فيها . وتجري عملية الخضاء خفية ، لأن ملك أمهرة
 — فيما يقال — كان يمنع خضاء العبيد وينسکر ذلك ويشدد فيه .
 ثم الإقليمان بالی ودارة ، ويقع الأخير في الجنوب الغربي
 من بحيرة صانا .

(١) كلمة حبشية (أجبرت) بمعنى عباد (اقه) وهي جمع مفرد لها جبر أى
 عبد والنسبة اليها جبرتي . (٢) إلزام ص ١١

(٣) Budge, vol. 1, p. 298

وأكثر ملوك هذه الممالك يأخذون الملك بالوراثه ، ومع ذلك فلا يستقل منهم أحد بملك إلا من أقامه سلطان أحره ، وإذا مات منهم ملك ، ومن أهله رجال ، قصدوا جميعهم سلطان أحره وتقربوا إليه جهد الطاقة ، فيختار منهم رجلا يوليه ، فإذا ولاء سمع البقية له وأطاعوا ^(١) . وكان صاحب أوفات أكبرهم مكانة وكان هذا الإقليم أسبقهم إلى تكوين دولة إسلامية ، لهذا فكلهم متفقون على تعظيم صاحب أوفات منقادون إليه . وكل ملوك هذه الأقاليم يؤدون للملك أحره قطائع مقررة تحمل إليه في كل سنة ، من القماش الحرير والكتان مما يجلب إليهم من مصر والبحرين والعراق ^(٢) ، إلا أن أهالي هدية قد درجوا على أداء جزية أخرى له ، وهي إعطاؤه في كل سنة بنتا من بناتهم المسلمات ينصرها الخطي لنفسه ، وقد جرت هذه العادة في بلدهم ، بمقتضى معاهدة كان ملك الحبشة يحكم دائما بها كما حكم عليهم ألا يلبسوا عدة الحرب ، ولا يمسكوا السيف ولا يركبوا خيولهم مسرجة قالوا : « وحكم علينا . . ونطيعه مخافة أن يقتلنا ويخرب مساجدنا ، وإذا أرسل إلينا الذى يتقبل البنت والمال ، أخرجنا له البنت على

(١) صبح الاعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(٢) نفس المرجع والصفحة .

السريـر ، ونغسلها ، ونكفنها بثوب ، ونصلى عليها ، ونحسب أنها مـيتة ، ونعطيها له ، فإننا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك ^(١) ، ومع أن ملوك هذه الأقاليم كانوا يدينون بالإسلام إلا أن كلمتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة ^(٢) . والظاهر أنه كان بينهم شيء من التنافس في إظهار الطاعة لملك أمـهرة ، وكانوا مهرة في التجارة التي درت عليهم بعض الغنى والثروة .

وقد جرت عادة ملوكهم أن يعصبوا رؤوسهم بعصابة من حرير تدور بدائر الرأس ويبقى وسط الرأس مكشوفاً ، أما أمراؤهم وجنودهم فيعصبون رؤوسهم بعصائب من قطن ، والفقهاء يلبسون العمامـم ، والعامة يلبسون كوافي بيضا طاقيات ، والسلطان والجند يتزرون بثياب غير مخيطة يشد وسطها بثوب ويتزر بأخر ، ويلبسون مع ذلك سراويلات . ولهم عادات وشعائر مدونة في الكتب العربية ^(٣) .

والمعروف أنه كانت هناك ولاية عربية أخرى بجذاء الساحل الإفريقي ، يقال لها « دهلك » ، وهي مجموعة من الجزائر تقع في البحر الأحمر قبالة مصوع ، وكان يحكمها ملك مسلم يدين للحطى بالطاعة ، ويدارى صاحب اليمن .

(١) عرب فقيه ص ٢٧٥ — ٢٧٦

(٢) صبح الاعشى ج ٥ ص ٣٢٢

(٣) المرجع نفسه ص ٢٣٣ — ٢٣٤

نشأت علاقات بين مصر والحبشة منذ دخول الأخيرة في المسيحية . . وازدادت هذه العلاقات ، منذ القرن الثالث عشر الميلادي توطداً وقوة ؛ وأصبحت مصر قبله مسيحي الحبشة ومتجه أنظارهم . وفي عصور متأخرة تصبح مصر قبله مسلمي الحبشة كذلك ، يعمون شطرها الدراسة الديانة الإسلامية والثقافة العربية في معاهدها الدينية . والواقع أن مصر في هذه العهود قد تبوأَت في علاقتها مع الأحباش مكانة اليمين في العهد الغابر ، وكما رأينا أن علاقة الحبش باليمن في العهد السابق كانت ودية أحياناً ، وعدائية أحياناً أخرى ، فكذلك نجد علاقتهم بمصر في هذه الفترة ، تسوء تارة وتحسن تارة أخرى . وكما أنتجت هذه العلاقات آثاراً في كل من الفريقين كما رأينا في الفترة السابقة فكذلك أنتجت بين الحبش والدول العربية عامة ، ومصر بوجه خاص ، آثاراً سياسية واقتصادية ودينية واجتماعية وثقافية ، تأثر بها كل من المسيحيين والمسلمين على السواء .

في هذه الفترة ، لم تكن علاقة الحبشة باليمن على ذلك النحو من القوة الذي رأيناه في العهود السابقة . ولما كانت الحبشة في هذه العصور المتأخرة قد سيطرت عليها الروح المسيحية ، واصطبغت حضارتها بصبغة مسيحية واضحة ، كان طبعاً أن تتجه اتجاهها كلياً إلى مصر ، صاحبة الفضل الأول في تحويلها

إلى المسيحية ، ومصدر رؤسائها الروخانيين ؛ بذلك أنشغلت الحبشة إلى حد ما عن اليمن التي كانت في ذلك الحين دولة إسلامية ، لا يعنى الحبشة من أمرها إلا بقدر ما يعينها من أمر أية دولة مجاورة أخرى . ثم إن هناك أمراً آخر شغل الحبشة نسياً عن اليمن ، ذلك هو تكوين إمارات الطراز الإسلامى على ساحل البحر الأحمر ، وهى كما رأيت ، إمارات عربية كان بينها وبين الحبشة علاقات قليلة ودى ، وأكثرها عدائى ، فكانت هذه الإمارات تمثل الدولة العربية القديمة ، دولة حمير ، فيما كان بينها وبين الحبشة من صلات . فوجه الأحباش إليها حملاتهم كما كانوا يوجهون حملاتهم قديماً على حمير ، ونظروا إليهم على أنهم عرب مناوئون كما كانوا ينظرون تماماً إلى اليمن فى العهود السابقة .

لهذه الأسباب انشغلت الحبشة إلى حد ما عن اليمن ووجدنا اليمن تعيش فى عهد الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ) (١٢٢٩ - ١٢٥٤ م) وفى عهد الدولة الطاهرية (٨٥٠ - ٩٢٣ هـ) (١٤٤٦ - ١٥١٧ م) فى هدوء شامل لا يكدر صفوها مكدر ، وتنشط فى هذين العهدين روح العلم والدراسات الدينية .

وفى الوقت الذى نجد فيه علاقة اليمن ببلاد الحبشة الداخلية محدودة قليلة ، نرى العلاقة بينها وبين الإمارات العربية السومالية قوية . وهذا أمر طبعى دعا إليه الجوار واتفاق مؤسسى

هذه الإمارات مع اليمن في الجنس العام والدين واللغة . ولا شك أنه كان لدعاة العرب أثر كبير — كما سنرى — في نشر الدعوة الإسلامية في هذه البقاع الساحلية . ثم تلك الصلات التجارية التي ازدهرت بين الساحلين منذ أقدم العصور ، لاسيما تجارة الرقيق التي كانت مزدهرة في مدينة هدية ، إحدى الإمارات السبع الإسلامية . أضف إلى ذلك تلك العلاقات السياسية التي نشأت بين الساحلين . فقد أغارت إمارة عمان على ساحل البحر الأحمر ، أكثر من مرة ، كما أنها تمكنت من احتلال ولاية مقدشو فترة من الزمن كما رأينا . ولا شك أن ملوك اليمن كانوا يتطلعون إلى نفوذ في الإمارات الزيلع كذلك . ويروى أن بعض ملوك اليمن كان قد أراد بناء جامع ، في زيلع ، فأرسل من عدن ما يلزم من الحجارة وجميع الأدوات ، فأخذ بعض قبائل الزيلع الحجارة ، ورمى بها في البحر ، ولما علم صاحب اليمن بذلك ، عوق مراكبهم في عدن مدة سنة (١) . ●

ومع ذلك كان ملوك الزيلع ، إذا أحسوا اضطهادا من جانب جيرانهم المسيحيين ، يفرون إلى ملوك اليمن ، فيجدون منهم إيواء وترحيبا . من ذلك ما فعله أولاد أحد ملوك الزيلع ، سعد الدين

حين فروا إلى بر العرب خوفاً من تحرش الحبشة ، فأكرمهم الملك
الناصر احمد بن الأشرف إسماعيل ملك اليمن ، وأنزلهم ثم جهزهم
وقادهم ستة أفراس ، فخرجوا ، ولحقت بهم عساكر أيهم ،
وزحفوا لقتال ملك الحبشة ^(١) . ويقال إن سلطان جزر دهلك
الواقعة في البحر الأحمر قبالة مصوع كان يدارى سلطان
اليمن ^(٢) .

على أنه كان هناك بعض علاقات بين ملوك الحبشة المسيحيين
وملوك اليمن ، تجارية وسياسية ودينية . وكثيراً ما لجأ ملوك
الحبشة إلى ملوك اليمن ، يوسطونهم لدى سلاطين مصر في أمر
إرسال مطارنة مصريين أو إصلاح ذات بين . وفي عهد أحد
ملوك الحبشة النصارى (فاسيلداس) أرسل هذا الملك إلى إمام
صنعاء ١٠٥٢ هـ (١٦٤٨ م) كتاباً ومعه هدية من الرقيق والزباد
وسلاح الحبشة ، وطلب في كتابه استدعاء رجل يصل إليه من
خاصة الإمام ليدخل في الإسلام على يديه ، ثم عاود الملك الحبشى
إمام اليمن ١٠٥٧ هـ بكتاب آخر وهدية أخرى ، واستعجل الرجل
المطلوب . فقرر الإمام إرسال الحسن بن أحمد الخيمى إليه في
طائفة من أصحابه ^(٣) وقد وصف الخيمى رحلته إلى الحبشة في

(١) المام ص ٢٣

(٢) صبح الاعني ص ٥٠ ص ٢٣٥ - ٢٣٦

(٣) الخيمى ص ١ - ٤

رسالة نشرها Peiser في برلين ١٨٩٤ ؛ ولكن البعثة لم تصادف نجاحاً في مهمتها .

والعنصر الحبشى ، على وجه الإجمال ، منبث إلى اليوم في أنحاء الجزيرة العربية ، وفي اليمن بوجه خاص . وقد أثبتت الأبحاث الحديثة التي قام بها المبعوثون إلى اليمن من العلماء والباحثين أثر العناصر الإفريقية بوجه عام في هذه البلاد . كما يلاحظ داوتى Doughty في رحلته إلى بلاد العرب أن الجنس الأفريقى كان منتشراً في كل مدينة وكل قبيلة ، سواء منه العبيد والاماء والأسر السوداء الحرة ^(١) .

وقد ظل السكان الذين يقيمون على حدود الحبشة الشمالية والشمالية الغربية على دياناتهم القديمة حتى أخذ الإسلام في الانتشار بين أهالى السودان في القرن الحادى عشر الميلادى ، وبين أهالى النوبة في القرن الرابع عشر الميلادى . وكان في جنوب بلاد النوبة في القرن السادس عشر الميلادى ولاية تسكنها قبائل البلو الإسلامية ، وكانت حداً فاصلاً بين النوبة وبلاد الحبشة . ولكنهم على رغم ديانتهم الإسلامية كانوا يدفعون الجزية لملك الحبشة المسيحى (كما كان الحال في إمارات الطراز الإسلامى) . وإذا صح أن هؤلاء البلو هم البليون الذين

تحدث عنهم الإدريسي في القرن الثاني عشر وعدهم من النصارى
اليعاقبة، وقرن اسمهم باسم قبائل البجة الذين كانوا يقطنون بجوارهم
(والبجة هم أهالى المنطقة التى يسمونها جزيرة مرو) فمن الجائز
أنهم لم يقضوا إلا أعواما قليلة قبل أن يتحولوا إلى الإسلام ،
وفى ذلك الحين أسلمت قبائل البجة الذين كانوا قد اندمجوا فى
دولة الفونج (١) الإسلامية عندما كان هؤلاء الفونج يوسعون
نطاق فتوحاتهم من سنة ١٤٩٩ - ١٥٣٠ من الجنوب حتى حدود
بلاد النوبة والحبشة وأسسوا ولاية سنار القوية (٢) .

وعندما غزت جيوش أحمد جرانى (أحد ملوك الطراز
الإسلامى) بلاد الحبشة ، وشقت طريقها فى البلاد من الجنوب
إلى الشمال ، عقدت اتصالا حول سنة ١٥٣٤ بجيش سلطان

(١) تزعم قبائل الفونج الرنحية أنها من سلائل بنى أمية الذين هاجروا
الى السودان فرارا من اضطهاد الباسيين لهم فى القرن الثامن الميلادى .
وقد اتحدت قبائل الفونج مع عرب جهينة الذين استقروا ببلاد البجة وشمالى
النوبة منذ القرن التاسع الميلادى وأطبقوا على مملكة علوه المسيحية جنوبا
وخربوها وأسسوا مملكة الفونج ٩١٠ هـ (١٥٠٥ م) وعاصمتها سنار
(حامد عمار ص ٨٠) .

مسيجيا أو مزجة ^(١) Maseggia or Mazaga ، وهذه ولاية كانت خاضعة لحكومة إسلامية ، ولكنها كانت تدفع الجزية لملوك الحبشة . وتقع هذه الولاية في الوسط بين الحبشة وسنار . وكان في جيش هذا السلطان ١٥ ألف جندي من النوبيين . والظاهر أنهم كانوا يعتقدون الدين الإسلامي ^(٢) .

(١) مزجة مقاطعة يسكنها قبائل من التيجري وتقع في شمال نكازم
وغربي سيراى . (Budge, vol ii, p, 348.)
(٢) Arnold, p.113.

الباب الثانى

الحبشة والتعصب الدينى

١

جرت العادة ، حين كان يريد ملك الحبشة مطرانا لبلاده من مصر ، أن يرسل رسالتين : إحداهما إلى صاحب الأمر فى مصر ، والأخرى إلى بطريق الإسكندرية ، ومع الأولى هدايا من العبيد والمسك والعاج ترسل إلى الوالى أو السلطان ، ومع رسالة البطريق مبلغ كبير من المال يقدمه الأحباش إلى البطريق . حينئذ يلتبس البطريق الإذن من الوالى أو السلطان للعمل على إرسال المطران ، ويقوم برسامة أحد الرهبان الذين يتوسم فيهم الصلاحية مطرانا للحبشة . وفى القرن العاشر الميلادى ، أى فى أواخر عهد الملكة حواء اليهودية ، أرسل بعض ملوك الحبشة يطلب توسيط أحد مطارنة سورية لدى بطريق الإسكندرية لإرسال مطران للحبشة (١) .

كان بين الأحباش والقبط علاقات مودة وإخلاص ،

وكثيراً ما كان يهاجر الأقباط إلى الحبشة حين يحسون من الوالى طلباً وعتناً ، حدث هذا فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ، كإحداث فى أوائل القرن الثالث عشر أن لجأ عدد كبير من الأقباط إلى ملك الحبشة ، لاليللا ، على أثر ما أنزله بهم السلطان الكامل ناصر الدين الأيوبي من اضطهاد فى الوقت الذى كان الصليبيون يحاصرون فيه مدينة دمياط سنة ٦١٦ هـ . ولا شك أن هؤلاء الفارين قد بثوا شكواهم إلى ملك الحبشة وطلبوا حمايتهم من السلطان الأيوبي . وكانت الحروب الصليبية فى ذلك الحين فى أواخر عهدها ، وكانت بلاد الحبشة على معرفة تامة بذلك الشعوب التعصبى الذى ساد أوروبا والشرق فى ذلك الحين ، بل من المحقق أن الحبشة قد مثلت دوراً هاماً فى تلك الأفكار الصليبية التى شاعت فى ذلك الحين .

أصبح شعور التجمع الدينى فى ذلك الحين أشد ما يكون تنبها وإرهاقاً ، وخلق هذا الشعور فى نفوس المسيحيين فى أنحاء العالم كثيراً من الأمانى والخاوف ، نراها تمثلت فى قصص وأساطير لا تزال معروفة للآن فى الشرق والغرب . ومن بين تلك الأساطير التى كان لها أثر فى العصور الوسطى فى العالم المسيحى عامة وفى الحبشة بوجه خاص ، أسطورة القسيس يوحنا وتأسيس إمبراطورية مسيحية تحت زعامته ، وهى قصة خيالية حاكها

المسيحيون ليمثلوا فيها أمانهم وأحلامهم : هذه الإمبراطورية يسكنها أشخاص خرافيون ، ورجال عيونهم فى صدورهم ، وهى مهد بعض الحيوانات والزواحف المخيفة المفزعة التى لا تعيش إلا على لحوم الآدميين ، والمخلوقات العجيبة التى تتركب أجسامها من رؤوس الطيور ذات الأجنحة وأجسام الحيوان ، ومخالب الوحوش ، ولها ذبول من الأفاعى الحية ؛ يحكم هذه الإمبراطورية حاكم مسيحي يعرف باسم القسيس يوحنا . ويقال إن نواة هذه الأسطورة قصة بطريق من بطارقة الهند ، زار رومة فى الربع الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، وقص حكايات عجيبة من كرامات القديس توما الذى كان أول من نشر المسيحية بين نصارى الملابار فى الهند . فلم يكدينقضى القرن الثانى عشر حتى رفعت الإشاعات الشعبية هذا البطريق الى مرتبة ملك ، ونسبت إليه فتوحاً عظيمة هائلة ، كما نسبت اليه قوى روحية فوق طاقة البشر . ولما كان الجغرافيون القدماء ينظرون إلى إثيوبيا على أنها الجانب الغربى من إمبراطورية الهند العظمى ، فقد اعتقدوا فى أوائل القرن الثالث عشر أن مملكة القسيس يوحنا هى إثيوبيا التى تدخل فيها بلاد الحبشة . وربما كان هذا راجعاً الى تلك الرسالة التى تلقاها الملك عمانوئيل من القديس يونس (يوحنا) فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، يقول فيها إن لديه ٧٢ ملكاً يأترون

بأمره ، وأنه بعيش في قصر استمدطرازه من توما الرسول ، وبلاده
تنتج الذهب والأحجار الكريمة والتوابل وغيرها ، وفيها من
الآعاجيب الكثيرة التي لا تحصى ، ساقية الحياة التي تهب الشباب
الأبدى لمن يستحم فيها ، وأنه يفتخر بأنه مدين بملكه لقوة الله
والسيد يسوع المسيح ، وأن كل أمنيته في الحياة أن يمكن الناس
من الحج إلى بيت المقدس ، وأن يستخدم جيوشه الجرارة في قتال
أعداء الصليب . وفي منتصف القرن الرابع عشر اتجهت الأنظار
إلى إثيوبيا ، واعتقد أنها مملكة القسيس يوحنا على وجه التحديد .
وكان من ملوك أوروبا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر
من تطلع إلى معرفة حقيقة هذه المملكة التي شاع أمرها وتحدث
عنها الرواة ، فأرسل ملك البرتغال سفارة إلى بلاد الحبشة لهذا
الغرض (١) .

وهكذا استقرت في الحبشة بعض الأفكار الصليبية في نهاية
القرن الثاني عشر ، حيث يريد القديس يونس أن يقضى على أعداء
المسيح بجيوشه الجرارة ، وأن يمكن للأجباش من الحج إلى بيت
المقدس . وكان في بيت المقدس دير يعدنواة للأجباش يقيمون
فيه ، وهو دير عرف باسمهم ، يرجح أنه ظهر إبان الحروب الصليبية .

وقد شمله صلاح الدين بعطفه وسماحته عندما دخل بيت المقدس سنة ١١٨٧م ، وأطلق عليه اسم دار السلطان ، وله رئيس يعرف باسم (مهر) أى المعلم يعينه ملك الحبشة . وكان لوجود هذا الدير الحبشى ببيت المقدس أهمية من حيث علاقة الحبشة بالحروب الصليبية ، لأنه كان الوسيلة لإيصال أبناء الصليبيين تباعاً إلى الأحباش (١) .

ولما وقعت الحروب الصليبية ، وسفكت دماء الملايين من البشر بسبب التعصب الدينى ، وتنبه العالم المسيحى على أثر هذه المجازر البشرية ، انقسم المسيحيون فى أوربا إلى فريقين : فريق رأى إحياء فكرة الحروب الصليبية وتمهيد السبيل للقيام بحرب صليبية أخرى ، وفريق آخر من الدعاة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، لم يرغبوا فى اللجوء إلى الحرب ولم يؤثروا اتخاذ سبل العنف والقوة لتنفيذ أغراضهم الصليبية . وقد رجحت كفة الفريق الثانى وساعدته الظروف السياسية والدينية فى ذلك الحين . أما فى الحبشة فقد تظاهرت الأسباب على مضاعفة شعور التعصب الدينى فى نفوسهم ، فى الوقت الذى فكر فيه الأوربيون بالانصراف عن وسائل العنف وإراقة الدماء . فلم يأت النصف

الثاني من القرن الثالث عشر حتى وجدنا الحبشة ملجأً للهاربين من القبط الذين كانوا يعقدون عليها آمالهم في حمايتهم وإيقاف مضطهديهم عند حدهم ؛ ووجدنا الحبشة تظهر أمام نفسها وأمام العالم المسيحي بأنها مركز الإمبراطورية المسيحية التي سيلتف حولها المسيحيون وسيتحقق على يدي حاكمها القسيس يوحنا آمالهم وأحلامهم ؛ ووجدنا الحبشة تنشعب بفكرة الصليبيين ، وتتحين الفرص للاشتراك الفعلي في محاربة المسلمين ؛ ولكن بعد الشقة حال بينها وبين تحقيق هذه الأمنية ، فظلت هذه الرغبة مكبوتة في نفوسهم ، يغتمون لها الفرص للتعبير عنها في مناسبات كثيرة .

٣

اضطهد يكونو أملاك (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) حيرانه المسلمين من عرب الطراز ، وجند كل ما لديه من قوة لمهاجمتهم ، ولكنه تحمل خسارة جسيمة في تلك الحروب ، وخرب المسلمون جهات كثيرة من بلاده^(١) .

وكان الظاهر بيبرس قد أرسل رسلاً إلى ملك الحبشة فلم يتمكنوا من مقابلته لأنه كان منشغلاً في بعض الحروب . ولكن بيبرس تضايق من تأخير سفارته . وبلغ الخطي غضب بيبرس لذلك ،

وكان محتاجا إلى ترسيم مطران لبلاده ، فكان موقف الخطي يتطلب في ذلك الحين شيئا من مداراة السلطان واسترضائه ليأمر بإرسال المطران إليه . فأرسل اليه كتابا رقيقا سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) يظهر فيه الخضوع والاستعطاف ؛ ولكنه لم يرسل كتابه إلى السلطان مباشرة بل وسط في الأمر صاحب اليمن ، وأرسل كتابه إليه ليوصله إلى السلطان . وهو يقول : « إن سلطان الحبشة قد قصد الملوك في إيصال كتابه إلى السلطان ، ويقول إن « أقل الممالك محر أملاك (وهي تحريف من يكونو أملاك) يقبل الأرض ، وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه ، أن رسولا وصل من جهة قوص بسبب الراهب الذي جاءنا ، فتحن ما جاءنا مطران (فإمر) مولانا السلطان ، ونحن عبيده ، فيرسم . . . للبترك يعمل لنا مطرانا يكون رجلا جيدا عالما لا يحب ذهبا ولا فضة ، يسيره إلى مدينة عوان^(١) فأقل الممالك (يعني نفسه) يسير إلى نواب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه وهو يسيره إلى أبواب السلطان . . وهو يعتذر عن تأخير رسل السلطان بقوله : « وما أخرت الرسل إلى الأبواب إلا أني كنت في ييكار (أى في حرب) . وعندي في عسكرى مائة ألف فارس من المسلمين وإنما ، النصارى فكثير

(١) على ساحل البحر الأحمر مقابل تهامة اليمن (صبح الأعشى - ٥

لا يعدوا كلهم غلمانك وتحت أوامرك ، والمطران الكبير يدعو لك ، وهذا الخلق كلهم يقولوا آمين ، وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسفرهم كما يحبوا . والرسول الذى حضر إلينا من جهة والى قوص مريض ، وبلادنا وخمة (أى من مرض بها) لا يقدر أحد أن يدخل إليه شيء ، ومن يدخل ويشم رائحته يمرض ويموت ، (١) .

وعلى الرغم مما أظهره يكونو أملاك من آيات الزلنى والاعتذار فقد رد عليه بيبرس رداً يشعر بأن ملك الحبشة قد خالف التقاليد المتبعة فى طلب المطران ، ثم قال فى رده : « أما ما ذكره (أى ملك الحبشة) من كثرة عساكره وأن من جملة ما مائة ألف فارس مسلمين فالله تعالى يكثر من عساكر المسلمين ، وأما وخم بلادهم فالآجال مقدرة من الله تعالى (٢) . » ويقال إن يكونو أملاك قد لجأ فى ذلك الحين الى سوريا فاستحضر لبلادهم مطرانا سوريا يقال له يوب . ومهما يكن ، فمن الواضح من رسالة يكونو أملاك ، ورد بيبرس عليها ، أن ملك الحبشة كان فى ذلك الحين يحاول التقرب إلى السلطان وتملقه ، كما نلاحظ أن رسالة الخطى مكتوبة بلغة عربية

(١) المفضل بن أبي الفضائل ص ٢١١ — ٢٢٢ وفيه أخطاء نحوية ولفوية
أوردنا ما كما هو .

(٢) نفسه ص ٢٢١ — ٢٢٢

سقيمة حافلة بالأخطاء ، وهى قريبة الشبه بلغة الأقباط فى ذلك الحين ، حيث بدأت الكنيسة القبطية تتخذ اللغة العربية لغة لكتبتها ووصلواتها ، ولا يبعد أن تكون هذه الرسالة مكتوبة بلغة بعض القبط المقيمين فى الحبشة ، أو ربما ترجمها من الحبشية إلى العربية بعض القبط فى مصر .

وفى الوقت الذى أرسل يكونو أملاك إلى بيبرس كتابا بهذه العبارات الرقيقة الخاضعة ، نجده يضطهد مسلى الطراز ، ويشب عليهم القتال .

ولما تولى بعده ياجبعاصيون (١٢٨٥-١٢٩٤م) أحب أن يؤكد لسلطان مصر حسن نيته نحوه ونحو المسلمين فى مملكته ، فأرسل إلى السلطان قلاوون رسالة ذكر فيها أنه سيتخذ سياسة غير التى اتخذها والده من قبل ، وأنه يذود عن حقوق المسلمين فى بلاده . ولم يستطع المطران السورى أن يقوم بأعباء الكنيسة الحبشية على الوجه المطلوب ، ونظر إليه الأحباش على أنه أجنبي عنهم وعن كنيستهم ، فعاد ياجبعاصيون يطلب مطرانا من مصر ، ويشكو من الشكوى من المطران السورى ، ثم وعد السلطان بارسال الهدايا والرقيق فى أقرب فرصة ممكنة . وقد استجاب قلاوون لطلبه وسمح بترسيم المطران وسفره .^(١)

(١) حامد عمار ص ٩٨ نقلا عن كاترمير

تطورت معاملة ملوك الحبشة لسلاطين مصر في القرن الرابع عشر، فأصبحت لغة رسائلهم إلى السلاطين شديدة اللهجة، وتجروا على تهديدهم، واشتدت العداوة بين الحبشة والمسلمين وخاصة جيرانهم من مسلمي الطراز. وكان من أثر اضطهاد ملوك الحبشة إياهم والاغارة عليهم، أن تبغ شعور التحمس الديني في نفوس جيرانهم المسلمين، وعدوا محاربة هؤلاء الأحباش المسيحيين جهادا في سبيل الله. ففي أوائل هذا القرن بدأوا سلسلة حروب دامية قام بها العرب في وجه الأحباش، تلك الحروب التي ظلت حوالى ثلاثة قرون، وأوشكت أن تقضى على الدولة الحبشية.

كان قد انتهى إلى عمد صيون (١٣١٤ - ١٣٤٤ م) أن الأقباط يلقون عنتا من المماليك في مصر، فأرسل إلى السلطان المملوكي في مصر، سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٥ م) رسلا مثلوا بين يدي السلطان في قلعة الجبل في يوم الاثنين ١٦ محرم، وكان مضمون رسالتهم من ملوكهم أنه بلغه أن كنائس النصارى غلقت وأن النصارى في ذلة وهوان، والتمس من السلطان الإحسان إليهم وفتح كنائسهم، وأنهم إذا لم يعاملوا بالإحسان عامل من بيلاده من المسلمين وما بها من المساجد كما يفعل بالنصارى

وكنائسهم في مصر؛ وذكروا عنه أنه قال إن نيل مصر الذي به قوام أمرها وصلاح أحوال ساكنيها، مجراه من بلادى، وأنا أسده. فضحك السلطان من كلامهم واستقل عقل رسلهم وعوملوا بغاية الاطراح والإهانة. (١)

وفي ذلك الحين، هاجم صبر الدين ملك أوفات بلاد الحبشة وقتل منها وأسرخلقا كثيرا، وخرب الكنائس أينما ذهب وأعلن بأنه سيدخل الحطى في الإسلام أو يقتله، وأنه سيجعل زوجة الحطى الملكة جان منجشة، تطحن له حبا لتصنع له خبزاً. فلما سمع الحطى بذلك، سير جيشا إلى هدية (أوحدية) وحاصر صبر الدين فهرب الأخير، ولكن الحطى أخذه أسيرا، وولى أخاه جمال الدين مكانه. وأعقب هذه المعركة معارك أخرى في عصر هذا الحطى انتصر فيها ملك الحبشة.

ولكن هذه الحروب قد جعلت مسلمى الطراز يفزعون إلى الأبواب السلطانية بمصر، فسعى الفقيه عبد الله الزيلعى لدى السلطان فى أن يستكتب البطريق رسالة إلى الحطى يطلب منه أن يكف أذيته عمن فى بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم، وصدرت المراسيم السلطانية للبطريق بكتابة ذلك، فكتب إليه كتابا بليغاً

(١) حامد عمار ص ١١١ نقلا عن النويرى

شافيا ، فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال وأنه حرم هذا على من يفعله بعبارات أجاد فيها ^(١) .

وفي عهد نوای كرسطوس سيف أرعد (١٣٤٤ - ١٣٧٢ م) حدث أن طلب سلطان مصر من بطريق الإسكندرية زيادة الضرائب المقررة على المسيحيين، فرفض البطريق، فزج به في السجن. فلما سمع بذلك سيف أرعد قبض على جميع التجار المصريين (الكارمية) في مملكته ، وبعث بفرسانه لطرده القوافل الآتية من القاهرة إلى خارج الحدود الحبشية . وبذلك أصاب التجار من مصر والحبشة الكساد والبوار ، سواء عن طريق البحر عن طريق البر. فشكا المصريون سوء الحالة مر الشكوى، ورموا السلطان بالشح. ولم يسع السلطان آخر الأمر إلا أن يطلق سراح البطريق وأن يرجوه في استخدام نفوذه لدى ملك الحبشة لكي يسمح بتسيير القوافل كما كانت ^(٢) . وكانت هذه محاولة إنجائية أخرى قام بها ملوك الحبشة لمناوأة سلاطين مصر . ومن المحاولات التي قام بها أولئك لإرهاب هؤلاء السلاطين ما حكاه ثيت من أن الجيش الحبشي أغار على أسوان في ١٣٨٢ م (٧٨٣ هـ) فتوسط البطريق في إنهاء تلك الأزمة ^(٣) . ولم يعد هؤلاء السلاطين منذ ذلك الحين، ينظرون

(١) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣

(٢) Budge, vol. 1, p. 299.

(٣) حامد مزار ص ١١٢ نقلا عن فيث

إلى هؤلاء الأجباش نظرة الاحتقار والسخرية ، بل بدأوا يقيمون لهم وزنا ويحسبون لهم حسابا .

كذلك قام سيف أرعد بنصيب في محاربة ملوك الطراز الإسلامى ؛ فقد حارب على بن صبر الدين وهزمه وقبض عليه ، وولى ابنه أحمد حزب أرعد ، ثم رضى عن على فأرجعه ، وأمر أن يتولى أحمد موضعا من أعمال جبرت . ثم قام حق الدين حفيد على بن صبر الدين بقتال سيف أرعد فى حروب مستمرة ، ومازال يحارب الخطى وعساكره ويأسر منهم إلى أن مات سيف أرعد ، وخلفه نواى مریم بن سيف أرعد . ووالى قتال حق الدين حتى مات الأخير ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ - ٥٥ م) . وقام من بعده أخوه سعد الدين أبو البركات محمد بن على بن صبر الدين ، فمضى على سيرة أخيه فى جهاد ملوك أحرمة . وفى إحدى الغزوات جرد الخطى عليه أميرا من أمرائه ، فلقبه سعد الدين بنفسه ومعه الفقهاء والفقراء والفلاحون وجميع أهل البلاد ، وقد تحالفوا جميعا على الموت ، فكانت بينهما وقعة شنيعة استشهد فيها من المشايخ الصالحاء ٤٠٠ شيخ ، كل شيخ منهم له عكاز ، وتحت يده من الفقراء السالكين عدد عظيم ؛ فاستمر القتال فى المسلمين حتى هلك أكثرهم وانكسر من بقى ^(١) . وهرب سعد الدين وتعقبه أهل

أحرقة حتى أدر كوه ، وقتلوه عام ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ - ٣ م) . وبعد موته ضعف المسلمون واستولى الخطي وقومه على البلاد .

وفي القرن الخامس عشر توترت العلاقات بين ملوك الحبشة وسلاطين مصر ؛ واشتد اضطهاد السلاطين للقبط وبطارقة الإسكندرية . ويظهر أن السلاطين قد أحسوا بأن هؤلاء يدا فيما ظهر به ملوك الحبشة من سلوك إزاء المسلمين في بلادهم ، وما وجهوه من تهديدات متكررة إلى سلاطين مصر . ويتضح ذلك مما ورد من أن السلطان كان قد استدعى البطريرق في عهد إسحاق الأول (١٤١٤ - ١٤٢٩ م) ليقبض عليه نظير ما لحق المسلمين في الحبشة من ذلة ومهانة ، فوبخه في مجمع من المشايخ والقضاة ، ولم يسمح له بالجلوس في حضرته ، وهدده بالقتل ، وانتدب له محتسب القاهرة صدر الدين أحمد بن العجمي ، واسمه المسكروه^(١) . ولما وجد السلطان برسباى مافعله إسحاق هذا في الحبشة من تنكيل بالمسلمين أصدر منشورا باضطهاد القبط وإغلاق كنيسة القيامة والقبض على البطريرق^(٢) . ويروى السخاوى أن في ٨٥٣ هـ (١٤٤٨ م) عقد مجلس بين يدي السلطان بالقضاة الأربعة وغيرهم . وكان السلطان غضب على البطريرق بحيث ضربه وحبسه في المقشرة ، وأخذ منه شيئا كثيرا ،

(١) حامد عمار ص ١١٢ نقلا عن المقرئ في السلوك

(٢) نفس المرجع والصفحة

فأمر بكتابة شهادة عليه ألا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله لا ظاهرا ولا باطنا، ولا يولى أحدا في بلاد الحبشة لا قسيسا ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابته، وأنه متى خالف ذلك انتقض عهده وضربت عنقه^(١). وأصبحت الحبشة ملجأ معروفا للمصريين المضطهدين^(٢). فقد شجع توتر العلاقة بين الدولتين كثيرين في مصر، من الأقباط وغيرهم، على الفرار إلى الحبشة، وخدمة ملوكها، وكثرت الشواهد التاريخية الدالة على هذه الظاهرة في عهد إسحاق هذا، فيذكر لنا المقرئ أن بعض المماليك الجراكسة في مصر قدم على إسحاق وأقام عنده، وعمل له (زرد خاناة) عظيمة تشتمل على آلات السلاح من السيوف والرماح والزرديات ونحو ذلك، كما قدم عليه أيضا الطنبغا، والى قوص هاربا من مصر، وكان عارفا بالشئون العسكرية، ملها باللعب بآلات الحرب والفروسية، فخطى عند الخطى، وعلم عساكره رمى النشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف، وعمل لهم النفط فعرفوا صناعات الحروب. وقدم عليه أيضا من قبض مصر نصرا في يعقوبى يعرف بفخر الدولة فرتب

(١) التبر المسبوك ص ٢١٠

(٢) وقيل إنه لما قتل مروان الحمار الأموى (١٣٢ هـ) أى في القرن الثامن الميلادى هرب عبد الله وعبيد الله ابنا مروان الى أرض الحبشة فقتلوا من الحبشة بلاء، وقتلتهم الحبشة فقتلوا عبد الله وأفلت عبيد الله في عدة ممن معه (الطبرى ٣ ص ٤٦).

له المملكة وجي له الأموال، فصار ملكا له سلطان وديوان، بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجا لا ديوان لها ولا ترتيب ولا قانون؛ فانضبطت عنده الأمور، وتميز زيه عن رعيته بالملابس الفاخرة، بعدما كان داود بن سيف أرعد يخرج عريانا وقد عصب رأسه بعصابة حمراء، فصار إسحاق يمر في موكب جليل بشارة الملك (١).

فلما تحضرت دولته وقويت شوكته عن له أن يواصل محاربة المسلمين التي بدأها خلفاؤه، فشب حروبا دامية على ملوك الطراز وصفها المقرئ بقوله: « فأوقع بمن تحت يده من ممالك الحبشة من المسلمين وقائع شنيعة طويلة، قتل فيها وسبي واسترق عالما لا يحصيه إلا خالقه سبحانه » (٢).

وكان من قاتل الخطي من ملوك الطراز جمال الدين محمد بن سعد الدين وكان يستعين في قتاله ملك الحبشة وغيره بقائده حرب جوش، الذي كان من أمراء الخطي، ثم أسلم في أيام سعد الدين، وقدم إليه فصار من أكابر الأمراء لقوته وشجاعته وكثرة أتباعه؛ فكان كثيرا ما يرسله لقتال البربر وبلاد بالي ودوارو. وقد أبل في هذه الحروب بلاء حسنا، فاكتسب ملوك الطراز بإسلام هذا القائد فوائد جمة، ودخلت بفضل جماعات من عمال الخطي

(١) اللام ٥ — ٧

(٢) نفسه ص ٨

وولاية أعماله في طاعة ملك المسلمين ، كما قتل وأسر من أحرّة
كثيرا مالا يدخل تحت حصر ، حتى امتلأت بلاد الهند واليمن
وهرمز والحجاز ومصر والشام والروم والعراق وفارس من
رقيق الحبشة . وفي إحدى غزواته أسر عددا عظيما من أحرّة ،
حتى صار يعطى لكل فقير ثلاثة رؤوس من الرقيق ، ومن كثرتهم
بيع الرأس من الرقيق بربطة ورق وبخاتم واحد ^(١) . وفي عهد
جمال الدين أسلم من أحرّة خلق كثير على يديه ، وعاصر من ملوك
الحبشة النصارى يسحاق السالف ذكره ، فابنه أندرياس ، فخر بنائى
بن داويت بن سيف أرعد ، فسلیمان بن يسحاق بن داويت .
وقتل جمال الدين عام ٨٣٥ هـ (١٤٣٩ م) ، وخلفه شهاب الدين
أحمد بدلاى وهو أخو جمال الدين ، وقد جرى على سنة أخيه فى
غزو أحرّة . وفتح من بلادهم عدة أعمال ، وقتل وسبى وغنم منهم ،
وكثر الأموال فى أيدي جماعته ، وحازوا من الوظائف مالا
يعد ، وخرب ست كنائس ، وعدة قرى ، واسترد إقليم بالى
من أيدي النصارى . وفى عام ٨٣٩ هـ (١٤٤٣ م) حدث وباء
عظيم ، مات فيه من المسلمين والنصارى عوالم كثيرة جدا وهلك
الحطى ^(٢) .

وكانت لدى يسحاق ملك الحبشة فكرة القيام بحرب صليبية

(١) الألام ٣٠

(٢) نفسه ص ٣٦

على دولة المماليك . فكتب إلى ملوك الإفرنج (١٤٢٨ م)
 « يحثهم على ملاقاته لإزالة دولة الإسلام ، وواعدهم على ذلك ،
 وأخذ في عهد ماينه وبين البلاد الإسلامية واستجلاب العربان
 إليه ^(١) ، وقد لبى ملوك أرغونة والبرتغال وفرنسا دعوة إسحاق
 ولكن المشروع لم ينفذ ، وتوفي إسحاق على أثر ذلك سنة ١٤٢٩ م .
 والظاهر أن زرع يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨ م) أراد أن
 يسلك مع سلطان مصر طريقا غير العنف والتهديد فيما يتعلق
 بمسألة اضطهاد القبط في مصر ؛ فأرسل إلى السلطان جقمق رسالة
 باللغة العربية ، ^(٢) ومع حاملها هدايا من الرقيق والجواري وطست
 وإبريق من ذهب وسيف منقط بذهب الخ . . وفيها يقول :
 « إنه قد اتصل إلينا جميل أخباركم ، وأنكم ، حفظكم الله تعالى ،
 أمرتم بإبطال المظالم من سائر المعالم ، وردعتم القوم الظالمين ،
 ورفعتم أسباب المضطربات من الرعايا بكل البلاد والأقاليم . . .
 ولما بلغ إلينا ما أتمتم عليه من الخير استنشقنا منه عرفا طيبا . . .
 وقصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا
 وبلادكم اتباعاً لآثارهم المشكورة ، وقصدنا إعلامكم ذلك بشارة

(١) الإلام ص ٨

(٢) نشرها السخاوي في التبرك المسبوق كاملة ص ٦٧ - ٧٧ ، ونورد

منها هنا مقتطفات

لكم ، ليكون ذلك مستمرا بلا انحراف ، والاتفاق بيننا وبينكم
بلا خلاف ، وآخر ذلك ما كان في أيام الشهيد الظاهر برقوق
ونجمله الناصر ، سقى الله عهدهما صيب الرحمة . . . وأنه كانوا
قائمين بالعدل خصوصا بإخوتنا النصارى متوصين ، . وقد عدد
زره يعقوب في هذه الرسالة المسائل التى يشكو منها الأقباط
من تصرفات وجهت ضدهم أو ظلم وقع عليهم ، وهو فى الرسالة
يتحدث عن لسانهم ويحامى عن حقوقهم ، فيقول مثلا : « ثم بلغنا
أيضا أن ثم من يتعرض إليهم فى كنائسهم فى أوقات صلاتهم
وفى أيام أعيادهم ، بقطع مصانعاتهم ، وأخذ ما لا يستحقون أخذه ،
وأنهم فى غاية للضييق من ذلك ، وأتم ، حفظكم الله ، ليس يخفى
عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ، ونحن لهم
ولملوكهم مالكون ، ولم نزل نحسن إليهم كل وقت وحين ، ، كما
طلب » أن يصدر السلطان أمره للجوش بعمارة قبر مريم عليها
السلام . ونحن مقيمون على العهد القديم من أيام أجدادنا وآبائنا
من إقامة جوامعكم ومساجدكم وأذانهم ، وأتم أيضا تأمرون بالنداء
ألا يقول أحد للنصرانى يا كلب ، فإن الله مقسم الأديان ،
ويعاقب كل أحد على قدر ذنبه ، وأما نحن فنقول للشريف ياشريف
وللقاضى ياقاضى وللشيخ ياشيخ . .

وفى الوقت الذى قال فيه زره يعقوب هذا الكلام نراه يضطهد

مسلى الطراز ويشب عليهم حربا دامية ، يقتل فيها ويأسر منهم خلقا لا يحصى . وكان ملك المسلمين فى عصره شهاب الدين بن سعد الدين ، قتله زره يعقوب . وقد رد السلطان جقمق على زره يعقوب برفض الإصاحه لما أسدى إليه من نصح، وما وجه إليه من مطالب ، وأرجع سبب رفضه إلى أن «نصارى الديار المصرية قد كثر تعذيبهم واستطالهم بالمبالغة فى البناء، وإلحاح الكنائس ونحو ذلك». وقد حدث أن زره يعقوب أخرق قصد السلطان الذى ذهب برده إليه . ولما قتل هذا الخطى شهاب الدين، أرسل القاصد إلى المقتول لمشاهدته، حتى يكون ذلك أنكى للمسلمين، فما استطاع القاصد مخالفته ، وسار إلى المكان الذى هو فيه أياما حتى رآه ثم رجع . . واستأنف خلفاء زره يعقوب قتال مسلى الطراز من بعده، فخاربهم بنيدماريام (١٤٦٨ - ١٤٧٨ م) وإسكندر (١٤٧٨ - ١٤٩٤ م) وغيرهما ، كما أخضع بنيدماريام إلى جانب مسلى الطراز قبيلة حبشية مسلمة كانت تحتل - ولا تزال إلى اليوم - المنطقة التى تقع بين البحر الأحمر والسهل الحبشى، ويقال لها قبيلة عفر أو الدناكل، وقيل إنها عربية الأصل إلا أنها تتكلم لغة كوشية .

الباب الثالث

إنتشار الإسلام في الحبشة

١

يمتاز القرن السادس عشر بتلك الحماسة البالغة التي دفعت مسلى الطراز إلى الزحف إلى الداخل ، بعد أن كان مسرح الحروب السابقة لا يتجاوز المناطق الواقعة على حدود الحبشة . كما يمتاز بانتشار حركة الدخول في الإسلام بين الأحباش، الأمر الذى أهم ملوك أمهرة وجعلهم ينظرون جادين في وضع حد لهذه الحركة والقضاء عليها بشتى الوسائل .

ولاشك أن الإسلام كان يشق طريقه إلى داخل البلاد بالتدريج. وقد رأينا فيما سبق أن يكونو أملاك (١٢٧٠-١٢٨٥م) يذكر في رسالته إلى الظاهر بيبرس أن عنده فى عسكره مائة ألف فارس من المسلمين . وبعد ذلك بقليل (حوالى ١٣٠٠ م) شق أحد الدعاة إلى الإسلام طريقه إلى بلاد الحبشة ليدعو أهلها إلى هذا الدين ، فتمكن من هداية مائتى شخص فى السنة التالية من

دعوته . فهاجم بهم ملك أمهرة واشتبك معه في معارك كثيرة (١) . ولم يكن المسلمون على حدود الحبشة الشرقية فحسب بل كان منهم قبائل تسكن على الحدود الغربية كذلك . ويقال إن الملك بنيد ماريام (١٤٦٨ - ١٤٧٨ م) قد قضى معظم فترة حكمه في محاربة المسلمين على الحدود الغربية من مملكته (٢) .

وكان من العرب جماعات خاضعة للملوك الحبشة لا يناصرونهم العداء ، هؤلاء هم الذين يروى أنهم كانوا في النصف الأول يسكنون في مصوع ويعيشون في كنف الأحباش ، يطوفون جماعات كل جماعة تتألف من ثلاثين أو أربعين شخصا ، ومعهم أطفالهم ونسائهم ، وعلى رأس كل جماعة قائدها المسيحي ، ويروى أيضا أن بعض المسلمين كانوا في خدمة الملك وكان يعهد إليهم مراکز خطيرة ، وكان من هؤلاء العرب من يظل على دينه ، ومنهم من كان يترك إسلامه ويدين بالمسيحية (٣) . أضف إلى هؤلاء جماعات العرب الذين كانوا يفدون على بلاد الحبشة تجاراً أو دعاة إلى الإسلام - كما سنرى بعد - هؤلاء كانوا يتقربون إلى زعماء الأحباش ويؤسسون معهم علاقات طيبة .

وكان طبعياً أن تحدث هذه العلاقات آثاراً اجتماعية بعيدة.

Arnold, p. 113-4. (١)

Id. p, 114 (٢)

Id. p, 115 (٣)

المدى . ولعل أقرب مثل وأبسطه ما كان يحدث من مصاهرة بين الأحباش والعرب . ومن ذلك ما فعله بنيد ماريام من زواجه بامرأة عربية ، كان لها أثر كبير في إدارة الشؤون السياسية والدينية في الحبشة فترة طويلة . كانت عربية مسيحية ، ولكنها كانت تحن إلى عنصرها ، وتتمنى أن تتحسن العلاقات بين الحبشة وملوك عدل . ولكنها قد اضطرت ، بحكم الظروف القائمة في ذلك الحين ، أن تنأصب الإسلام والمسلمين العداء .

هذه المرأة العربية يقال لها رومنا (أى رمانة) وتسمى إلبنى أيضا (أى هيلينا) . كان أبوها محمد حاكما على إقليم دوارو . وكانت كل أمنيتها أن توجد تفاهما بين ملوك عدل والأحباش . وتوقعت أن هؤلاء المسلمين سيغزون البلاد ، وسيخربون فيها ما استطاعوا ، وسينتقمون شرانتقام . وفي أوائل القرن السادس عشر ساعدت هى والمطران مرقس لبنادنجل على تولى العرش (١٥٠٨ - ١٥٤٠ م) ، وكان صغير السن . فقامت هى بإدارة شؤون البلاد ، وأخذت ترشد الملك وتوجهه . ولكن الجهود السلبية التى قامت بها الملكة إلبنى قد أخفقت فجرد لبنادنجل حملة على محمد ملك عدل فهزمه ، وغزا عدل ، وأحرق المدن ، وخرب القلاع . وقد حصر المسلمون فى مكان ضيق من الوادى بين فطيجارو عدل وقتل منهم ما يقرب من ١٢٠٠٠ مسلم . واعتصم الباقون بالجبال ،

حيث هلكوا من الجوع والعطش . وانتزع الأحباش الراية الخضراء شعار ملك عدل ، كما غنموا أشياء كثيرة . وفي أثناء هذه الموقعة (١٥١٦ م) ، كان البرتغاليون قد جردوا حملة على زيلع واستولوا عليها وأحرقوا المدينة . وفي نفس هذه السنة هزم قنصوه الغورى ، آخر سلاطين الممالك في مصر ، في وقعة مرج دابق أمام جيش سليم الأول السلطان التركى . وأرسل هذا السلطان قائده سنان باشا فى حملة إلى بلاد العرب ، وأخضع حكامها وزعماءها ، وعين حكاما من الأتراك فى كل المدن ؛ واحتل الأتراك كل موانئ البحر الأحمر الواقعة فى برالعرب ، كما استولوا على سواكن الواقعة على الساحل الإفريقى . وكان احتلال الأتراك لهذه البقاع باعثا على قلق الأحباش ، والعديلىين جميعا . فبادر العديليون إلى توثيق الصلات بينهم وبين الأتراك ، وكان أمر هؤلاء العديلىين أيسر من أمر جيرانهم الأحباش فى هذه السبيل ، فالعديليون إخوان الأتراك فى الدين ، ومن الممكن أن يتفاهموا . ووجد الأتراك ، من ناحية أخرى ، أنهم سينتفعون من وراء هذا التفاهم بخبرة العديلىين فى التجارة وأساليبها فى هذه البلاد . وكان الأتراك ، قبل أن تتحسن العلاقات بينهم وبين العديلىين قد استولوا على جزيرة زيلع حيث أسسوا أسطولا يهاجمون به السفن التجارية المناوئة . وهذا ما حفز العديلىين إلى

إلقاء السلم إلى هؤلاء الغرباء . أما الأحباش فكان أمرهم أصعب ،
فهم مسيحيون يناصبون المسلمين العداء ، وهم من ناحية أخرى ،
قوم لم يكونوا من الرقي الحربى والعسكرى بحيث يستطيعون أن
يصمدوا أمام الجيش التركى المنظم . فلم يكن الأحباش قد عرفوا
من الأسلحة حتى ذلك الحين إلا القوس والسهم والرمح والنبال
والتروس والدروع ، على حين كان الترك مزودين بالمدافع والبنادق
والنفظ والوسائل الحربية الحديثة التى كان الأحباش يجهلون جهلا
تاماً . لهذا رأت الملكة إلينى (رومنا) أن تبحث عن حلفاء من
الأوروبيين يقفون إلى جانبها فى وجه العدو المتحضر ، فأرسلت
إلى قنصوه الغورى سنة ١٥١٦ (قبل محاربة سليم الأول) ، ولكنه
سرعان ما قتل واجتاح الترك بلاده . فتطلعت إلى البرتغاليين ، ولا
سيما بعد أن سمعت عن انتصاراتهم فى المحيط الهندى ، وأنهم قضوا
على تجارة مصر مع الهند . فأرسلت الملكة إلينى إلى الملك عمانوئيل
ملك البرتغال فى ذلك الحين رسالة تقول فيها ... « باسم الله ...
السلام على عمانوئيل سيد البحر وقاهر المسلمين القساة الكفرة ...
تحياتى إليكم ودعواتى لكم ... لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر
قد جهز جيشاً ضخماً ليضرب قواتكم ، وليثأر من الهزائم التى
ألحقها به قوادكم فى الهند ، ونحن على استعداد لمقاومة هجمات
الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا فى البحر الأحمر أو إلى

مكة أو جزيرة باب المندب ، وإذا أردتم فانا نسيرها إلى جدة أو الطور ، وذلك لتقضى قضاء تاما على جرثومة الكفار . . . ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحي يستطيع فى وقت قصير أن يبيد الأمم الإسلامية المتعبرة . . . ولما كانت ممتلكاتنا موعلة فى الداخل وبعيدة عن البحر الذى ليس لنا فيه قوة أو سلطان فإن الاتفاق معكم ضرورى ، إذ أنكم أهل بأس شديد فى الحروب البحرية (١) . . .

وفى سنة ١٥٢١ زحف المسلمون على هرر بقيادة أبى بكر بن محمد سلطان عدل واستولوا عليها .

وفى سنة ١٥٢٥ توفيت الإمبراطورة هيلينا التى كانت تشد أزر لبنادنجل ، والتى كانت قد حكمت الحبشة أعواماً كثيرة . وأصبح لبنادنجل وحيداً أمام قوة المسلمين التى بدأت تظهر وتعظم على صورة أثارت فى نفسه الرعب والفرع . فقد أدرك الأتراك خطر تحالف البرتغاليين مع الأحباش ووجدوا أن البرتغاليين يلقون فى بلاد الحبشة نجاحاً سريعاً ، فلجئوا إلى الاتفاق مع العدليين وأمدوهم بالأسلحة النارية ، ووجد الأتراك الفرصة سانحة لقيام أحمد جرانى ملك عدل يساعده الباشا التركى حاكم زبيد ، الذى أرسل الأسلحة والمدافع إليه ، ويؤازره شريف مكة الذى بعث

إليه جنوداً من العرب . وزحف أحمد جرائى على قلب بلاد الحبشة ، فتحرك إلى (وهى شبه) وغزا الجلا وسائر الشعوب التى تجاور مدينة هرر ، ثم وصل إلى هرر ، ثم زحف إلى شواوسار شمالاً إلى غندار فأكسوم . ولبنادنجل فى هذه الأثناء يتنقل هارباً من مدينة إلى أخرى ، وجرائى يطارده ويقتل من الأحباش خلقاً كثيراً ، ويحرق الكنائس ويخرب الآثار المسيحية . وقد لبثت غزوة جرائى هذه من ١٥٢٨ إلى ١٥٤٣ م وكان لها أثر كبير فى نشر الإسلام فى البلاد .

يروى أحمد جرائى عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة أيجو ، وكان قد ترك موطنه ، واعتنق الإسلام فى عدل . ولما قام بهذه الغزوة انضم إلى جيشه الظافر كثير من زعماء الأحباش مع أتباعهم ، ودخلوا فى الإسلام ، كما أثر سكان بعض الأقاليم التى فتحها جرائى دفع الجزية والبقاء على دينهم . وقد استغل زعماء المسيحيين الذين انتقلوا إلى الإسلام على يد أحمد جرائى نفوذهم الشخصى فى تحريض جيوشهم على الدخول فى الإسلام ، وكان من الميسور إدخال كثير منهم فى الإسلام لما كانوا عليه من جهل تام بعقائد المسيحية . وقد اغتم كثير من المسلمين ، الذين كانوا قد أقاموا فى الحبشة قبل هذه الغزوة ، فرصة انتصار هذا الملك المسلم وساعدوا بإخلاص فى نشر الدعوة الإسلامية بين الأحباش . بل كان منهم

من تظاهر بالنصرانية حرصاً على مال أو جاه أو سلطان ، فما
 كادوا يرون غزوة جرائي وانتصاراته، حتى بادروا إلى نهذ ولائهم
 للمسيحيين وللملك المسيحي، وجاهر وامرة أخرى بأنهم مسلمون^(١).
 وقد كتب أحد هؤلاء إلى أحمد جرائي خطاباً هذا نصه :
 « أنا من أول مسلم وابن مسلم وأسروني المشركون ونصروني ،
 وإن قلبي مطمئن بالإيمان. والآن أنا جار الله وجار رسوله وجارك
 أن تقبل توبتي . ولا تؤاخذني بما عملت ، فأنا نائب إلى الله ،
 وهذه جيوش الملك الذين هم معي أنا أحتال عليهم حتى يدخلوا
 عندك ويسلبوا . وقد حدث فعلاً أن معظم جيشه قد آثروا أن
 يقتدوا بقائدهم، فأسلموا جميعهم، وهم فيما يقال نحو عشرين ألفاً مع
 نسائهم وأطفالهم^(٢) .

ولم ينقض حكم لبنا دنجل سنة ١٥٤٠ حتى كان العرب قد
 جعلوا من أنفسهم سادة على الحبشة كلها^(٣) .

(١) Arnold, p. 115-6.

(٢) عرب فقيه ص ١٨١ — ١٨٢ ، ١٨٦

(٣) كتب المؤرخ العربي أحمد بن عبد القادر شهاب الدين المعروف
 بعرب فقيه تاريخ غزوة جرائي في القرن السادس عشر، وهو المؤلف الوحيد
 باللغة العربية الذي ذكر لنا أماكن كثيرة في الحبشة . وقد نشره ريليه باسيه
 مع ترجمة فرنسية في باريس ١٨٩٧ — ١٩٠١ .

وبعد وفاته تولى ابنه جلاوديوس (١٥٤٠ - ١٥٥٩ م) ،
 واستطاع بمعونة البرتغاليين أن يتخلص من حكم العرب الذين
 كانوا قد أحالوا البلاد صحراء مقفرة ، وقتل أحمد جرانى على يد
 أحد الجنود البرتغاليين سنة ١٥٤٣ م . وخلف أحمد جرانى
 أحداً قربائه ، الأمير نور الدين الذى هزم جلاوديوس ملك الحبشة
 وقتله سنة ١٥٥٩ م .

وقبل ذلك الوقت بعامين ، احتل الترك مصوع واستولوا
 على المدن المجاورة ، حتى وصلوا إلى مدينة دباروة عاصمة الإمارة
 البحرية التى ساعد حاكمها الأتراك فى احتلالهم مصوع .
 وفى ذلك الحين ، كانت حالة الدولة تزداد سوءاً على سوء ،
 فالأتراك يوسعون سلطانهم ، ويحتلون المدن الساحلية فى الشرق ،
 وقبائل الجلال الذين يعيشون فى الجنوب يقتلون ويخربون ، والفلشة
 يعلنون لواء العصيان والثورة . وعلى هذه الحال تولى عرش
 البلاد الملك سرصادنجل الذى سماه القضاة (ملك سجد) لى
 يقهر كل الملوك الذين سيحاربونه (حكم من ١٥٦٣ - ١٥٩٧م) ،
 وبدأ سرصادنجل صراعاً قوياً مع تلك القوى المختلفة التى تهدده
 من كل حذب وصوب . فثار عليه حاكم دباروة ، تلك الإمارة
 البحرية التى قدمت يد المساعدة للترك ومهدت لهم على الساحل .
 وتحالف حاكمها مع الأتراك . وقامت بينهم وبين سرصادنجل

حرب انتهت بهزيمة الحلفاء في وقعة عظيمة قرب أبا جريمة في سنة ١٥٧٨ م . وفي سنة ١٥٨٩ تغلب سر صا دنجل على الباشا التركي كداورد ، قرب آر كيكو ، ومات الباشا التركي في المعركة . وكان للبرتغاليين فضل كبير في إمداد سر صا دنجل بالمساعدة . ووجه الملك همه إلى محاربة ملوك عدل ، فانتصر على محمد الرابع ملك عدل في سنة ١٥٧٧ م . وبهذه الانتصارات المتوالية على المسلمين من الأتراك ومن أهل عدل ، لم يعد المسلمون . من الوجهة السياسية ، خطراً كبيراً على البلاد كما كانوا من قبل .

وتغلب الملك سوسنيوس (١٦٠٧ — ١٦٣٢) على مملكة سنار الإسلامية . وفي ١٦٧٤ حرض الثائرون طلحة ، أمير عدل على امتلاك ناصية الحبشة ، ولكنه أفهمهم أن هذا الأمر محال . وطالما شغبت قبائل البجة (أو البلو) الذين كانوا قد أسسوا ولاية إسلامية حول سنة ١٦٥٠ في سمهر بزعامة نائب آر كيكو على سكان الحدود ، ولكنهم أحسوا أنهم من الضعف بحيث لا يستطيعون أن يصمدوا أمام ملوك الحبشة . وكذلك ذهب النائب موسى سنة ١٦٩٣ (وهو من سلالة أمر قنو) إلى أكسوم ليستمبح الملك العفو لما اقترفت يده . وبعد ذلك بزمان قصير انهزم أحد أمراء البجة في ١٦٩٧ ، وكان لرأس ميكائيل فضل كبير

في وقف مطامع النائب عند حدها سنة ١٧٦٩ .

٢

ولم يكن ضياع سلطة المسلمين السياسية من الحبشة معناه ضياع النفوذ الروحي للعقيدة الإسلامية في هذه البلاد. فمن المحقق أن الإسلام كان يشق طريقه في الحبشة، ولا سيما بعد غزوة أحمد جرائي، في نجاح محسوس. وربما كان هذا راجعا إلى اتصال المسلمين بالمسيحيين من الأحباش اتصالا مختلف المظاهر. فقد توغل جيش أحمد جرائي في الحبشة، وكان له من التأثير مارأينا، وتردد التجار المسلمون على هذه البلاد، وظفروا بكثير من الداخلين في الإسلام. أضف إلى ذلك هؤلاء الدعاة من العرب الذين كانوا يترددون بين حين وحين على إفريقية الشمالية الشرقية بخاصة، وهم يمثلون بحق صورة من نشاط الدعوة الإسلامية. وقد قيل إن عدة مئات من الدعاة المسلمين كانوا يأتون كل عام من بلاد العرب ويلاقون نجاحا في أعمالهم بين أهالي السومال، إذ هم أقرب إلى بلاد العرب التي جاء منها هؤلاء الدعاة من أية بقعة أخرى من بقاع الحبشة. وفي القرن الخامس عشر، وفدت شردمة تآلف من أربعة وأربعين عربيا من حضرموت على أرض الحبشة دعاة إلى الإسلام، ورسوا في ميناء بربرة على البحر الأحمر. ومن هناك

تفرقوا في بلاد السومال للدعوة إلى الإسلام . وقد قيل إن أحدهم ويدعى الشيخ إبراهيم أبو زرباى شق طريقه إلى مدينة هرر حول ١٤٣٠ م ، وظفر من بين أهالى هرر بعدد كبير من الداخلين في الإسلام ، ولا يزال قبره مثابة تشریف وتكریم في تلك المدينة ؛ ولا يزال يطلق على تل قريب من بربرة جبل القديسين تذكراً لهؤلاء الدعاة الذين قيل إنهم اجتمعوا في هذا المكان اجتماعاً سرياً قبل أن يتفرقوا إلى مختلف البلاد للدعوة إلى الإسلام ^(١) .

وفي عصر الملك فاسيلداس ، وهو السلطان سجد الثانى ملك أحمر (١٦٣٢ - ١٦٦٧) ، سرت إشاعة من جانب اليسوعيين تقول إن الملك فاسيلداس قد اعتنق الإسلام ، وإنه أرسل إلى اليمين يطلب معلمين يرشدونه ويفقهونه في الإسلام ^(٢) . والظاهر أنه كان لهذه الإشاعة نصيب من الصحة ، ففي سنة ١٠٥٢ هـ (١٦٤٨ م) أرسل هذا الملك كتاباً إلى إمام اليمين المؤيد بالله يطلب منه أن يرسل إليه بعثة لدعوته إلى الإسلام ، فلم يرسل إمام اليمين أحداً ، فعاوده بكتاب آخر سنة ١٠٥٧ ، فأرسل إليه الخيمي في نفر من أصحابه كما أشرنا من قبل . وتقرر حمل هذه البعثة في المراكب المعدة مع جماعة من العسكر المحافظين في بندر النخا ، وذلك خوفاً من تعرض الأتراك

(١) Arnold, p. 350.

(٢) Budge, vol. ii. p. 401.

لهم^(١) . وأخذوا طريقهم إلى بلاد الحبشة ، وكانوا يخشون قبائل الجلا (ويسمونها الخيمي القالة ويصفهم بالبأس والفظاعة^(٢)) . ووصلت البعثة إلى إندرتا ، وكان يحكمها أمير يقال له بعل جادة (أى صاحب الحظ) . وكان فى استقبال البعثة بعض فقهاء هذه المدينة ويسمون آل كبرى صالح ، وهو اسم تعظيم يسمون به الرجل المعتقد ، وبعضهم يعرف اللسان العربى ، كما جاءهم كذلك (كبرى خير الدين) وله معرفة جيدة بمذهب الإمام الشافعى ، وهو أفتقه من آل كبرى صالح ، وهم جميعا على مذهب الإمام الشافعى^(٣) . ثم اجتازت البعثة بلاد السحرت ، واتصلت ببلاد الفاشة (أى اليهود ويسمى الخيمي الفلاسة) ، ومنها إلى أحرة حيث قابلوا الملك . وكان يترجم لهم بين يدى الملك رجل من أخصائه شريف ينسب إلى الحسين بن على ، ولكنه اعتنق النصرانية ، وعاش مع الملك ونزل الضيوف فى مكان من أحرة كان يسكنه مسلمو هذه المدينة^(٤) ، وبدأ القلق يدب فى نفوس البنى وأصحابه ، ولا سيما بعد أن وجدوا من الملك بماطلة وتسويفا ، ورأت البعثة أن بقاءهم فى هذه البلاد قد يعرضهم للخطر ، فرجعت سنة ١٠٥٩ إلى اليمن وقد منيت بالإخفاق .

(١) الخيمي ص ١ — ٤ (٢) نفسه ص ١٧

(٣) الخيمي ص ٢٣ (٤) نفسه ص ٢٣-٢٤ ، ٢٤-٤٤

ومن أهم العوامل التي ساعدت على نشر الإسلام هناك تلك الجهود التي قام بها التجار المسلمون الذين كانوا كثيرى التردد على بلاد الحبشة .

تمكنت طائفة من التجار المسلمين من الانتشار في شتى البقاع للبيع والشراء ، تركزت في قوص ، المدينة المصرية التي كانت سوقا تجارية هامة ترد إليها منتجات إفريقية الوسطى والمغرب واليمن والهند والحبشة وغيرها . والظاهر أن النواة الأولى التي تكونت منها هذه الطائفة كانت من التكاير (أهالي تكرر وهم مسلمو السودان) ، وأطلق عليهم الكارمية ^(١) منذ العصر الأيوبي . ثم اتسعت هذه التسمية ، فأطلقت على عامة التجار الذين اشتغلوا بتجارة التوابل . وأصبح لهم بمرور الزمن نفوذ كبير، وثروة عظيمة، وانضم إليهم تجار من مختلف البلاد. وقدمارس هؤلاء التجار تجارة الحاج والتوابل والأقشة وغيرها ، كما كانوا يجلبون الرقيق الأسود إلى مصر . والظاهر أن هؤلاء التجار كانوا على جانب كبير من التدين ، كما كانوا يودون أن يأنسوا إلى

(١) ربما كان هذا اللفظ نسبة إلى مملكة الكانم من دول السودان الغربي . وأهل هذه المملكة ينتسبون إلى أصل عربي من ذرية الحسن بن علي (دائرة المعارف الإسلامية Kanem) .

عملاء من ملتهم ، يركنون إليهم ، ويشرفون لهم على أعمال البيع والشراء في بلادهم . لهذا عملوا على نشر الاسلام بين من اتصلوا بهم . وكان من هؤلاء التجار علماء وفقهاء وقياد ، إنهم بنوا بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ^(١) .

وقد وصل الكارمية بمتاجرهم إلى بلاد الحبشة ، ووجدوا ترحيباً كبيراً من زعماء الحبشة ، ولا سيما بين الأمراء والحكام ، نظراً لما أوجدوه لهم من أسواق لبيع حاصلاتهم التجارية ، وما كانوا يقدمونه من خدمات في تصدير المواد الصناعية الأجنبية إلى بلاد الحبشة . أضف إلى ذلك أن السبي وقطع الطريق وغارات القبائل المختلفة كانت تجلب كثيراً من الرقيق الذين كانت تجارتهم تدر ثروة كبيرة على الأحباش . ولما وجد الأحباش أنفسهم عاجزين عن تصدير هؤلاء الرقيق إلى الخارج ووجدوا في هؤلاء التجار خير عون لهم على تصديرهم إلى مختلف البلاد ، رحبوا بهم وأفسحوا لهم صدورهم . فكان التجار يتخذون من علاقاتهم الطيبة بالأحباش وزعمائهم سلباً لبث الدعوة الإسلامية ^(٢) . وكان هؤلاء التجار يمشون في هذه البلاد فترات طويلة ، فكانت

(١) حامد عمار ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) Cederquist, Moslem World, vol. ii. p. 153.

لديهم فرص كثيرة عرفوا جيداً كيف يستغلونها في سبيل العمل على نشر الإسلام . وقد أسلم على أيديهم كثير من قبائل الجلا^(١) التي تتصف بالوحشية وشراسة الطباع . ومن المحتمل أنهم كانوا أصحاب الفضل الأكبر في دعوة أهالي السومال إلى الإسلام . ولما لم تكن في البلاد حكومة مركزية قوية ، ساعد ذلك على قيام أمراء صغار مستقلين ، وكان لكثير منهم ميول إسلامية ، على الرغم من أن قوانين البلاد كانت لا تبيح أن يتولى أمر الولايات الحبشية إلا أمراء يدينون بالمسيحية . والظاهر أن هؤلاء كانوا يكتمون إسلامهم خوفاً من السلطان المسيحي وحرصاً على مراكرهم . وقد استخدموا في الواقع نفوذهم في نشر الإسلام وتشجيع المسلمين^(٢) .

ولاشك أن اشتغال المسيحيين بالخلافات المذهبية قد ترك الفرصة للإسلام أن يشق طريقه آمناً في هذه البلاد . فإن ما قام به اليسوعيون من أعمال تبشيرية في البلاد ، وما فعله المبشرون من الرومان الكاثوليك ، وما صنعه البرتغاليون من تدخل فعال في كل الشؤون المدنية والسياسية — كل ذلك قد أثار معارضة عنيفة بين جمهور المسيحيين من الأقباش^(٣) .

(١) . 9 - 348 . Arnold,

(٢) . 117 . Id .

(٣) . 116 . Id .

ثم إن الطبقات الفقيرة من الألباش المسيحيين لم يلقوا أية عناية من رؤسائهم ، بل كانوا يحتقرونهم ويهظونهم بالضرائب ويحدون من حريتهم الدينية . وسلط عليهم القساوسة والرهبان يضايقونهم ، ويميلون عليهم إرادتهم ، ويفرضون عليهم ما يعملون حتى في طعامهم وشرابهم ، وينذرونهم ، إن لم يفعلوا ما يأمرونهم به أشد العقاب (١) .

هذا إلى جانب تفوق المسلمين في الحبشة ، فقد كانوا على اختلاف قبائلهم ينعمون بحرية دينية كاملة ، وكان لهم أن ينشروا الدين ويعلموا من يريدون ، وكانوا يبذلون عناية خاصة بتعليم أبنائهم وتلامذتهم أصول الدين وتعاليمه (٢) . وينقل توماس أرنولد عن ريبيل أنه كثيراً ما لاحظ أثناء رحلاته إلى بلاد الحبشة ، أنه عندما كان يراد ملء منصب من المناصب التي تتطلب أن يكون الشخص الذي يشغلها أميناً كل الأمانة موثقاً به تمام الثقة ، كان اختيارهم يقع دائماً على شخص مسلم . وقد عقد ريبيل مقارنة بينهم وبين المسيحيين ، فقال إنهم (أى المسلمين) كانوا أعلى همة وأكثر نشاطاً ، فقد التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة في الوقت الذي نرى فيه أبناء المسيحيين

Cederquist. p. 154. (١)

Id. passim. (٢)

لا يتعلمون إلا عندهما يزعمون القيام بأعمال الكهنوت^(١). أضف إلى ذلك أن المسلمين في الحبشة ، منذ القدم ، هم سادة التجارة الحبشية ، ذلك أنه كان من اللازم ، لكي تدخل التجارة إلى بلاد الحبشة ، أن تمر بحدود المسلمين الذين كانوا يحتلون أكثر حدود الحبشة ، كما أن التجارة زادت في عددهم ، وشجعت غيرهم على الاقتداء بهم ، ودرت عليهم ثروة كبيرة ونفوذ أعظيماً^(٢). فملكوا الخدم والعبيد ، ولبسوا أردية زاهية تلفت الانظار . وهذا كله جعل المسيحيين من الأحباش يعتقدون أن المسلمين أسمى قدراً وأعظم منزلة من السواد الأعظم من بني وطنهم^(٣).

وهكذا انتشر الاسلام وانبث المسلمون في بقاع كثيرة ، وربما استطاع المرء أن يقدر مدى التقدم الذي أحرزه الاسلام في غضون هذه الفترة بما أثبتته رحالة عاش في القرن السابع عشر الميلادي ، إذ يخبرنا أن المشايخين لهذا الدين كانوا منبئين في كافة أنحاء بلاد الحبشة ، وأنهم يؤلفون ثلث جميع السكان^(٤). وفي هذا القرن نفسه ضاق الأحباش ذرعاً بتلك المذاهب

Arnold, p. 117. (١)

Cederquist, p. 154. (٢)

Arnold, p. 117. (٣)

المسيحية المختلفة التي تريد أن تقضى على الكنيسة يعقوبية التي يعدها الأحباش كنيستهم القومية ، يحرصون على بقائها حرصهم على دياتهم ذاتها . فدب البغض في نفوس الأحباش من هؤلاء الأجانب ، ولا سيما البرتغاليين الذين تدخلوا في شئونهم ، وآزروا مذهباً دينياً (أى المذهب الكاثوليكي) دخيلاً عليهم ، حتى إن بعض القواد قد أعلن صراحة أنه من الخير للأحباش أن يخضعوا للحكام المسلمين من أن يستمروا في مخالفة البرتغاليين ^(١) .

وحول سنة ١٦٣٢ طرد الأحباش البرتغاليين . وأخرجوا كل المسيحيين الأجانب من البلاد ، وتنبه ملوك أمهرة إلى خطورة انتشار الإسلام بين أهالي الحبشة ، فعقد الملك يوحنا الأول (١٦٦٧ - ١٦٨٢ م) مجمعا في السنة الثانية من حكمه ، وقضى بمنع المسلمين أن يعيشوا إلى جانب المسيحيين ، وأمرهم بأن يسكنوا في أماكن نائية عن المسيحيين ^(٢) . ثم تجدد هذا المنع في سنة ١٦٧٨ ، وهذا يدلنا على أنه كان هنالك عدد لا يستهان به من المسلمين في ذلك الحين .

Arnold, p. 116. (١)

Budge, vol. ii. p. 407. (٢)

كانت مناوأة الحبشة المسلمين ، قبل عهد يوحنا الأول ، مقصورة على المسلمين المجاورين لبلاد الحبشة الذين يعدون غرباء عن الحبشة وعن جنسهم ، على حين كان المسلمون المقيمون في داخل البلاد ، على قلتهم في ذلك الحين ، آمنين لا يتعرض لهم أحد بسوء في أغلب الأحيان . ولكن يوحنا الأول سن هذه البدعة ، ففرض بإقضاء مساكن المسلمين عن المسيحيين كما رأينا ، وتبعه في هذه السبيل ملوك آخرون . على أن الاضطهادات كانت تتجمع غالباً إلى ما أحدثته بمألاة بعض زعماء الحبشة المسيحيين لرعاياهم المسلمين من رد فعل ، وإلى تلك الحرب التي نشبت بين المصريين والحبشة في القرن التاسع عشر ، ثم إلى انتشار الإسلام في الحبشة الذي أصبح ملوك الحبشة ينظرون إليه على أنه خطر يهدد المسيحيين والدولة المسيحية في البلاد .

ولعل (راس على) كان خير من يمثل زعماء الحبشة الذين كانوا يمالئون المسلمين ويؤثرونهم على المسيحيين . وكان هذا الزعيم حاكماً على (بيجامدر) ونائباً عن ملك الحبشة ، واستطاع أن يباشر فعلاً سيادة البلاد سنة ١٨٥٣ ، قبل أن يجلس الملك تيودور ملك الحبشة على العرش (١٨٥٥ - ١٨٦٨) . ومع أن راس على هذا كان مسيحياً ، آثر المسلمين ، ووزع المناصب الحكومية

عليهم ، وجعل لهم أنصبا من غنائم الكنائس . وفي أثناء حكمه دخل في الإسلام نصف أهالى الولايات الوسطى من الحبشة . وقد أحدث هذا رد فعل في عهد الملك تيودور ، وكان من ألد أعداء المسلمين ، فاضطهدهم اضطهاداً شديداً .

ومازاد في استياء ملوك الحبشة من المسلمين ، ذلك الشقاق الذى وقع بين الحبشة والحكومة المصرية والذى أدى إلى نشوب الحرب بينهما من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٨٢ . وقبل نشوب هذه الحرب بنحو ثلاثين عاماً ، احتل المصريون بعض المقاطعات الواقعة شمالى الحبشة ، مثل هالنجه وألغيدن وسبدرات وغيرها . ونشروا الإسلام فى تلك البقاع ، كما تمكنوا فى سنة ١٨٦٤ من انتزاع مدينة مصوع من أيدي الأتراك . ثم استولوا على هرر وبعض مناطق جنوبى الحبشة وغربها . وعلى أثر ذلك أرسل الخديوى إسماعيل قوة عسكرية إلى بلاد الحبشة من طريق مصوع . ولكن الملك يوحنا (١٨٦٨ - ١٨٨٩) استطاع أن يتغلب عليها فى معركة جدا جدى (فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٧٥) ، فأرسل المصريون حملة أخرى بقيادة حسن باشا بن الخديوى إسماعيل ، ولكن كان نصيبها الإخفاق كذلك فى معركة جورا (فى ٧ مارس سنة ١٨٧٦) . ونظر الأحباش إلى هذه الغزوة على أنها حلقة جديدة فى سلسلة العلاقات بين ملوك الحبشة المسيحيين وسلطين مصر المسلمين .

فقد رأينا كيف كان ملوك الحبشة في العصور السابقة يصانعون هؤلاء السلاطين تارة ، ويوجهون إليهم أساليب التهديد تارة أخرى. والآن، وقد غزا المصريون بلاد الحبشة ، انكشف ما بين الفريقين من عدا ، ونظر الأحباش إلى هذه الغزوة على أنها ذات هدف ديني ، على الرغم من أن المصريين أنفسهم ، لم يكونوا يهدفون إلى مثل هذا الغرض ، حين فكروا في القيام بهذه الغزوة . وانعكست كراهية الأحباش للعدو المسلم على المسلمين من الأحباش الذين كانوا يقيمون بين ظهرانيهم . ففي سنة ١٨٧٨ دعا الملك يوحنا أعضاء الكنيسة الحبشية إلى الاجتماع. ونادوا به حكما يقضى بينهم في شئون الدين ، وقرروا جميعا وجوب الاقتصار على دين واحد في كافة أنحاء المملكة . وأعطى المسيحيون من جميع الطوائف ، عدا اليعاقبة الذين يتألف منهم السواد الأعظم من مسيحي الحبشة ، والذين يعد مذهبهم مذهب الكنيسة الحبشية من قديم الزمان ، مهلة عامين ، يصبحون بعدها متفقين في المذهب مع الكنيسة القومية . أما المسلمون من الأحباش فقد ألزموا بالتسليم في مدى ثلاث سنوات ، كما ألزم الوثنيون بالتسليم في مدى خمس سنوات . وبعد أيام ، أذاع الملك يوحنا مرسوما أنذر فيه كل الموظفين من المسلمين ، بالتخلي عن مناصبهم إذا لم يقبلوا التعميد في مدى ثلاثة أشهر . ولم يكن لمثل هذا

التنصير الإجبارى بطبيعة الحال أثر يذكر ، فى الوقت الذى تظاهر فيه المسلمون بالقبول والإذعان ، كانوا فى الخفاء يكتمون ولا هم للدين الإسلامى . وقد شوهد بعض الموظفين من الأحباش المسلمين ، على أثر صدور هذا المرسوم ، يخرجون من الكنيسة التى كانوا يعمدون فيها ، قاصدين إلى المسجد يلتمسون فيه رجلا مباركا من رجال دينهم يحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذى أجبروا على فعله ^(١) . على أن هذا المرسوم لم يشر إلى تعميد النساء فى قليل ولا كثير ، وإنما اقتصر على ذكر الرجال وحدهم . وكان هذا سببا قويا فى جعل ما صنعه الملك يوحنا فى هذه السبيل أضعف أثرا وأقل قيمة ، فقد قام النساء المسلمات بدور خطير فى نشر الإسلام فى بلاد الحبشة ^(٢) ، وفى سنة ١٨٨٠ أرعم الملك يوحنا ما يقرب من خمسين ألفا من المسلمين على التعميد ، كما أجبر عشرين ألفا من إحدى القبائل الوثنية ، ونصف مليون من الجلا على الدخول فى النصرانية ^(٣) . وفى سنة ١٨٨٣ استطاع بعض المسلمين من أهالى سيراى وحماسين وغيرها أن يحصلوا على إذن للبقاء فى بلادهم ، على أن يعيشوا فى أماكن بعيدة عن المسيحيين .

Arnold, p. 119. (١)

Id. passim. (٢)

Id. passim. (٣)

وسكنت مصر عن معاودة الكرة على الحبشة ، ولا سيما بعد أن انشغلت بعزل إسماعيل باشا ، وثورة عرابي ، وظهور المتمهدين في السودان .

وقد مثلت السودان دورا هاما مع الأحباش في هذه الفترة ، فقد حدث أن هاجر إلى السودان كثير من مسلمي الحبشة الذين فروا بدينهم من اضطهاد ملوك الحبشة المسيحيين ، ولا سيما في عهد يوحنا هذا .

في ذلك الحين قام محمد أحمد المهدي بحركته ، وغزا كبره في دارفور وبحر الغزال وسنار ثم الخرطوم أخيرا (١٨٨١ - ١٨٨٥) . وشاع ذكره في بلاد الحبشة على أنه المهدي المنتظر الذي جاء ليخلص الناس مما هم فيه من كفر وعناد ، فهاجر إليه من الأحباش خلق كثير . وكان من بين هؤلاء رجل من كبار الحبشة ، يقال له محمد جبريل ، وفد على المهدي واتبعه ، فأرسله المهدي إلى الحبشة ليدعو جميع المسيحيين فيها إلى اتباع الديانة الإسلامية ، ودعوة المسلمين كلهم إلى الإيمان بمهدويته والخضوع له ، فصعد محمد جبريل بأمر المهدي . فلما رأى يوحنا هذه الحركة اهتم للأمر ، ولا سيما بعد أن اتبعت شقيقة الملك يوحنا نفسه الإسلام وتزوجت أحد أمراء المسلمين . فكان هذا ، بالإضافة إلى حرب المصريين سببا فيما أقدم عليه هذا

الملك من اضطهاد واسع النطاق . وهاجر كثيرون من مسلمي الحبشة إلى شيعة المهدي ، وأقاموا لهم محلا يشبه معسكرا مكان البقعة التي يسمونها (عراذيب) شمالي القلابات ، وسموا هذا المحل (تبارك الله) . وولى التعايشي ، خليفة المهدي أميرا عليهم يقال له محمد فقرا . وقد أغار هذا الأمير ، بإيعاز من التعايشي على أطراف المملكة الحبشية ، فرد الأحباش غارته ، وأقاموا على حدودهم حراسا .

وكانت القلابات ، مركزا من مراكز الدعوة المهدوية ، يسكن فيها وفيما جاورها من النواحي جموع كبيرة من الأحباش المسلمين الذين تأثروا هذه الدعوة ، وأصبح كثير منهم من شيعة المهدي المتحمسين . ولكن الحبشة كانت ترسل قوادها من حين لآخر لمهاجمة مدينة القلابات . وفي إحدى هذه الغارات هزم القائد الحبشي محمد فقرا واضطره إلى التقهقر . كما تمكن الأحباش من قتل محمد أرباب وأكثر جنوده ، وكان قد نشأ محمد أرباب هذا يعلم الأولاد القرآن الكريم في مدينة القلابات ، فالتحق بالقوم ، فأقامه التعايشي داعيا من دعاة المهدوية ^(١) .

فلما بلغ خبر هذه الهزائم أم درمان جهز التعايشي عشرين ألف درويش وأرسلهم مددا للذين تقهقروا إلى القصارف ، فهاجم

هذا الجيش مدينة القلابات، وانسحب الأحباش، واحتل التعايشي المدينة، وأعطى الأمان لمن فيها، وأعلن لتجار الأحباش الحرية التامة في ذهابهم وإيابهم إلى القلابات، وأذاع ذلك بين الناس، فأخذ تجار الأحباش يفدون على المدينة بمتاعهم وسلعهم وبضائعهم. فلما كثر هؤلاء التجار في المدينة، انقض عليهم قائد التعايشي فاعتقلهم جميعا، وصادر أموالهم ومتاعهم، وأرسلهم إلى التعايشي في أم درمان^(٢). وفي هذا العام نفسه أرسل التعايشي حملة أخرى إلى القلابات بقيادة حمدان أبو غنجة. وفي هذه الموقعة أنهزم الأحباش، ودخل أبو غنجة غندار، ونهب المدينة وأحرقها، ودمر الكنائس، وقتل رجال المسيحية، ثم عاد إلى القلابات ومعه كثير من الأموال والأنعام والنساء والغلمان. وبعد ذلك بعامين (١٨٨٩) زحف يوحنس على القلابات، وهجم الأحباش على الدراويش، ودخلوا منازلهم، وسبوا النساء والغلمان في دور هؤلاء الدراويش. وفي ذلك الوقت فوجيء الأحباش بجيش من المصريين آت من الشمال وهو الذي كان قد انضم إلى الدراويش، عندما وقعت السودان تحت حكم المهدي، فتقدم قائدهم فرج الله وهاجم الأحباش، ووجه نيرانه إلى حيث يوجد يوحنس فقتله. وبذلك انتصر الدراويش وأرسل رأس يوحنس إلى التعايشي في أم درمان، فسر هو ورجاله بذلك النصر^(١).

وخلف يوحنا على عرش الحبشة منليك الثانى (١٨٨٩ - ١٩١٣) ، وكان ملكا على إقليم شوا قبل أن يسيطر على كافة أنحاء البلاد الحبشية . وقد أرسل إليه التعايشى أكثر من مرة يدعوهُ إلى الإسلام والانتظام فى سلك أتباع المهدي^(١) . وفى أثناء فتنة المتمهدين سنة ١٨٨٤ ، أخلى المصريون هرر من جنودهم ، وتركوا المدينة لرجل يسمى عبد الله كان أمير المدينة قبل احتلال المصريين لها . فقام وأنزل العلم العثمانى ، ورفع بدلا منه علما خاصا به ، وانتحل لنفسه لقب أمير المؤمنين ، وأمر بقراءة الخطبة باسمه ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل إلى منليك (وكان ملكا على شوا فى ذلك الحين) سجادة صلاة وكوزا وطستاً للوضوء ، ودعاه إلى الدخول فى الإسلام ، وهدده بالمسير إذا لم يجب طلبه . وأما منليك فقد بعث إليه يلاطفه بكلام لين ، ولكن عبد الله لم يصغ لأقواله ، فنشبت الحرب بينهما سنة ١٨٨٦ ، ودارت الدائرة فيها على عبد الله ، وأخذ أسيرا بين يدي منليك ، ودخلت هرر فى قبضة إمبراطور الحبشة ولا تزال كذلك إلى الآن^(٢) .

ولا شك أن كل هذه الحركات التى قام بها ملوك الحبشة المسيحيون فى وجه المسلمين قد أثرت إلى حد ما فى إضعاف روح

(١) عبد الله حسين : السودان ١ - ص ٢٥٠ - ٢٥١

(٢) رحلة صادق باشا ص ٦١

الإسلام في هذه البلاد . ولكن مما لا شك فيه أن الإسلام ظل
يكسب أنصارا من الأحباش كلما تقدمت الأيام . وقد لقي هذا
الدين مناصراً قوياً في شخص خليفة منليك وحفيده ليج إياسو
(١٩١٣ - ١٩١٦) الذي أنكر الدين المسيحي وزعم أنه ليس
من سلالة سليمان ولا ملكة سبأ ، وإنما هو من سلالة النبي محمد ،
وأوعز إلى بعض فقراء المسلمين أن يكتب له نسبا عربياً . وتزوج
كثيراً من النساء المسلمات ، واقتنى بعض الجوارى ، وانتظم في
سلك المسلمين ، وتعبد في مساجد هرر ، وتردد على أضرحة
الأولياء ، ولم يدخل في كنيسة ، وانتزع من المسيحيين منازلهم ،
وأعطاهم المسلمين . وثارت قبائل الجلا ، وكثير منهم مسلمون ،
فرفض أن يرسل حملة إليهم . وأرسل السوماليون حملة إلى داخل
الحبشة ، وقتلوا عدداً من أهلها ، ولكنه لم يحرك ساكناً ، وبنى
مسجداً ، وطرح فيه العادى ولبس زى المسلمين ، فارتدى رداءهم
وعمامتهم ، وتقلد السيف العربى ، وكتب على العلم بالحروف
الحبشية (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) . بل فكر في إذكاء
حرب مقدسة يقضى بها على المسيحيين ، فدعا السوماليين وبعض
الأهالى لإعانتة في هذه الحرب ، وجيش جيشاً عظيماً من المسلمين
لهذا الغرض . ولكن الدول الأوربية تدخلت في هذا الأمر ،
فأضطر إلى النزول عن العرش ، وتولت الأميرة زوديتو ملكة ،
وأصبح رأس تقارى ولى عهد المملكة .

وربما ترجع نزعة ليج الى الإسلام الى تربيته الأولى ، فقد ولد في طنطا ونشأ في المدارس المصرية ، وألم بالعربية ، وتربى تربية رياضية حرة ، ولهذا كان يؤثر الطلاقة وسعة الأفق ، ويضيق بقيود الملك وحفلات الدولة ، ويكره الأوربيين وكل شيء يرجع إلى أصل أوروبي .

ولا شك أن حركة كهذه قد جعلت كثيرين ممن يهتمون إسلامهم ويتظاهرون بالمسيحية ، يظهرون على حقيقةهم ، كما ساعدت من غير شك على نشر الإسلام بين شعوب الحبشة وقبائلها الوثنية والمسيحية . وفي الصفحات التالية ، سنعرض بإيجاز لمدى تأثير هذه القبائل والشعوب بالإسلام .

٤

كان من أثر انتشار الإسلام في البلاد ، واختلاط العرب بأهالي الحبشة ، أن نشأت بين أهالي الحبشة فكرة « التعرب » . أو إيجاد رابطة ، أيا كان لونها ، بين شعوب الحبشة والعرب . ولم تكن هذه الفكرة وليدة هذه البلاد وحدها ، بل كانت سائدة في كثير من البلاد التي فتحها المسلمون أو تسرب إليها الإسلام . ومن أمثلة هذا التعرب ما يزعمه أهالي السومال في أساطيرهم من أنهم من نسل عقيل بن أبي طالب عم النبي (ص) . كذلك تزعم قبائل البشارية ، ويسكنون بين النوبة والبحر الأحمر ، أنها

من سلالة عربية ، ويربطون نسبهم برجل يقال له بشر . ويفسر
مسلمو الحبشة لفظ الجلا (وهو اسم القبائل المتعددة التي كانت
تسكن في الجنوب ، ثم ارتحلت إلى الشمال في جموع غفيرة ،
وانتشرت في عدة أماكن من بلاد الحبشة) تفسيراً طريفاً ،
فيزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أرسل رسولا إلى
جدهم الأكبر ، ولاب ، يدعوهم إلى الإسلام ، فرفض ولاب ،
« وقال لا ، فسمى « قال لا ، أو « جال لا ، ومن ثم أطلق على
هذه القبائل الجلا ^(١) . ولكن أكثر هذه المزاعم لا يعدو أن
يكون وضعاً وانتحالاً ، صنع في عصور متأخرة ، تحمسا للإسلام
وارتفاعاً بأنسابهم وتاريخهم إلى مرتبة أرقى ، حتى تعظم منزلتهم
في نظر العرب والمسلمين .

كذلك تشبع الأفراد من هذه الفكرة ، فأيناليج إياسو الذي
جلس على عرش الحبشة من ١٩١٣ — ١٩١٦ ، ينكر دينه
المسيحي ونسبه الوطني وينتسب إلى فاطمة بنت النبي ، ويعلم ذلك
أمام السوماليين ، ونظر إليه هؤلاء نظرتهم إلى المهدي المنتظر وإلى
المخلص الذي جاء لينقذهم من كوارث الدنيا والآخرة . ويظهر أن
هذه الفكرة ، فكرة التعرب ، كانت أقوى وأشيع بين أهالي
السومال منها بين سائر القبائل الحبشية . ولا أدل على ذلك مما

(١) Budge, vol. ii. p. 616. ويسمى الجيمي القالة .

صنعه محمد بن عبد الله حسان ، مهدي السومال (١٨٦٠ - ١٩٢٠) الذي كان ينتمى إلى قبيلة أوجدين باه جيري السومالية ، فقد كان يغضب حين ينسبه أحد إلى قبيلته ، ويحب أن يلقبه الناس بالهاشمي (نسبه إلى ما تزعمه الأسطورة التي ترجع سلالة أهالي السومال إلى عقيل بن أبي طالب) . أضف إلى ذلك أن هذا المهدي ، كان ذا أثر كبير في جعل العقيدة الدينية هي الرابطة التي تجمع بين القبائل الإسلامية . وكان يتمنى في قرارة نفسه أن يوحد بين المسلمين برباط الإسلام أو على حد تعبيره « أن يفرش سجادة صلاته على هذا البحر لتؤلف بين المسلمين وتوآخي بينهم » . وفكر في تنظيم القبائل تنظيمًا جديدًا لا يقوم على أساس النسب والعصبية ، وإنما يقوم على أساس الدين والجهاد في سبيل العقيدة ، فاختار من بين قبيلة هبر جدير قوة سماها حجاتو (أى الخدّاشون) ، ومن بين قبيلة ميكاهيل قوة سماها ضو جر (أى الصياد) ، ومن بين ضول بهنتا قوة سماها القياد . ولكنه لم يمتص في هذه السياسة إلى آخر الشوط ، فقد وقفت في سبيله عقبات ، وشغلته العداوة التي قامت بينه وبين بعض القبائل السومالية ، وما وجهه إليه بعض خصومه من نقد مرير ، وما وجده من صعوبة في الحصول على غنائم للمساكرة .

وقبائل السومال ، كما قلنا من قبل ، تحتل المناطق الداخلية من بلاد السومال التي تقسمها أخيراً الفرنسيون (١٨٨٤) والانجليز (١٨٨٤) والطيالان (١٨٨٩) فيما بينهم ، على حين استوطن العرب منها المناطق الساحلية ، ليتسنى لهم مزاوله تجارتهم . وإذا رجعنا بتاريخ قبائل السومال الى وراء ، لنبتين كيف تسرب اليهم الاسلام ، نجد أن الساكنين في شمال السومال منهم يروون قصة رجل عربي ، من سلالة كريمة ، كان قد اضطر الى هجر وطنه ، فعبر البحر الى عدل ، حيث دعا إلى الإسلام بين أجدادهم^(١). وإن مجاورة هذه القبائل للعرب النازحين، وتعدد الدعاة المسلمين على بلادهم ، وقرب الشقة بين بلادهم وبلاد العرب ، لما يحملنا على الظن بأن الاسلام قد تسرب اليهم في عصور مبكرة ، وإن كانت الاخبار التاريخية تشير الى أن الزيلع، المدينة السومالية التي يسميها ابن بطوطة مدينة البرابرة ، ويصف أهلها بسواد اللون، كانوا مسلمين في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي .

فإذا تجاوزنا ساحل السومال إلى الشمال نلتقي بمستعمرة أريتريا . والسواد الأعظم من أهلها من الجنس الحامي ، بعضهم بدو رعاة مثل قبائل الهدندوة وبنى عامر ؛ وبعضها يسكن المدن

ويحترف الزراعة كسيحي أريتريا وقبائل الباريه والسكونامه الوثنية ؛ وبعضها يعيش بين البداوة والاستقرار . وقيل إن أول من سكن أريتريا ثمانى قبائل ، وعلماؤهم اليوم يجعلون عددهم عشرة أو خمسة عشرة . ومن الممكن أن نميز بين خمس طوائف من مسلمي أريتريا : فالطائفة الأولى مسلمو مصوع ، تلك المدينة التى تعد من أهم موانئ البحر الأحمر فى الوقت الحاضر ، وفيها فريق من العرب ، يسكنون هذه الميناء ، ويتوفرون على الدراسات الدينية ، ويذهبون إلى القاهرة لتلقى الدرس فى الجامع الأزهر . الطائفة الثانية قبائل الساهو ، وتسكن فى جنوب سمهر ، وفى الجنوب الغربى من أريتريا . وقد اعتقد جانب منهم الاسلام فى القرن الرابع عشر . والطائفة الثالثة مسلمو ساهل وأنسبه الوسطى ، ودخلوا فى الاسلام فى عصر حديث . ويؤلف مسلمو برقة طائفة رابعة ، وهم من قبائل البجة (التى تعيش بين النيل والبحر الأحمر وتحتل جزءاً من أريتريا) وعناصر حبشية أخرى ، دخلوا فى الاسلام منذ زمن بعيد ، ودعوا إليه قبائل الغيدن والبارية^(١) . وقد كانت الأخيرة تدين بالوثنية منذ أكثر من نصف قرن ، ولكنهم الآن يعتقدون الإسلام جميعاً ويتكلمون لغات تختلف

(١) بارية منهاها بالاعرية العبيد ، وسماوا بذلك لاستخدامهم عبيدا فى أنحاء بلاد الحبشة .

تماما عن اللغات الكوشية والسامية . والطائفة الأخيرة تتألف من مسلمي التيجرى الذين يحتلون جزءاً كبيراً في شمال أريتريا . وهم يتكلمون ، بصفة عامة ، لغة التيجرى (وهى لغة سامية رئيسة فى الوقت الحاضر) . وكانت قبائل هذا الجزء تدين بالمسيحية إلى مستهل القرن التاسع عشر ، ثم دخل الإسلام فى بنى عامر ، إحدى قبائل هذه المنطقة ، وهم خليط من عدة عناصر ، يشتغلون بالرعى ، ويسكنون بين الجبال والبحر الأحمر ، ويتكلمون لغة البجة (البضاوية) . وأسلمت قبيلة الحباب التى تعيش بين بنى عامر والبحر ، وهى عبارة عن ثلاث قبائل ، كانوا يقطنون بين مخطى عرض ١٦° ، ١٧٣٠° فى الشمال الغربى من مصوع ، وكانوا مسيحيين ، ثم غيروا ديانتهم لما كان لدعاة المسلمين من أثر فعال ، ولأن زعماء هذه القبائل كانوا يغادرون البلاد تدريجاً ، لفهرط انشغالهم مع جيرانهم فى حروب لا تنقطع ^(١) .

كذلك أسلمت قبائل مسيحية مثل تيماريام (أى عطية مريم) ، وهبتيه (أى عطية يسوع) وتاكليه (أى نبات يسوع) ، كما اعتنق السواد الأعظم من قبيلتى المنساع الإسلام فى مستهل القرن العشرين ، وكانتا تدينان بالمسيحية حول منتصف القرن التاسع عشر ^(٢) .

Arnold, p. 349. (١)

Id, pp. 120 - 121. (٢)

وتنتشر قبائل عفر (أو الدنا كل) في الشرق بجزاء الساحل، وتمتد مساكنهم جنوبا حتى تصل إلى بلاد السودان، وتحتل جزءا منها، وشمالا حتى أريتريا، وتقيم في منطقة فيها. وهم مسلمون يشتغلون بالرعي. وسواء أكانوا من أصل عربي أم كانوا خليطا من الأغريق والمصريين، كما يقال، فإن السواد الأعظم منهم بدو يتكلمون لغة كوشية. وكذلك أسلم جانب من قبائل البوجو (وتسمى البليين كذلك) وهم من أصل أجاوى، على حين ظل الجانب الآخر يدين بالمسيحية.

وبالجملة، قيل إن عدد مسلمي أريتريا يقرب من مائتي ألف مسلم في الوقت الحاضر، وإنهم يؤلفون ثلثي عدد السكان^(١). فاذا انتقلنا إلى الحدود الشمالية الغربية والغربية من بلاد الحبشة، نجد أن من القبائل التي اعتقدت الاسلام قبائل البجة، وورد اسم البجة في نقوش عيزانا في القرن الرابع الميلادي، ويطلق جغرافيو العرب لفظ بجة على ما يعرف الآن بقبائل البضاوية أو البجاوية، ومنه سميت لغتهم باسم البضاوية. وطالما خلط المؤرخون بين قبائل البجة والبليين، ولكن من المؤكد أن الأخيرين ليسوا من مجموعة تلك القبائل، فالاسم القديم Blemmyes لم يتحول إلى بجة، إنما تحول إلى البليين^(٢).

Encyc. of Islam, Guidi - Abyssinia (١)

(٢) دائرة المعارف الاسلامية — بجة

ولم تكن مساكن البجة تقع في أريتريا وحدها، بل كانت تمتد بين النيل والبحر الأحمر متجاوزة حدود الحبشة إلى بلاد النوبة والسودان ومصر، بل يروى التاريخ أن نفوذها قد امتد يوما ما من القاهرة حتى حدود الحبشة. ويبدو أن العرب كانوا ينظرون أول الأمر إلى هذه القبائل نظرة الاحتقار، ويرون أنهم قبائل همجية تعبد الأوثان، لا يليق أن يختلطوا بهم أو يحالفوهم. ثم قويت شوكة هذه القبائل، وأغاروا على مصر أكثر من مرة، حتى اضطر عبد الله بن الحبحب أن يعقد معها اتفاقا في أيام المأمون (القرن الثاني للهجرة). أضف إلى ذلك أن العرب كان قد انتهى إليهم ما تحويه أراضي هذه القبائل من الذهب والعقاقير وسائر الأحجار الكريمة. فربما كان ذلك كله قد حدا بالعرب إلى الاتصال بهذه القبائل والنزوح إليها.

ومنذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بدأت قبائل من ربيعة تغد عليهم وتعيش بين ظهرانيهم. ثم اختلطوا تدريجاً بالسكان الأصليين. وكذلك نزحت إليهم قبائل من جهينة واندجحت فيهم. وبذلك كثرت بطون البجة وعشائرها، وتناثرت مساكنها في بقاع شتى. فكما وجدنا فريقا منهم في أريتريا (مثل بني عامر والهندودة)، فكذلك نجد فريقا منهم يسكنون الأراضي التي تجاور القصير على البحر الأحمر، وآخرين يقيمون قريبا من

أسوان ، وكثير منهم ينتشرون جنوبا إلى مايلي عطبرة (وهؤلاء يقال لهم البشارية) . وتؤلف قبائل بني عامرو والهندوة والبشارية والعبادة وحدة متجانسة من الناحيتين الفسيولوجية واللغوية ، ويشملهم جميعا اسم البجة الذي أطلقه العرب عليهم ، إلا أن هناك اختلافا بينهم إلى حد ما ، من الناحية الاجتماعية . ولا ندرى إلى أى حد تعتبر البشارية من أصل عربي . وهم يرجعون نسبهم - كما قلنا- إلى رجل يقال له بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة ، قدم في القرن الرابع الهجري إلى هذا الموضع ، ومعه ثلاثون ألف رجل من الحدارب - وهم فرع آخر من البجة يتألف منهم زعماء البجة وحكامها - وكانوا وثنيين ثم اعتقدوا الاسلام في عهد مبكر .

وكل ما ذكرنا من القبائل التي اعتقدت الاسلام ، سواء في السومال أو في أريتريا أو في الشمال إنما يرجع إلى أصل حامى (أى كوشى) أو سامى (كالعرب) . على أن هناك طائفة أخرى من القبائل تسكن في الجزء الشمالى الغربى والغربى من بلاد الحبشة ويرجعون إلى عنصر إفريقى ؛ واعتقدوا الاسلام في عصور متأخرة ، ويطلق عليهم قبائل الشنجله أو الشنقله . وكان هذا الاسم يطلق في الأصل على قبيلة منهم ، ثم شملت التسمية جميع القبائل التي لا تنحدر من أصل سامى ولا حامى من سكان هذه البلاد .

فاذا انتقلنا إلى جنوب الحبشة نجد قبائل الجـلا (أو القالة) التي
أشرنا إليها فيما سبق . وقبائل الجـلا كثيرة قد تبلغ سبعا أو ثمانيا ،
رحلوا إلى الحبشة واندثروا فيها ، ولا سيما في الجنوب حيث نجد جموعا
غفيرة منهم . وكانوا جميعا ، في الغائب ، عبدة أو ثان زمن نزوحهم
إلى هذه البلاد ، وظل فريق كبير منهم على وثنيتهم حتى ذلك اليوم .
وكانوا يتخذون في كثير من الأحيان ، بعد أن يستقروا في
الحبشة لغة أهالي البلاد وعاداتهم وطبائعهم . وقد قيل ان
الساكنين منهم في الجنوب كان أكثرهم مسلمين في القرن الثامن
عشر ، على حين كان الذين سكنوا منهم في الجهات الشرقية والغربية
لا يزالون على وثنيتهم ^(١) . ولا شك أن الاسلام تسرب اليهم
شيئا فشيئا ، حتى إن أحد علماء أوربا من الذين رحلوا إلى بلاد
الحبشة تنبأ بأن كل قبائل الجـلا سيدخلون في الاسلام في مدى
وقت وجيز ^(٢) . وقد كان لتجار العرب أثر كبير في نشر الاسلام
بين هذه القبائل ، ولا سيما بين رؤسائهم الذين كانوا يرحبون بتجار
المسلمين لما أوجدوه لهم من سوق لبيع حاصلاتهم التجارية في
البلاد . ^(٣) والجـلا معروفون بالوحشية وشراسة الطباع ، وفيهم
همجية قديمة ، وطالما أوجس المسافرين إلى بلاد الحبشة منهم

Arnold, p. 346. (١)

Id. passim. (٢)

Id. p. 348 (٣)

خيفة ، لتعرضهم لهم ، وقطعهم الطريق عليهم . وكان ملوك الحبشة يستعينون بهم في القتال ، ويؤلفون منهم فرقا عسكرية . وقد أرغم الملك تيودور فريقا منهم على الدخول في المسيحية ، حتى يضمن ولائهم ويكسبهم إلى جانبه ، ولكن القوة والعنف لم يجديا كثيرا في هذه السبيل .

وكان من الجلا كثير من العبيد ينقلون إلى مختلف البلاد لبيعهم في الأسواق . ومنهم عدد كبير في بلاد العرب في الوقت الحاضر ، وتسميهم العرب الحبوش ^(١) . ومنهم في بلاد العرب قوم تحرروا من العبودية وشغلوا بعض المناصب ^(٢) . وقد ظهرت شدة الطبع التي يتميزون بها في إخلاصهم لعقيدتهم وتحمسهم لها . ونستدل على ذلك مما أورده داوتى في حديث جرى بينه وبين أحد أفراد الجلا الذي أعتقوا وعاشوا في خير ، فقد أظهر حماسة بالغة لدينه الاسلامي . وكان قد نزع هذا الرجل عن وطنه وهو طفل ، وبيع بيع الرقيق في جدة ؛ ولما سأله داوتى عما إذا كان يضم شينا من السخط على هؤلاء الذي سرقة وأسلموه لحياة الرق والعبودية ، في بلاد نائية ، أجاب بأن شيئا واحدا قد عوضه هذه الكوارث ، وهو أنه لم يعد ، كما كان من قبل ، غارقا في

Doughty, vol ii p. 582. (١)

Id. vol. I. p. 201 (٢)

الجهل وعبادة الأوثان ، ثم قال : « آه ! إنها عناية الله الرائعة ! تلك التي جئت بفضلها إلى بلاد الرسول ، وعرفت بعونها دين الاسلام ، . . آه ! أية حلاوة أجدها في الإيمان ! صدقت أيها الأخ العزيز إنها لتفوق كل وصف ، وإن لسانى ليعجز عن أن ييوح عما في قلبي ، . هداك الله الى تلك المعرفة الربانية الاشك أن الله لو أراد بك خيراً ، لتداركك بالاسلام قبل أن يقبضك إليه . كم يكون جميلاً حقاً أن أراك مسلماً ، وأن تصبح واحداً منا . ولكنى أعلم أن المقدر في يد الله ؛ يصنع الله ما يشاء ، (١) .

فلعلك تدرك من ذلك كيف أحاطت القبائل الإسلامية بقلب بلاد الحبشة من كل جانب . وكان طبعياً أن يتسرب الاسلام إلى داخل الحبشة من طريق اتصال هذه القبائل بمن يليهم من أهالي المناطق الداخلية ، ثم من طريق الدعاة والتجار وغزوات المسلمين التي عرضنا لذكرها في الصفحات السابقة . ولعل من أهم المراكز الداخلية التي كان لها فضل يذكر في نشر الاسلام مدينة هرر ، التي لم تسكن بعيدة عن ساحل البحر ، والتي كانت ذات مركز جغرافي متميز ، مما جعلها مدينة تجارية هامة ، اتصلت بأهالي السومال ، كما هاجر إليها كثير منهم ، وامتزجوا بها ،

Doughty, vol. ii. p. 168. (١)

واتصلت ببلاد العرب، وكانت تصدر إليها أنواع الرقيق والحاصلات التجارية التي كانت ترد إليها من المناطق الغنية بالآلهة بقبائل الجلا وسائر الشعوب الجنوبية . لهذا كانت أسبق من غيرها ، وأقدر على نشر الإسلام بين قبائل الجلا ، يارسال الدعاة إليهم ، ونشره بين الآتين منهم إلى هذه المدينة . كذلك كان بينها وبين مصر صلات تجارية وثيقة . فلا عجب إذا رأينا الإسلام يتسرب إلى هذه المدينة في عهد مبكر ، ولعل أسبق الدعاة إلى الدخول في هذه المدينة ، وبث الدعوة الإسلامية فيها ، رجل لا يزال أهالي هذه المدينة ينظرون إليه بعين الرعاية والتقدير ، اسمه الشيخ أبادير ، له فيها مسجد عظيم يسمى باسمه ، ويعدونه ولياً من أولياء الله ، كما يعدونه حامى مدينة هرر (١) . ويقال إنه أدخل الإسلام في هرر قبل أن يعرف الإسلام سبيله إلى قلب بلاد الحبشة (حول سنة ١٠٠٠ م) ، وإنه دعا القبائل الوثنية الى هذا الدين . وما زال نفوذ المسلمين يعظم في هذه المدينة حتى استولى ملوك عدل عليها رسمياً سنة ١٥٢١ م . وفى القرن التاسع عشر استولى عليها المصريون ، ولكنها لم تلبث أن وقعت في يد الأحباش في عهد منليك الثانى سنة ١٨٨٦

(١) فكرة نجدها في مصر، حيث يعتقد المصريون مثلاً أن السيد البدوى حامى مدينة طنطا ، وعبد الرحيم القناتى حامى مدينة قنا ومحو ذلك .

الباب الرابع

الحبشة والثقافة العربية

١

يتكلم السواد الأعظم من القبائل الشمالية التي تقيم في أريتريا وسمهر وغيرها ، لغة التيجرى السامية ؛ وليس لهذه اللغة أدب يذكر ، اللهم إلا إذا استثنينا قطعاً مترجمة من الكتاب المقدس وكتباً دينية أخرى . وفي منطقة دولة أكسوم القديمة ، يتكلم السكان لغة التيجرينيا ، وهي لغة سامية ذاعت في القرن الخامس عشر ؛ ولا نعرف لها أدباً كذلك ، إلا ما دون بها من بعض الرسائل والوثائق والمجلات ^(١) . أما اللغة الأماخرية ، فهي أشهر اللغات السامية التي يتكلم بها أهالى الحبشة في هذه الفترة من تاريخ هذه البلاد . وقد أخذت في الانتشار منذ قيام الأسرة السلیمانية في القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي الآن لغة البلاد الرسمية . وتكتب هذه اللغة ، كالجزع ، من الشمال إلى اليمين . وقد حاول أهالى هرر ، في بعض الأحيان ، كتابة الأماخرية بحروف عربية ، كما حاولوا أن يكتبوا بهذه الحروف لغتهم اللوطنية . والكتابة العربية شائعة الاستعمال من قديم بين القبائل

الكوشية ، كالأجاو والجلال والبجة والساهو . ولكنهارديثة جدا .
ويكتب السوماليون لهجاتهم بالحروف العربية ، ولكنهم يكتبون
خطهم العربي من أعلى إلى أسفل ، ويتميز الخط العربي السواحل
عن غيره من الخطوط العربية بشكله الخاص وصعوبة قراءته ^(١) .
أما اللغة العربية فهي التجارة السائدة في كافة أنحاء البلاد .
ويتكلمها كثير من سكان الساحل الشرقى ، كما تتكلمها القبائل الشمالية
إلى جانب لغاتهم الأصلية . وهى فى نظر مسلمى الحبشة لغة مقدسة ،
مثل الجعز فى نظر نصارى الحبشة ، ومثل التيجرينيا لغة المسيحيين
الحديثة التى يسمونها زريفا خشتان أى لغة المسيحيين .



كان طبعيا أن يلجأ الأحباش المسيحيون إلى القبط ، يستمدونهم
الثقافة الدينية التى يحتاجون إليها لإقامة شعائرهم الدينية . وفى
الوقت الذى نجد الأسرة السلیمانية فيه تتولى عرش الحبشة فى
القرن الثالث عشر ، وتتخذ اللغة الأحمرية لغة رسمية لها ، كانت
اللغة القبطية فى مصر فى طريقها إلى الضعف والانحلال . وكان
للقبط أدب مدون باللغة القبطية ، ولكنه أدب دينى يكاد يكون

(١) إبراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ، عدد ٥٣ من سلسلة إقرأ ،
ص ٤٤ . يطلق لفظ (سواحل) الآن على مجموعة السكان من العناصر الوطنية ،
والبيد ، والعرب الذين يقيمون فى معظم المدن الواقعة على الساحل ، وفى
جزيرة زنجبار الواقعة على الساحل الشرقى لافريقية .

مقصورا على الكتب الدينية ، وترجمات الكتاب المقدس ، و حياة القديسين . ومعظم هذه الكتب منقول عن اليونانية . فلما دلفت اللغة القبطية إلى الضعف ^(١) ، وأصبح القبط أنفسهم لا يفهمونها ، كان لابد أن يلتفتوا إلى اللغة المفهومة إذ ذاك ، أعنى اللغة العربية التي كان القبط قد تعلموها ، وكتبوا بها مؤلفاتهم في كثير من العلوم . لهذا عنوا بنقل كثير من كتبهم الدينية إلى العربية .

صاعت اللغة القبطية بين عامة القبط في الوقت الذي زالت فيه اللغة الحبشية القديمة (الجعز) بين السواد الأعظم من الشعب الحبشى . بيد أن القبط اتخذوا العربية لغة للدين والكنيسة ، على

(١) منذ القرن الحادى عشر ، بدأ نخوف علماء القبط من ضياع لغتهم ، فقاموا بمحركة ترمي إلى تدوين قواعد اللغة القبطية وجمع ألفاظها . وبعد قرنين تقريبا ، قام أفراد من أسرة العسال ، وهى أسرة قبطية معروفة ، كان منها وزير تولى الوزارة فى مصر والموصل ، وعملوا على استخدام اللغة العربية ، وادخلوها فى الكنيسة القبطية . واشتهر منهم ثلاثة علماء : أبو الفضائل أسعد جامع القوانين التى ترجمها لأحباش كما سبى ، وأبو الفرج ، وقد ألف كتابا باللغة العربية فى نحو اللغة القبطية ، المقدمة ، والثالث أبو إسحاق . مؤلف كتاب السلم للقفى والذهب المصنى ، وهو معجم للغة القبطية رتب فيه الكلمات حسب أواخرها متأثرا بطريقة المعاجم العربية . وبفضل هذه الأسرة ترجم الانجيل إلى العربية كما كتبوا بها كثيرا من الطقوس الدينية والرسائل المختلفة التى تبحث فى العقيدة والمذهب الأرثوذكسى وغيره . وقد عملت هذه الأسرة ، بما كان لها من مكانة فى الدولة الإسلامية ، ونفوذ فى المجتمع القبطى ، على ادخال العربية فى الكنيسة القبطية ، وبدأت الكنيسة منذ ذلك الحين تستخدمها بدلًا من القبطية .

حين احتفظ الأحباش بالجعر لكتابة أكثر من كتبهم الدينية،
برغم استغلاق فهمها على معظم الشعب .

وإن أول ما وصل إلينا من الأدب الحبشى ، إنما يرجع إلى عهد
دخول المسيحية فى القرن الرابع الميلادى . والأدب الحبشى ذو
صبغة مسيحية واضحة . وهناك فترتان واضحتان فى تاريخ
الأدب الحبشى : تقع الأولى منهما فيما عرضنا لذكره فى الشطر
الأول من هذا الكتاب . وفيها نقل الأحباش ما نقلوه من
اليونانية أو السريانية إلى الجعر ، وكل ما نقلوه لا يتعدى ترجمات
من الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) . والفترة الثانية تبدأ
بحكم يكونو أملاك رأس الأسرة السلبيانية وتمتد حتى الوقت
الحاضر . وفيها نقل الأحباش ما نقلوه من العربية (و القبطية
أحيانا) إلى الجعر . والمعروف لدى الباحثين أن أكثر هذا الأدب
لا يعدو أن يكون ترديدا لأفكار أجنبية أو ترجمات منقولة من
مؤلفات غريبة عنهم ، وأنه ليس فى مجموع ما وصل إلينا من آدابهم
طابع قومى بالمعنى الصحيح . وهذا الرأى ، وإن كان صحيحا فى
جملته ، إلا أننا يجب أن نذكر أن هذا الأدب قد يمثل الشخصية الحبشية
من جهتين : فهى واضحة ، نوعا ما ، فى تلك الكتب اليسيرة التى
أرخ الأحباش فيها لبلادهم وملوكهم ، وفى تلك اللقائق والكتب
التي تناولوا فيها الكلام عن السحر والأدوية السحرية ، وصيغ
الرق والتعاويذ ونحو ذلك ؛ كما تظهر شخصيتهم ، من جهة أخرى ،

في هذا الميل الذي أوحى إليهم اختيار الكتب التي ترجموها ،
والأفكار التي نقلوها .

فالحبشي الذي رأيناه قد أشرب الميل إلى الخوارق والأساطير
في حياته الأولى ، نراه ينتقى من الكتب التي ينقلها في دور حياته
الجديد ما يلائم طبيعته ويتمشى مع ميوله ، فيعنى عناية خاصة بترجمة
الكتب الدينية غير القانونية ^(١) . وينقل الأحباش من العربية
قصصا تروى أعمال الرسل ، وآدم وحواء ، وكتبنا في معجزات
السيد المسيح وعجائب مريم العذراء ، و حياة القديسين والشهداء
وعجائبهم ^(٢) . وهذه القصص مكتظة بالعجائب التي لا تصدقها
العقول . وعنوا بكتب العذراء عناية خاصة (وكثير منهم يعبدون
العذراء كما سنرى في الصفحات التالية) ، فنقلوا في مدائحها وتاريخها
وعجائبها ومزاميرها كتباً كثيرة .

(١) الكتب الدينية عند المسيحيين نوعان : كتب قانونية ، وهي عبارة
عن المهدى القديم والجديد (التوراة والانجيل) بوضعهما الحالي ، وكتب
غير قانونية ، لم يجمع علماءهم على صحتها أو صلاحيتها ، ومنها الأپوكريفا
(أى الاسفار المستورة) والأپوكاليسس (أى أسفار الرؤية) .

(٢) كان القبط قد انتخبوا مجموعة كبيرة من حياة القديسين باللغة المربية
لاستخدامها في كنائسهم . وقد نقل الأحباش هذه المجموعة من المربية إلى
الجمز في القرن الخامس عشر وسمونها (مصحف سنكسار) . وهناك مجموعة
أصغر من السابقة تتناول حياة القديسين والشهداء ، بعضها نقل من المربية
وبعضها من القبطية . وهناك كتب مخصوصة بحياة فرد بئيه من القديسين
والشهداء : من ذلك حياة القديس جرجس التي نقلت من المربية .

كذلك ظهر ميل هؤلاء القوم إلى الرقص والغناء في تلك
الأناشيد والمزامير الكثيرة التي حفل بها أديهم ، والتي نجد منها
المنقول من العربية وغيرها ، ومنها المحاكى الذى نسجوا فيه على
منوال أناشيد أجنبية ، ومنها الشعبي الأصيل ^(١) . ولديهم مجموعة
من الاناشيد والترايم (يسمونها المعارف) مدونة مع النوتة
الموسيقية الخاصة بها . ^(٢)

ومن الطبعى أن ينقل الأحباش كذلك إلى لغتهم كل ما يجدون
أنفسهم فى حاجة إليه من الكتب الدينية الخاصة بالكنيسة
والتعاليم المسيحية . فقام الأحباش منذ القرن الرابع عشر بمقابلة
الكتاب المقدس الذى كان قد ترجم من اليونانية فى أوائل
الفترة الأولى ، على النص العربى من هذا الكتاب ، كما ترجموا كتباً
خاصة بخدمة القداس وطقوس العمداد والدفن والصلوات المختلفة
والعظات وغير ذلك ، بما لا تستطيع أن تقوم كنيسة بدونه ، ولا
يستغنى عنه المسيحى فى إقامة شعائره الدينية . ونقل الأحباش إلى
الجزء كتباً فى اللاهوت كانت قد دونت باللغة العربية ، أهمها
رسائل الشيخ الروحانى (يوحنا سابا) ، وشرحه رسالة بولس

Littmann, p. 214,230 (١)

Id.p,214.Budge vol, ii, p. 570. (٢)

إلى العبرانيين ، وشرح رسالة أخرى تنسب إلى ديونيسيوس أسقف المشرق (١) . وترجمت كتب عربية إلى الجعز للدفاع عن المذهب اليعقوبي ، بعد أن قدم اليسوعيون ونادوا بمذهبهم في البلاد ، وذلك في مستهل القرن السابع عشر . ومن هذه الكتب كتاب الدر الثمين في إيضاح الدين لساويرس بن المقفع ، وفيه يثبت مؤلفه أن الله ذو ثلاثة أقانيم وذو طبيعة واحدة . وهذه هي الفكرة التي قام على أساسها مذهب الكنيسة اليعقوبية ، ويسميه الأحباش (فكارى ملكوت) أى (تفسير الألوهية) . ومن ذلك أيضا كتاب اعتراف الآباء لبولس بن رجا ترجمه الأحباش من العربية وسموه (هيمانوت أبو) أى إيمان الآباء . وفيه يناقش المؤلف شتى المسائل التي تتعلق بمذهب الطبيعة الواحدة . كما يتناول بعض رسائل محفلية ، ومقالات وردود على لمراطقة (٢) . زد على ذلك أنه كان هنالك ظاهرة تنافس أدبي في سنة ١٥٦١ ، فترجم بعض رهبان الحبشة في مصر بعض كتابات خاصة بالطقوس الدينية ، من ذلك كتاب التوبة (مصحف نسحا) ، وصلاة القنديل (مصحف قنديل) . وفي عهد سر صا دنجل (١٥٦٣ -

Muraad Kamil (1), p. 64. (١)

Id. passim. (٢)

(١٥٩٧) قام عنبا قوم النيني بترجمة كتاب برلعام ويوشافاط من العربية إلى الجعز^(١). وفي سنة ١٥٨٢ نقل أحد رؤساء الأديار في الحبشة كتاب مختصر البيان في تحقيق الإيمان وهو الجزء الأول من الكتاب المسمى الحاوى المستفاد، إلى الجعز. وهو كتاب يتحدث عن حياة الكنائس والأديار، والفضائل المسيحية والصلوات وما شا كل ذلك (٢).

وكان الأحباش يرجعون في قوانينهم المدنية والدينية، حتى عهد قريب، إلى كتاب ألفه بالعربية أحد علماء القبط في القرن الثالث عشر، وهو أبو الفضائل أسعد بن العسال، الذى أشرنا إليه فيما سبق، لجمع شرائع الرسل، والدسقلية التى كانت تسير عليها الكنيسة القبطية، ورسالة بطرس إلى قليمنطوس، وقوانين المجامع الكبرى السابقة، وبعض قوانين المدن، فى مؤلف واحد سماه المجموع الصفوى (أوالصنى) (٣). ثم نقله الأحباش إلى لغتهم، ربما فى منتصف القرن السادس عشر، حين تغيرت الأوضاع السياسية فجأة، وأحسوا إحساسا عميقا بضرورة تنظيم حقوقهم الدينية والمدنية (٤). وسموه (فتح نجست).

Murad Kamil p. 65.(١)

Id. p. 65. (٢)

Budge, vol.ii. p.568-9. (٣)

Murad Kamil (1), p. 65.(٤)

ومنذ القرن الثاني عشر، ربما في نهاية عهد ملوك زاجوا، أخذ كتبة الأحباش في تدوين تاريخ بلادهم. ويظن أن أحد مؤرخي العرب من المسيحيين قد أفاد من هذه التواريخ، فصنف منها كتاباً بالعربية، ثم نقله الأحباش فيما بعد، وسموه كبرنجست أى (عظمة الملوك) . وهو كتاب يريد المؤلف أن يثبت فيه أن ملوك الحبشة من سلالة البطارقة العبرانيين، وأن مؤسس دولة أكسوم هو منليك الأول بن سليمان من ملكة سبأ (١). وهناك كتاب في تاريخ اليهود ألفه يوسف بن جوريون ونقله الأحباش من العربية إلى الجعز نقلاً أكثر تحرياً للدقة . وذلك في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلادي (٢).

وقد نقل الأحباش كتباً تاريخية هامة تعد مرجعاً في تاريخ العرب والدول الإسلامية بوجه عام . من ذلك تاريخ يوحنا أسقف نقيّا الذي لخص فيه التاريخ العام من بدء الخليقة حتى سنة ٦٤٠ م . ويقرر رأيت أنه نقل من الأصل العربي في عهد يعقوب ملك سجد سنة ١٠٠٢ ، وأن الذي نقله أحد أساقفة

(١) Budge, vol. ii, p. 566-7 وقارن هذا بمخطوطة عربية في المكتبة الاهلية بباريس كتبها أحد القبط، عنوانها « شرح سبب انتقال مملكة داود من ولده سليمان ملك إسرائيل إلى البلاد النجاشية وهي الحبشة » .
(Murad(1), p. 67.)

قليوب . وقيل إن الذى نقله هو غبريال المصرى بأمر والدة الملك
سرسادنجل (١٥٩٧ - ١٥٦٣) . وللنسخة الحبشية قيمة عظيمة
بين المؤلفات التاريخية، إذ أن الأصل العربى من هذا الكتاب
لم يعثر عليه للآن (١) .

ومن مصادر التاريخ الإسلامى الهامة تاريخ أبى شاكر بطرس
ابن الراهب ، الذى كتبه فى نهاية القرن الثالث عشر ، وهو
يؤرخ فيه من بدء الخليقة حتى سنة ٦٥٧ هـ . وقد ترجمه عنباقوم
اليمنى فى عهد الملك سرصادنجل . كذلك نقل الأحباش كتاب تاريخ
المسلمين للمسكين بن العميد الذى يسميه الأحباش (ولد عميد)
وذلك فى أثناء حكم الملك لبنادنجل (٢) .

ولما كان الأحباش قد ظلوا قرونا عديدة ينقلون آدابهم من
اللغة العربية ، إلى لغتهم ، كان طبعياً أن تؤثر العربية فى لغة
المترجمين إلى حد بعيد . ويحدث فى هذه الفترة من تاريخ اللغة
الحبشية نقيض ما حدث فى الفترة الأولى ، فقد أخذت العربية

(١) نشر زوتنبرج النص الحبشى وترجمته بالفرنسية فى باريس ١٨٧٦ ،
ونقله شارل إلى الانجليزية فى كتاب ظهر سنة ١٩١٦ .

(٢) Murad Kamil (1), p. 68. وكان المسكين موظفاً فى بلاط
بيبرس الأول، وكان أجداده فى خدمة بنى أيوب ، وقد أكمل المفضل بن أبى
الفضائل كتاب ابن العميد سنة ٦٥٠ هـ (١٢٤٩) وسمى تكملته النهج السديد
والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد .

من الحبشية في الفترة الأولى كثيراً من الألفاظ والعبارات ،
والآن نجد في الكتب المترجمة الى الحبشية أثرًا عربيًا واضحًا في
كثير من العبارات والصيغ والألفاظ ، كما تظهر في النصوص
الحبشية عبارات أخذها الأحباش المترجمون بنصها من العربية ،
إما لأنهم كانوا لا يفهمون معانيها ، أو لأنهم لم يهتدوا إلى ما يقابلها
في لغتهم . ومن ذلك قولهم : (وأخزوا فنوت لاعل سباً) أى
«أخذوا الطرق على الناس ، وهو تعبير عربي معروف ، وكقولهم
(وديب رأس) ترجمة للعبارة العربية « على الرأس » ، أى عن
طبيب خاطر . ومن الألفاظ العربية التي أخذها الأحباش من الحبس
والحكيم والمنار والقارورة والوباء والخف واللواحق (أيام
النسب) والورد والجنين وضابط الكل والدر الخ (١) ..

وإنما يرجع سوء فهم المترجمين من الأحباش لكثير من
ألفاظ النصوص العربية وعباراتها إلى إلمامهم الضعيف بالعربية
من ناحية ، وإلى قلة ضبط الألفاظ وتشكيلها في المخطوطات
العربية التي نقلوا منها من ناحية أخرى . لهذا كان من الصعب
على القارىء أن يفهم كثيراً من الترجمات بدون الاستعانة بالنص
العربي . ومن أمثلة ما وقعوا فيه من تصحيف للألفاظ قولهم :

Murad Kamil (1) p. 68-69. (١)

Id .(2) p. xxlv, xxv, xxvi.

النسور بدلا من السنور، وقصر بدلا من بمصر. وبأخبار اليهود بدلا من يا جبار اليهود، وحضروا فيها بدلا من حضر وقتها الخ. ومما أساءوا فهمه قولهم ما معناه (ليس في النافذة بشر) ترجمة للعبارة العربية المعروفة ليس في طاقة بشر (١).

ومهما يكن من أمر، فإننا نستطيع أن نتبين بوضوح مما سبق مدى تأثير الأقباط المسيحيين بالثقافة القبطية العربية.

٢

وإذا انتقلنا إلى مسلمي الحبشة لننظر في ثقافتهم الدينية، نجد أن أكثرهم لا يسيرون على التعاليم التي رسمها الإسلام. وقد لاحظ الأستاذ جويدي أن الإسلام الذي تدين به الشعوب الكوشية في بلاد الحبشة، كالجلا والساهو والبجة وغيرها، ليس بالقوة التي نجدها في عقيدة سائر الشعوب الإسلامية. ذلك أنه لا توجد في الغالب مدارس إلى جانب المساجد، ولا تتجلى مظاهر الأخوة الإسلامية بين مسلمي الحبشة، وأن مسلمي أريتريا مستهترون (١)، قليلو الإلمام بشعائر الإسلام. حتى لقد شوهوا يحضرون الأعياد المسيحية الدينية، ويتمسكون بعبادات تتنافى

مع تعاليم الإسلام (١). ونظم الحسن بن أحمد الخيمي قصيدة عربية ، ذكر فيها مشاهداته أثناء تنقله في بلاد الحبشة ، وعاب المسيحيين والمسلمين على سواء : فن قوله يذم مسلمي الحبشة :

ورأينا فرقة ظالمة تركب الفحش وتأق بالقدح
تدعى الإسلام ، لكن مادرت شارع الإسلام ما كان شرع
تنظر المنكر في ساحتهم وعليه الناس جمعي وجمع (٢)

وللقبائل الحبشية في السومال عادات قديمة جروا عليها ووثنية عاشوا فيها فترة طويلة ، ولهذا كان من العسير أن يقتلها الإسلام من نفوسهم ، فتمثلت عقيدتهم الجديدة كثيرا منها . نذكر من بقايا الوثنية في السومال ، على سبيل المثال ، عادة يسميها أهالي هذه البلاد (السار) ، وهي نوع قديم من الرقص المقدس : يزدحم الأهالي على هيئة دائرة ، يأخذ المنشدون في الغناء على نغمة خاصة ؛ وفجأة يسقط أحدهم على الأرض مغشيا عليه . ويعزف الآخرون (السار) مع الغناء والتصفيق وضرب الأرجل أو دق الطبول والنقارات . وفي هذه الأثناء ، ينهض الملقى على الأرض نهوض المتماثل ، ثم يتناول خنجرأ بيده ، ويرقص في الحلقة مشهراً هذا

الخنجر . ثم يفعل فعلته الأولى ، فيسقط على الأرض مغشياً عليه ، ولكنه سرعان ما ينهض في هذه المرة نشطاً متحفزاً ، وإذا به ينبرى من الحلقة مسرعاً إلى مكان قريب ، حيث يتخفى لحظة ، ثم يعود وخنجره يقطر دماً ، والناس تشاهده . وهم يزعمون أن هذه الدماء دماء الجن الذى قتله هذا الرجل بخنجره فى ذلك المكان .

ومن عقائد أهالى السومال القديمة المتوارثة، بعث المراء بجسده وروحه بعد موته (١). لهذا يقومون بتقديم الطعام والملبس للموتى فى قبورهم، وذبح الأضاحى عليها(٢)، وتوزيع اللحوم على الفقراء، ويزعم أهالى السومال أن الطعام يصل إلى الموتى بوساطة هؤلاء الفقراء .

ولما كان لشيوخ القبائل ، فى الحياة الفطرية ، سلطان قوى على أفراد قبائلهم ، أصبح هؤلاء ينظرون إلى شيوخهم من خلال

(١) قارن هذا باعتقاد العرب فى الجاهلية البعث والحياة بعد الموت (عبد الميبدخان ص ١٤٩ وما يابها) .

(٢) ومن عادات العرب فى الجاهلية ، أنهم كانوا إذا مات الرجل يشدون ناقته إلى قبره ، ويعكسون رأسها إلى ذنبها ، ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك ، ليركبها صاحبها فى المعاد ليعشر عليها ، فلا يحتاج أن يمشى ! (النورى : نهاية الأدب ، طبعة دار الكتب ٢٠١٢ ص ١٢١)

عقولهم البسيطة على أنهم قوم أوتوا قدرة سحرية خاصة، فكانوا يعتقدون أن لشيخ القبيلة الوراثي عينا سحرية نفاعة، تجلب الخير إلى من تحب، وتنزع الخير عن تكره، وتسبب القحط وتزيله، وتشفي من الداء وتسببه. وتلاحظ هذه الظاهرة في القبائل الإسلامية السومالية. وتحولت سلطة السحرة الوثنيين القدامى إلى علماء المسلمين في السومال. وتلقب هؤلاء بلقب السحرة القديم (وداد)، ويقومون أحيانا ببعض أعمال السحر، كما كان يفعل السحرة من قبل. ولا يبيع أهالي السومال من المسلمين والمسيحيين على سواء أكل بطن الحيوان المذبح ورأسه وأطراف أرجله، إذ يعدونها نجسة، وما ذلك إلا أثر قديم من آثار العقائد الكوشية الوثنية (١). ومن بقايا الوثنية الواضحة في عبادة الأحباش، ولا سيما قبائل الشمال، فكرة العالم السفلي (وتسميه قبائل التيجري سب تحت)، حيث تعيش أشباح الموتى إلى يوم الدين. وقد يتجلى هذا العالم للإنسان في رؤاه وأحلامه. وتقف أشباح هذا العالم بالمرصاد لكل رجل قتل أحد أقربائه وقصر في أداء واجبه نحوه، كأن أهمل في أن يثأر له، أو بخل في أن يقدم إليه التضحية اللازمة فاذا قصر في شيء من ذلك، استحوالت روح قتيله نوعا

من البوم ، يسمونه فى التيجرى (جان) ، يظل ينق على قبره حتى يؤخذ بئاره أو يظفر برغباته (١) .

وبشترك المسلمون والمسيحيون فى الحبشة فى عبادة مريم العذراء . وهى فى بعض صورها ، صدى عبادة إلهة وثنية معروفة : فريم تعيش فى جبال شاهقة ، وتظهر فى أيام الربيع وفى شجرة الجميز التى تثمر ثمرا كثيرا ، وكانت هذه الشجرة تمثل الإله هاتور فى عبادة المصريين القدماء . وربما كانت هذه الشجرة هى صورة اللات التى عبدها العرب فى الجاهلية (٢) ، وهى إلهة الأرض (عستر) التى ذكرت فى النقوش الحبشية القديمة .

ويعتقد المسيحيون والمسلمون على سواء تأثير الأرواح الشريرة ، كما يعتقد عبدة الأوثان من قديم . هذه الأرواح تعيش فى الظلام ،

Encyc. of Religion and Ethics-Abyssinia. (١)

قارن هذا باعتقاد العرب الجاهليين أن النفس طائر يصدق على قبر صاحبها الميت ، وأنهم كانوا يقولون ليس من ميت يموت ، أو قتيل يقتل ، إلا خرج من رأسه هامة ، فإذا كان قتل ولم يؤخذ بئاره ، نادت الهامة على قبره : أسقوني ، أسقوني ، فاني صدى (بلوغ العرب - ٢ ص ٣١٣ ، عبد المعبود خان ص ٤٦) .

(٢) قارن هذه الفكرة بما كان يعتقد العرب من أن هناك بين النخل والناس قرابة وشبهها ، وربما كان ذلك قد جاء من أن النخلة تشبه الإنسان من حيث امتياز ذكرها عن أنثاها ، ومميزاتها المخصوصة بالقاح (عبد المعبود خان ص ٥١ وما يليها) .

أو قريبا من المقابر ، وتجتمع حول الأبواب ، وتسكن البقاع
المجذبة الجرداء . وقد تحل في الحيوان ، كالضباع والذئاب
والثعابين (١) . ومن هذه الأرواح ما يصيب المرء بالجنون ،
ويسمونه (وادجنى) أى ابن الشيطان ، ومنها ما ينقض على
الأطفال فيقتلهم ، واسمه ليليث (كلمة عبرية معناها الليلية) .
ويزعمون أن الأرواح تنصرف باحراق جذع من شجرة الشيطان
أو فرع منها . وقد تنصرف بالرقى والتعاويذ التى يكتبونها ويقلدونها
أيديهم وأعناقهم . ويزعمون أن هذه الرقى والتعاويذ تفيد في درء
الآخطار والشفاء من الأمراض الجسمية ، ونهس الحيات ،
وخدش الثمار والضباع ، ونزول القحط ، وإغارة الجراد ونحو
ذلك . وفي العالم الإسلامى كثير من هذه العادات والعقائد ، ينتشر
في صور مخففة بين الجهلة وبسطاء العقول . وتروى قبائل التيجرى
حكايات عن تأثير النجوم والكواكب في الإنسان ، وربما كانت
صورة من عبادة النجوم القديمة (٢) .

والأحباش يعتقدون إصابة العين اعتقادا عظيما ، فإى كلون
الطعام تحت الحجب والاستار خوفا من إصابتها . ويسمون

(١) قارن هذا بفكرة الجن وعلاقته بالحيوان عند العرب (عبد المعيد
خان ص ٧٢ وما يليها) .

من تصيب الناس عينه (بودا). وكان عقاب بودا قلع إحدى عينيه .
والآن يكتفون بضربه أو تويخه . ويقال إن هناك في القسطنطينية
حالة تشبه بودا الحبشة عند الجوارى السودانيات . وقد سرت
هذه العادة إلى سيدات هذه المدينة ، فانهن حين يردن إظهار
العطف على الأولاد يبصقن عليهم بصقا خفيفا قائلا : (تفو
تفو عني لا تصيبك) . ولعل هذه العادة انتقلت من جوارى
الحبشة (١) . ومن عادة كهنة الوثنية ، حين يريدون مباركة المذنبين
والتكفير عن ذنوبهم أن يبصقوا عليهم . ولا تزال هذه العادة
جارية بين قبائل التيجرى من المسلمين والمسيحيين (٢) . ويبحث
الأحباش عن السارق بنوع من طرق التنويم ، الذى يطلق عليه
في أوربا Hypnotism أو Spiritism ، ويسمونه المندل فى بعض
الجهات من الأقطار العربية (٣) .

هذه أمثلة من عقائد الأحباش القديمة التى تسربت إلى الإسلام
فى بلادهم . وقد رأينا من هذه العقائد ما يقابله فى سائر بلاد
العالم الإسلامى .

(١) رحلة صادق باشا ص ٢٠١ — ٢٠٢

(٢) Encyc. of Religion and Ethics-Abyssinia.

(٣) رحلة صادق باشا ص ١٧٢ — ١٧٣

على أن هناك طائفة مثقفة من مسلمي الحبشة ، تفهموا الدين على وجهه الصحيح ، وتلقوا تعاليمه في مدارس خاصة أو على أشياخ ثقات . ومنهم كثير ينتقلون إلى بلاد العالم الإسلامي ، لتلقى العلم من مناهله ، ولا يزال في الجامع الأزهر رواق لمسلمي الحبشة يسمى رواق الجبرت ^(١) ، كما كان لهم رواق بالمدينة المنورة ورواق بمكة ^(٢) .

والسواد الأعظم من مسلمي الحبشة شافعي المذهب ، وكثر فيهم الحنفية منذ القرن السادس عشر . ولا يخفى أن بلاد الحبشة محاطة من قديم بجهات كانت تعد مراکز للتشيع والتصوف . فكان التشيع منتشرا في اليمن منذ القرن الثالث الهجري ؛ ومن اليمن انتقلت آثار من الزيدية إلى بلاد السومال مع العرب الذين حديثا لهمها ، ممن يشتغلون في الجندية أو غيرها من الحرف . وكانت سواحل السومال منذ العصر العباسي الثاني ملجأ للهاريين من أصحاب الفرق والنظرات التصوفية المختلفة ، الذين كانوا يلاقون من الدولة الإسلامية عنتا واضطهادا . وكانت

(١) راجع معنى (جبرت) في ص ١٥٦ من كتابنا هذا . وقد أصبحت جبرت الآن علما على مسلمي الحبشة جميعا .

(٢) الجبرتي - ص ٣٨٩

الحبشة معبرا لدعاة الشيعة وغلاتهم منذ القرن الثالث الهجرى إلى إفريقية ؛ فقد كان دعاة الإسماعيلية يرسلون إلى بلاد اليمن أفواجا من أتباعهم لتلقينهم أساليب الدعوة ، ثم يشخصونهم إلى إفريقية لبث المذهب الإسماعيلى . كل ذلك جعل الشعوب الافريقية بوجه عام هدفا للذاهب الدينية والصوفية المختلفة .

وللطرق الصوفية فى بلاد الحبشة مكانة خاصة فى نفوس المسلمين . وأكثر أهالى السومال ينتمون إلى الطريقة القادرية (١) ، وهى أكثر الطرق ثقافة وتمدنا فى هذه البلاد . وأفرادها لا يميلون إلى احتراف الزراعة أو الصناعة ، وإنما يقومون بمهنة التعليم . وإلى جانب هذه الطريقة ، تعيش ثلاث طرق أخرى فى السومال : الأحمدية أتباع الزعيم المتصوف أحمد بن إدريس الذى توفى بالعسير فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . والصالحية وهم فرع متأخر من الأحمدية . أسسها محمد صالح ، وكان مقامه بمكة . وقد استطاع أحد تلاميذ محمد صالح من علماء السومال ، وهو محمد بن عبد الله حسان ، الذى لقب أخيرا بالمهدى ، أن يبوى الصالحية مركزا قويا بين قبائل السومال ، فأسسوا على ضفاف الأنهار

(١) نسبة إلى عبد القادر الجيلانى (١٠٦١ هـ) . وقد قيل إنها أقدم الطرق الصوفية المنظمة .

جماعات زراعية منظمة . وانبثوا في القبائل ، واستغلوا الزراعات السياسية بينها ، واتخذوا من نشر الدعوة الصالحة ذريعة إلى تمكين سلطانهم وتعزيز نفوذهم . حتى استطاعوا ، في وقت قصير ، أن يضعوا أيديهم على المناطق الزراعية في تلك البقاع . ثم الطريقة الرفاعية التي تسير على نهج السيد أحمد الرفاعي .

وكان بين القادرية والصاحية جدال وتنافس . وقد أدى ذلك في بعض الأحيان إلى صراع دموى عنيف . على أن هذا التنافس قد أدى ، من ناحية أخرى ، إلى قيام حركة علمية في منطقة السومال الساحلية . فألف علماءها باللغة العربية كتباً ورسائل ، ونظموا قصائد ، وأكثرها في المسائل الصوفية . ومن أهم مادونه من رسائل التصوف تلك المجموعة التي جمعها الشيخ عبد الله بن يوسف أحد أهالي شيخال ، وطبعها في القاهرة . وهي تتألف من خمس رسائل . منها رسالة عنوانها « السكين الذابحة على الكلاب النابجة » ، وأخرى عنوانها « نصر المؤمنين على المردة الملحدين » ، وكلاهما تتناولان الرد على الصاحية .

أما ما نظموه من القصائد العربية ، فأهمها ذلك الديوان الذي جمعه الشيخ قاسم بن محي الدين أحد أهالي براوة ، لعدة من شعراء السومال . وفي هذا الديوان قصيدتان من نظم الشيخ إدريس محمد البراوي (الذي قتل سنة ١٩٠٩ على أثر النزاع الذي

شجر بين القادرية والصاحية . وكان قادريا متحمسا (١) .
 ونظم الشيخ عبد الرحمن الزيلعي قصائد صوفية يتوسل
 فيها بشيخه الأكبر عبد القادر الجيلاني ، وسماها « سراج العقول
 والسرار » في التوسل بالشيخ عبد القادر . وقد عثر على مخطوطة
 في براوة تشتمل على همزية البوصيري مترجمة إلى الشعر السواحلي .
 على أن هناك طرقا صوفية أخرى منتشرة في غير بلاد السومال
 أهمها الختمية والشاذلية . واليوم ينتشر دعاة الطائفة السنوسية في
 بلاد الحبشة .

ولم يكن يجد الدعاة إلى أى مذهب ديني غناء كبيرا في التأثير
 في عقول تلك القبائل الإسلامية البسيطة . بل كثيرا ما استغلوا
 سذاجتهم وبساطة عقولهم . وأعل فكرة التمهدى ، التي شاعت في
 إفريقية في القرن الماضي ، كانت وسيلة تدرع بها المستنيرون من
 أفراد القبائل ، ليفرضوا على قومهم السذج مبادئهم وآراءهم .
 فقد رأينا كيف ظهر محمد أحمد متمهدى السودان ، واستطاع أن
 يبسط سلطانه الروحي والسياسي في بلاده . وفي ذلك الوقت قام
 في السومال محمد بن عبد الله حسان ، وكان مثقفا ، فصيح اللسان

(١) نظم الشيخ إدريس أيضا خمس قصائد باللغة السومالية ، وهو المؤلف
 الوحيد الذي كتب باللغة السومالية والحروف العربية . ويرد في إحداها
 على أتباع محمد بن عبد الله حسان .

ماهرًا في قرص الشعر العربي ، وتخلي عن الصالحية التي كان متحمسًا لها بادی الأمر ، وأعلن في سنة ١٨٩٩ أنه المهدي المنتظر ، واجتمع إليه خلق كثير : وأخذ في حث أتباعه على إذكاء حرب مقدسة على الأوربيين الذين كانوا قد احتلوا بلاده . ووقعت الحرب بين الفريقين ، وأخذ الإنجليز يدبرون الحيل للقضاء على حركته ، فأوعزوا إلى محمد صالح . شيخ الصالحية أن يكتب رسالة إلى علماء المسلمين وذوى الرأي من أهالي السومال ، يعلن فيها عداؤه لمحمد بن عبد الله حسان . وكان لهذه الرسالة ، ولظروف أخرى ^(١) ، أثر كبير في إضعاف شوكرته ووقف نشاطه .

والواقع أن محمد بن عبد الله كان ذا دعوة وطنية دينية مخلصه ، فكان يرمى إلى توحيد القبائل تحت لواء الإسلام ، وطرد العدو الأجنبي من بلاده . ولكنه وجد آخر المطاف ، أن من العسير أن يمضى في دعوته فأسلم إلى الهدوء .

على أن هناك بعض حركات هدامة ، قامت في بلاد الحبشة ، لاتريد الإصلاح ، ولا ترمى إلى هدف واضح ، ولكنها أشبه شيء بحركات القرامطة التي ظهرت في القرن التاسع الميلادي ؛ من ذلك ما حكاه صادق باشا في رحلته من أنه ظهر في القرن الماضي

(١) راجع ص ٢١٦ من هذا الكتاب

رجل فى شوقوله ، قرب غندار . يسمى زكريا . يدعى النبوة ،
ويفسر القرآن كما يشاء ، ويغير قواعد الدين على النحو الذى يميل
إليه الجهلة الذين اتبعوه . فجعل الصيام إلى الظهر . وأباح
المسكرات والفسق والفجور بالنساء ، وبلغ عدد أتباعه أربعة
آلاف (١) .

وهناك طائفة من علماء الحبشة المسلمين ، ظهرت آثارهم فى
العالم الإسلامى بعيدا عن أوطانهم . من ذلك فريق من جبرت ،
نزحوا إلى مصر والحجاز لتلقى العلم ، فطاب لهم العيش فى هذه
البلاد ، وأنتجوا فيها ثمار أفكارهم . ورحب بهم أصحاب هذه
البلاد ، ولقوا الحظوة لدى ملوكها وعظماؤها .

وتعد أسرة الجبرقى المؤرخ من أشهر علماء جبرت . روى
الجبرقى نفسه أن أول من ارتحل من بلاده من هذه الأسرة ،
فى أوائل القرن العاشر . الشيخ عبد الرحمن . وهو الجسد
السابع للجبرقى المؤرخ . قيل إنه قدم من طريق البحر إلى جدة
وانتقل إلى مكة ، فجاور بها ، وحج مرارا ، وذهب أيضا إلى المدينة
المنورة ، فجاور بها سنتين ، ولقى من لقي بالحرمين من الأشياخ
وحضر إلى مصر فدخل إلى الأزهر ، وجاور بالرواق ، وتولى

شيخا على الرواق . وتكلم على طائفته وتزوج وولد له (١) . ونشأ
ابنه شمس الدين على نهج أبيه ، وتولى مشيخة الرواق بكوالده
وله كرامات ذكرها الجبرتي (٢) . وفي القرن الثاني عشر ، عاش
الشيخ حسن الجبرتي وكان شيخا على الرواق ، وولد عبد الرحمن
سنة ١١٦٨ (١٧٥٤ م) الذي اشتهر فيما بعد بكتابه في التاريخ؛
ويقال إنه قتل في شبرا أثناء عودته إلى القاهرة سنة ١٢٣٧ هـ
(١٨٢٢) .

ومن أهل جبرت الشيخ إسماعيل بن سودكين الجبرتي .
تلميذ ابن عربي المتصوف المعروف ، وكان يعتقد الملك الظاهر
برقوق ، وأوصى عند موته بأن يدفن تحت قدمه بالصحراء (٣) .
ومهم الشيخ على الجبرتي الذي كان يعتقد السلطان الأشرف
قايتباي . وارتحل إلى بحيرة إدكو ، فيما بين رشيد والإسكندرية ،
وبنى هناك مسجدا عظيما ، وقف عليه عدة أماكن ، وقيعان وأنوال
حياكة وبساتين ونخل كثيرة . وبني مسجدا شرق عمارة السلطان
قايتباي ودفن به وقد خرب وانطمست معالمه . قال الجبرتي : ومن
كراماته التي أكرم الله بها ، أنه يرى على قبره في بعض الليالي

(١) الجبرتي ص ١ ص ٣٩٢

(٢) نفس المرجع والصفحة

(٣) نفس المرجع ص ٣٨٩

المظلمة نور مثل القنديل المستنير ، يراه سكان العمارة وغيرهم .
وهو أمر مشهور (١) .

ومنهم الفقيه الأصولي الجدلى ، فخر الدين أبو عمرو عثمان
ابن على بن محجن البارعى الزيلعى ، قدم القاهرة فى القرن الرابع
عشر ، ودرس ، وأفتى ، ونشر الفقه ، ومات بها . وقد شرح كنز
الدقائق فى كتاب سماه « تبين الحقائق » ، شرح كنز الدقائق ، (٢) .

٤

ولم يكن مستوى الأحباش الاجتماعى على جانب من الرقى
حتى عهد قريب . ومن بين سكان الحبشة كثير من القبائل
يعيشون على الرعى ويكثرون من الترحال ، وقد يقطعون مسافات
بعيدة ، وفيافى شاسعة فى سبيل الحصول على أقواتهم . وكثيرا
ما يلجئون إلى النهب وقطع الطريق ؛ ولقد اتسعت غارات البجة
يوما ما حتى وصلت إلى القاهرة ؛ ويروى أنه فى سنة ٢٥٢ هـ
هربت عصابة من الحبشة ، وعلى رأسها شريح الحبشى ، إلى

(١) الجبرتى - ج ١ ص ٣٩٠ . قارن هذا بما ذكره البغوى فى تفسيره عن
عائشة أنها قالت : لما مات النجاشى ، كنا نحدث أنه لا يزال على قبره نور ؛
وبما ذكرنا فى هذا الكتاب ص ١٢٢ من أن أم أيمن عطشت يوما ، فأدلى
عليها السماء دلو من ماء برشاء أبيض ، وعندى أن استخدام النور والبياض فى أمثال
هذه الكرامات المنسوبة إلى الأحباش صدى للارتكاس اللونى إن صح التعبير .
(٢) السيوطى حسن المحاضرة - ج ١ ص ٢٢٢ (طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ)

العراق ، وقطعوا الطريق فيما بين واسط وناحية الجبل والأهواز ، ونزلوا قرية من قرى أم المتوكل يقال لها دبرى ، فنزلوا فى خانها حيث قبض عليهم ^(١) . ولا أدل على ما كان عليه هؤلاء القوم من وحشية فى القرن الخامس عشر ، مما يذكره المقرئى عن الخطى داود بن سيف أرعد من أنه روى يأكل كرش بقرة نيئاً ، وما فيه من بقايا الفرث ، يسيل على حنكه ، كما شوهد رجل منهم يأكل دجاجة وهى تصيح . وهم عراة الأبدان لا يكادون يعرفون لبس المحيط بل يرتدون ، ويتزرون فى أوساطهم ^(٢) .

ولكن مصر عملت كثيراً فى سبيل تحضير هؤلاء القوم . فأدخلت إليهم بعض النظم الإدارية والسياسية والدينية . كما أفادوا كثيراً من اتصالهم ببلاد العالم الإسلامى ، إما اتصالاً مباشراً أو عن طريق التجار واللاجئين ^(٣) .

(١) طبرى ٣ ص ١٦٥٧ — ١٦٥٨

وقبل ذلك بأكثر من قرن ونصف قرن ، أغار الأقباش على جدة ميناء مكة ونهبوها ، وألقوا الرعب فى قلوب العرب ، وإذا عوا بين الناس أنهم سيستولون على مكة ويخربون الكعبة (Jones and Monroe, p.45)

(٢) إلمام ص ٥

(٣) أنظر بعض آثار المصريين فى الحبشة فى ص ١٤٩ ، ١٨١ من كتابنا هذا . يضاف الى ذلك تأثير الفن الحبشى بالفن المهارى المصرى (أنظر تاريخ الامم القبطية ، ص ٣٠١ تأليف بنشر وترجم إلى المربية ، طبعة الفعالة ١٩٠٦ . وانظر : Jones and Monroe p. 49 .

ومن جهة أخرى، لم تكن المؤثرات الحبشية، في هذه الفترة من تاريخ الحبشة، قوية فعالة في البلاد الإسلامية (١)، اللهم إلا إذا استثنينا آثار التبادل التجاري. فقد أدى ازدهار التجارة بين الحبشة والبلاد الإسلامية في هذه العهود إلى نقل كثير من حاصلات الحبشة وبيعها إلى هذه البلاد. فكانت مناطق الحبشة الساحلية تستورد القماش الحرير والكتان من مصر واليمن والعراق (٢). ومن أهم ما كانت تصدره الحبشة إلى بلاد اليمن، البن الذي كان الأحباش يصدرونه إليها منذ القرن الرابع عشر الميلادي، حيث انتقلت كلمة قهوة من معناها العربي القديم (وهو الخمر) إلى معنى شراب البن (٣). وكان لهذا الشراب أثر كبير في

(١) مما لا مانع من ذكره هنا، أنه وجد على جدران قصر (قصير عمرة) في شرق الأردن الذي يرجح أنه بني بين سنتي ٧١١، ٧٥٠ م وربما كان مؤسسه هو الوليد بن عبد الملك، صورة للملوك الذين دأبوا له بالطاعة، ومن بينهم صورة النجاشي. ولا نستطيع أن نستدل من ذلك على أن الحبشة كانت تابعة للوليد، إذ أن الوليد في الغالب كان يقصد بهذه الصورة مجرد التباهي وإظهار عظمة الملوك.

(٢) سبج الاعشى - ص ٣٢٢

(٣) القهوة في اللغة الخمر ثم تطور معناها في القرن الرابع عشر، فأصبح يدل على شراب البن. والكلمة الإفرنجية Coffee مأخوذة من كافا اسم المنطقة الحبشية التي اشتهرت بتصدير البن إلى الخارج. ولا نعرف على وجه التحقيق الصلة اللفظية بين القهوة والكلمة الإفرنجية Coffee. ولا كيف تطور المعنى من القهوة التي بمعنى الخمر إلى القهوة بمعنى شراب البن.

حلقات الصوفية في اليمن . وفي القرن السادس عشر ، أدخل هؤلاء الصوفية هذا الشراب إلى مصر في حلقات الذكر التي كانوا يعقدونها مع إخوانهم من أهل مكة والمدينة ، ثم انتشر الشراب في الشام وفارس وتركيا .

وكثر الرقيق المجلوب من الحبشة إلى البلاد الإسلامية كثرة عظيمة ، حتى رأينا منهم من يصبح له صولة ونفوذ في بعض هذه البلاد . فقد تمكن أحدهم ، كافر الإخشيدى ، أن يجلس على عرش مصر في القرن العاشر الميلادى . وكان لعبيد الحبشة وإمائها مزايا عظيمة ، حبت الناس في اقتنائهم ، والحرص عليهم . أضفت إلى ذلك ما عرفت به الأمة الحبشية من صباحة وجمال . ويقال إن كثيرا من الحبشيات قد هاجرن إلى السودان ، ولقين حظوة لدى أهالى هذه البلاد ، ومنهن يتألف أكثر بغايا السودان (١) . على أنه كان لهؤلاء العبيد أثر في الشعر العربى . فقد استرعت مزاياهم انتباه الشعراء ، فنظموا فيهم الأشعار (٢) . والخبراء هؤلاء العبيد يجعلونهم أجناسا ، ويضعون السحرقى والأحرى على

(١) عبد الله حسين - ص ١ ص ٢٨١

(٢) تجمد طائفة منها في الجبرتنى - ص ١ ص ٣٩١ ، وفي الطراز المنقوش .

رأس هذه الأجناس، لا تصافهما بالجمال ودماثة الخلق وفصاحة
 اللسان ونعومة الخد ورشاقة القد. ويفرقون بين الجنسيتين في أن
 السحرقى أكثر شجاعة وأمانة والسحرتية أكثر شدة وعنفا، على
 حين تفوق الأحرية على السحرتية باللطف والظرف. ويقولون
 إن من أجناسهم كذلك جنس الداموت وبلين وقموقتر وزيلع
 وإزاره. وفي بنات زيلع وإزاره يقول الشيخ شهاب الدين
 البزاعى من أبيات :

وخذ ما حلا من بنات الحبوش من جلب زيلع أو إزاره
 وقال غيره فى شعر رقيق :

ياسائلى عن زيلع وعن طريق الحبشة

صحبتهـا وصيفة بحسنها مشربشه (١)

تذكر أن أصلها من فتيات الأنجشه

وعمها الخال فيا طوبى لمن قد خمشه

وخدها لو مر فيه الوهم يوما خدشه

ويقول الشيخ عبد البر بن الشحنة فى أمة أحرية :

حبشية ساءلتها عن جنسها فتبسمت عن درنغر جوهرى

فطفقت أسأل عن نعومة ماخفى قالت فما تبغيه : جنسى أحرى

(١) مشربشة أى واضعة على رأسها غطاء يشبه العربوش .

ثبت بالمراجع العربية

نذكر فيما يلي المراجع العربية التي أشرنا إليها أكثر من مرة
في هذا الكتاب :

ابن إسحاق (+ ١٥١ هـ) :

« سيرة ابن هشام » ، ثلاثة أجزاء ، نشر فستنفلد ، طبعة

جوتنجن ١٨٥٩

ابن بطوطة (+ ٧٧٨ هـ) :

« تحفة النظار من غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ،

المعروفة برحلة ابن بطوطة . مطبعة التقدم ، مصر ١٣٢٢ هـ
في جزئين .

ابن سعد (+ ٢٤٠ هـ) :

« الطبقات الكبير » ، مجلدات نشره سخاو من ١٩٠٥-١٩٢١

ابن قتيبة (+ ٢٧٦ هـ) :

« الشعر والشعراء » ، مطبعة ليدن ١٨٧٥ م

أبو الفرج الأصفهاني (٣٦٥ هـ) :

« الأغاني » ، ٢١ جزءاً طبعة السابي ١٣٢٣ هـ

الإمام : أنظر المقرئ

برجشتراسر :

دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) :

المواد : بحجة ، البشارية ، تكرر الخ ...

رفيق العظم بك :

« رحلة صادق باشا المؤيد إلى الحبشة ، ترجمة رفيق العظم بك

مطبعة الجريدة بمصر ١٩٠٨

السخاوى (شمس الدين) (+ ١٩٠٢ هـ) .

« التبر المسبوك في ذيل السلوك ، مطبعة بولاق ١٨٩٦

الطراز المنقوش : أنظر محمد بن عبد الباقي البخارى

عباس العقاد :

« داعى السماء : بلال بن رباح مؤذن الرسول ، مصر ١٩٤٥

عبد الله حسين :

« السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية ،

مطبعة الرحمانية ١٩٣٥ .

عبد المعيد خان :

« الأساطير العربية قبل الإسلام ، مطبعة لجنة الترجمة والنشر

والتأليف ١٩٣٧ .

عرب فقيه (+ ١٩٥٠ هـ) :

« فتوح الحبشة ، الجزء الأول نشر رينيه باسيه ١٩٠٩

القلعة عندى (+ ١٨٢١ هـ) :

«صبح الأعشى في كتابة الإنشا، الجزء الخامس طبعة دار
الكتب ١٩١٥

لويس شيخو :

(١) «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، جزآن طبعة

بيروت ١٩١٢، ١٩١٩

(ب) شعراء النصرانية : الجزء الأول طبعة بيروت ١٨٩٠

محمد بن عبد الباقي البخارى (+ ٩٩١ هـ) :

«الطراز المنقوش في محاسن الحبوش، نسخة خطية بدار

الكتب المصرية رقم ٢٢٨٣

محمد الحفنى القنائى :

«الجواهر الحسان بما جاء عن الله والرسول وعلماء التاريخ

فى الحبشان، المطبعة الأميرية بيولاى ١٣٢٠ هـ

المفضل بن أبى الفضائل (+ ٦٧٢ هـ) :

«الهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره

بلوشيه مع ترجمة فرنسية فى (Patr. Or. T. XIV, Paris 1920)

المقرىزى (+ ٨٤٥ هـ)

«الإمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام، طبعة

بتافيا ١٨٩٠ م

ياقوت :

«معجم البلدان، ثمانية أجزاء مطبعة السعادة ١٩٠٦

ثبت بالمراجع الافرنجية

نذكر فيما يلي المراجع الإفريقية التي أشرنا إليها أكثر من مرة في هذا الكتاب :

Arnold (T. W.) :

The Preaching of Islam, London 1935,

Axel Moberg :

The Book of the Himyarites, Lund 1924.

Brockelmann :

1) Gesch. d. Arab. Litter. B. I, II. Weimar 1898, Berlin 1902.

2) Id. (Suppl.) B. I, II. Leiden 1937, 1938.

Budge :

A History of Ethiopia, 2 vols. London 1938.

Cederquist :

Islam and Christianity in Abyssinia (Moslem World, vol. ii. 1912).

CIH, (see Corpus)

Conti Rossini :

Expeditions et possessions des Habasat en Arabie
(Journal Asiatique, Juill. Sept, 1921.)

Corpus Inscriptionum Semiticarum, Pars Quarta, 4 fasc. Parisiis 1889 — 1908.

Doughty :

Travels in Arabia Deserta, 2 vols, London 1927.
Encyc. of Islam, arts : Abyssinia, Lukman, India-Kanem, Somaliland, Kahwa etc .

Encyc. of Religion and Ethics, art. Abyssinia.

Fell :

Z D M G, B. 35, Leipzig 1881 : Die Christenverfolgung in Sudarabien.

Glaser :

Die Abessinier in Arabien und Africa, Wuenchen 1895.

Hartmann :

Die Arabische Frage, Leipzig 1909.

Jones and Monroe :

A History of Abyssinia, London 1935.

Kammerer :

Essai sur l'histoire Antique d' Abyssinie, Paris 1926,

Littmann :

Gesch. d' Aethiopischen Litteratur, s. 187 - 269.

(Gesch. d. Christl. Litt. des Or. Leipzig 1907.)

Loth :

ZDMG, B. 35, Leipzig 1881 : Die Leute der Grube. Murad Kamil .

(1) Translations from Arabic in Ethiopic Literature, Le Caire 1942. (Extrait du Bulletin de la Société D'Archeologie Copte, T. VII (1941) .

(2) Gesch. d. Juden, Strassburg, 1937.

Noeldeke :Neue Beitrage zur semitischen Sprachwissenschaft, s. 31 — 65, Strassburg. 1910.

R. Bell :

Origin of Islam in its Christian environment. London, 1928.

فهرس عام

- أبرمة : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٩ أعماله ٦٠ - ٦٣ غزاواته ٦٣ - ٦٥ رأى
 كوني روسيني في غزوة الفيل ٦٥ - ٦٧ .
 الأتراك : حملاتهم على بلاد العرب والسواحل ١٨٩ - ١٩٠ احتلال
 مصوع ١٩٤ القضاء على نفوذهم ١٩٤ - ١٩٥
 إثيوبيا : منهاها ٧
 أجاز : قبيلة يمنية مهاجرة ١٣ لغة الجمز ١٤ ترجمة الكتب إلى لغة الجمز
 ٢٢٩ - ٢٣٨
 أحاشيش مكة : ١٢ ، ٢٤
 أحمد جبراني : ١٤٥ ، ١٩١ - ١٩٣
 أرماح الثاني : ٧١ - ٧٢
 أرياط : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٩
 أريثيا : قبائلها ٢١٧ - ٢٢٠ عرب السواحل (انظر سواحل ، عرب)
 نقش أريثري ٢٧ عقائد قديمة بين قبائل أريثريا الإسلامية ٢٣٨ - ٢٤٢
 أسرة زاجوا : ١٤٦ ، ١٤٧ - ١٤٨
 الأسرة السلمانية : ١٤٨ ، ١٤٩ صبغتها المسيحية ١٤٨ - ١٤٩
 الاسلام : انظر المسلمون ، العرب
 أصحاب الاخدود : ٥٢ - ٥٥ لفظ اخدود ١٠٣ - ١٠٥
 أصحمة : ٧٠ ، ٧١
 أفيلاس (إل أسفح) : ٢٦ ، ٢٩ - ٣٢ بن لفظي الفيل وأفيلاس ٦٦
 أكسوم : تأسيس المدينة ١٣ دولتها ١٤ ملوكها ١٤ ، ١٥ حملاتها على حير
 ٢٢ - ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٥ - ٧١ نفوذها ٢٩ - ٣١ ضعف الدولة ٨٥ ،
 ٨٦ إشارات متأخرة إليها ١٤٤ ، ١٤٦
 إل أبرمة : انظر ميزانا
 إل أسفح : انظر أفيلاس

إل أصبحه (كالب) : ٤٥ - ٤٨
إل عميدا والد عيزانا : وهو إيدوج أو نازينا أوسبرونس (؟) ٢٦ ،
٢٧ ، ٣٧ ، ٤٥ - ٤٨

إيوس جالوس : القائد الرمانى يغزو بلاد العرب ٤
أحرمة : حاصمة الدولة السامانية ١٤٨ ، اللغة الاحمرية ٢٢٧ ، ٢٢٨
ملوك أحرمة ١٤٨ ، سلطان ملوكها على الامارات الساحلية ١٥٧ - ١٥٨
إيدوج : انظر إل عميدا
إيفات (أوقات) ومى جبرت : ١٥٥ - ١٥٦ ، ١٥٧ ملوك جبرت
٢٥٠ - ٢٥٢

بيد ماريام : محارب مسلمى الطراز ١٨٥
البجة : ٩ ، ٣٤ ، ١٦٤ يؤسون ولاية إسلامية ١٩٥ إنهمزام أحد
أمرائهم ١٩٥ انتشار الاسلام بينهم ٢١٨ ، ٢٢٠ - ٢٢٢
البرتاليون : حملتهم على بلغ ١٨٩ ملكة الحبشة تستنجد بهم ١٩٠ -
١٩١ نفوذهم فى الحبشة ١٩١ يقتلون جراني ١٩٤ يساعدون سرصا دنجل
١٩٥ يتدخلون فى شئون الحبشة ٢٠١ ، ٢٠٤ طردهم من البلاد ٢٠٤
بنو ضمرة : أصحمة يعيش بينهم ٧١ أهميتهم ٨١ رسول النى إلى النجاشى
منهم ٨١ - ٨٣

التوراة : ٥ ، ١٦

نازينا : انظر إل عميدا

التيجرينيا : لغة ١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨

تيودور : ملك الحبشة ٢٠٥

ثيو فيلوس الهندى : ٣٧ - ٣٩ ، ٤٤

جبرت : انظر إيفات

جمز : انظر أجازز

جعفر بن أبى طالب : شخصيته ١١٣ - ١١٤ فى الحبشة ٧٦ ، ٨٣

قدومه مع وفد من الحبشة ١١٧

الجالا : ٦ يشغبون ١٩٤ إسلامهم ٢١٥ ، ٢٢٣ - ٢٢٥

جلادويوس : يتخلص من جراني ١٩٤

الحارث :

حام : انظر كوش

الحبشة : لغة ١٢ قبائل حبشت المهاجرة ١٢ حروب دولتهم مع حمير ٢٢ -
٢٦ ، ٣٣ - ٣٥ ، ٤٥ - ٧٠ زوال ملكهم من اليمن ٧ اثر رقيق الحبشة
في البلاد الاسلامية ١٠٥ - ١١٣ ، ١١٧ - ١١٩ ، ١٦٣ ، ٢٢٤ -
٢٢٥ ، ٢٥٤ - ٢٥٦ طبائع الحبشة ١٢٤ ، شعراء الحبشة ١٢٣ - ١٣٨
بين الحبشة والقبط ١١٦ ، ١٧٥ اضطهاد المسيحيين للمسلمين في الحبشة
١٧١ - ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤ - ١٨٥ ، ١٩٠ -
١٩١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ بين الحبشة والسودان ٢٠٨ - ٢١٢ بين
الحبشة وسلاطين مصر ١٧١ - ١٧٤ ، ١٧٥ - ١٧٦

حضر موت : بلاد ٢ ، شعبا ٣ هجرة العرب الاولى منها ١١

حمير : شعب جنوبي ٣ ، ٤ أكسوم تحاربهم ٢٢ - ٣٥ ، ٤٥ - ٧١
افتخار الحبشة بحمير

الحقطان : شاعر حبشي ١٣٦ - ١٣٧

خفاف بن ندية : ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠

الحيمى (الحسن بن احمد) : إرساله إلى فاسيلداس ملك امهرة ١٦٢ -

١٦٣ تنقله في الحبشة ووصوله إلى ملك امهرة ١٩٧ - ١٩٨

ديان : ٤٥ - ٤٨

ذونواس (مبروق) : ٤٥ - ٤٨ الرواية العربية ٤٨ - ٥٤ وقوع

الحرب ٥٦

رحيمس (رماحس) : بيت إسرائيل (؟) ٥٩ ، ٦٠

الرومان : يخفون في السيطرة على طريق الهند ٦ اثرهم في العملة

الحبشية ٣٠ - ٣١ مصادر عن الحبشة ٤٢ الاشتراك في حرب اليمن ٤٥ ،

٥٥ ، ٥٦ اثرهم في اليمن ٦٣

ريدان (ظفار) : حاصمة حمير ٤ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٤ اثر المسيحية

في ظفار ٩٧

زرع يعقوب : رسالته إلى سلطان مصر ورد السلطان عليه ١٨٣ - ١٨٤

١٨٥ محاربتة ملوك الطراز ١٨٤ - ١٨٥

زليع (عدل) : إماراتها وملوكها ١٥٤ - ١٥٨ بين اليمن وزليع ١٦١ -
 ١٦٢ بين ملوكهم والحبشة ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨١ - ١٨٣ ، ١٨٤ ،
 ١٨٥ ، ١٩٠ - ١٩١ اتفاقهم مع الأتراك ١٩١ غزوة جراني ١٩٢ - ١٩٣
 الساميون : حملة الحضارة إلى الحبشة ٩ اللغات السامية في الحبشة ٩ ،
 ١٠ ، ٢٢٧ - ٢٢٨ إصلاح الجعر ١٠٦ الوثنية في نقوش الحبشة القديمة
 ١٠ فكرة الثالث في عبادة البنين القديمة ١٠

سبأ : انظر اليمن ، حيدر

سحرت : قبيلة يمنية مهاجرة ١٢ الأحباش يتخذونها قاعدة في بلاد العرب
 ٢٥ قتال معهم ٣٣ يذكرها ورخو العرب ١٤٥ يصل إليها الحيني في
 الحبشة ١٩٨

سحيم : عبد بن الحساس ١٢٤ - ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٤
 سرصا دنجل : انتصاراته ١٩٤ - ١٩٥ كتب ترجم في عهده ٢٣٣ ، ٢٣٦
 السريان : أثرهم في الحبشة ١٦ أثرهم في اللغة الحبشية ٢٠ ، ٢١ ، ٣٦
 مصادر سريانية ٤٠ - ٤٢ ، ٥٠

سليك بن السلوك : ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠ - ١٣١
 سليمان ملك أورشليم : يمتد اتفاقا لانشاء السفن التجارية في البحر الأحمر
 ٥ قصته مع ملكة سبأ (ماقدة) ١٦

سمروتس : ٢٦ ، ٢٧ وانظر إل عميدا
 السميع : ٥٧ - ٩٥

سواحل أريتريا والسومال : نزوح القبائل اليمنية إليها قبل الميلاد ١١
 ازدهار التجارة عليها ١٨ استمرار الهجرة في العصور المتأخرة ١٥٠ تكوين
 إمارات على الساحل ١٥٢ - ١٥٨

السودان : انتشار الاسلام في السودان ١٦٣ دولة الفونج ١٦٤ مسلمو
 السودان ١٩٩ حركة المهدي وآثارها في الحبشة ٢٠٩ - ٢١٢
 سوسفيوس : تغلبه على ملكة سنار ١٩٥

سيف بن ذي يزن : ٦٨ - ٦٩
 السوماك : انظر سواحل ، عرب ، محمد بن عبد الله حسان
 شمر يهرعش : ٣٢ - ٣٣ ، ٣٥

الشفقة : إسلامهم ٢٢٢

صنماء : ٢، ٤٨، ٩٧ بين الحبشة واليمن في عصور متأخرة ١٥٩-١٦٣

عدل : انظر زيلع

ظفار : انظر زيدان

عدول : ميناء ١٩، ٧٣ تاريخها ١٩، ٢٠ نقشها ٢٧ - ٣٢ خرابها ٨٥

العراق : المنطقة التي نزح منها العرب المستعربة ١ تصدر منها حاصلات

إلى الحبشة ١٥٧ شريح الحبشى يغير عليها ٢٥٢

العرب : العرب العاربة ١ المستعربة ١ امرؤ القيس يفتزو العرب ٣٤، ٦

٣٥ مؤرخو العرب وقصة نجران ٤٨ - ٥٥ قصة غزو مكة ٦٣ - ٦٥ كلام

مؤرخيهم عن الحبشة ١٤٣ - ١٤٥ آثار الحبشة في بلاد العرب ٩٣ - ١٣٨

١٦٣، ٢٢٤، ٢٥٥ حرب الدومال في الهند ١٥١ بين مسقط والسومال

١٥٢ هجرانهم إلى سواحل اريتريا والسومال (انظر سواحل) تسكويين

امارات عربية على السواحل (انظر مقدشو ، عدل) الحبشة يضطهدون

العرب ١٦٦ - ١٩١ عرب مسالمون للحبشة ١٨٧ الدعاة ١٩٦ - ١٩٩

فكرة التعرب في الحبشة ٢١٤ - ٢١٦ اللغة العربية في الحبشة ٢٢٧ - ٢٢٨

عفر (دناكل) : ١٨٥ ، ٢٢٠

حكيم الحبشى : ١٣٧ - ١٣٨

حمد صيون : رسالته إلى مصر ١٢٥ - ١٢٦ عاربة مسلمي عدل ١٢٦

عنزة بن شداد : ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣

عزانا (أذينة أو إل أبرهة) : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٩

الفرس : تدخلهم في اليمن ٣٩ ، ٤٤ - ٤٥ حكم اليمن ٦٩ - ٧٠

زواله ٨٣

الفلقة : انظر اليهود

القبط : انظر المصريون ، المسيحية

القسيس يوحنا : أسطوره ١٦٧ - ١٦٩

الكارمية : سيف أرعد يقبض عليهم ١٧٧ انتشار نفوذهم ١٩٩ نعرهم

الاسلام ٢٠٠ - ٢٠١ ، ٢٢٣

كوش (كاسو) : معناها ٨٠٧ الشعوب الكوشية ٨ اللغات الكوشية ١٦٠٩

لبناء دجل : توليه العرش ١٨٨ جرائي بهزيمه ١٩٢ المسلمون يستولون على

الحبشة في عهده ١٩٣ كتب ترجم في عهده ٢٣٦

لقمان : ٨٧ ، ١٣١ ، ١٣٢

ليج ياسو : إسلامه ٢١٣ - ٢١٤ ، ٢١٥

مارب : ٦٠ ، ٦١

محمد بن عبد الله حسان (مهدي السومال) : توحيد القبائل تحت لواء

الدين ٢١٦ يدعى أنه المهدي ٢٥٠

مسروق : انظر ذى نواس

مسروق : حاكم اليمن الحبشى ٦٧

المسلمون : هجرتهم إلى الحبشة ٧٣ قرش تمقبهم ٨٠ - ٨٢ كتب النبي

إلى النجاشي ٨١ - ٨٣ علاقتهم الطبية مع الحبشة في عهد الرسول ٨٦ مسلمو

الطراز ١٤٥ ، ١٥١ المسلمون المهيطون بالحبشة ١٥٢ - ١٥٨ ، ١٦٣ -

١٦٥ المسلمون يلقون اضطهادا في الحبشة ١٦٦ - ١٩١ زحفهم على الداخل

١٩١ غزوة أحمد جرائي ١٩١ - ١٩٣ ضف شوكه المسلمين السياسية ١٩٥

انتشار الدعاة المسلمين ١٩٦ - ١٩٩ انتشار التجار المسلمين ١٩٩ - ٢٠١

تفوق المسلمين في الحبشة ٢٠٢ المسلمون من القبائل الحبشية ٢٠٨ - ٢٢٦

تأثر الاسلام بالمقائد الفديعة ٢٣٨ - ٢٤٤ المذاهب الاسلامية في الحبشة

٢٤٥ - ٢٥١ الحضارة الاسلامية والحبشة ٢٥٢ - ٢٥٦ علماء المسلمين في

الحبشة ١٥٩ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ - ٢٥٢

المسيحية : من أغراض الاستثمار ٧ ، ٤٤ - ٤٥ دخول المسيحية ٢٠

٣٦ - ٣٩ مذهب الطبيعة الواحدة ٣٦ مذاهب مسيحية أخرى ٣٨ المسيحية

واليهودية في اليمن ٤٤ - ٤٥ ، ٥٥ أثر المسيحية الحبشية في بلاد العرب

٩٤ - ٩٧ مسيحية في الحبشة من نوع آخر ١٤٦ - ١٤٧ المسيحية للقبطية

وأثرها في الحبشة ١٤٨ - ١٤٩ ، ٢٢٨ - ٢٣٨ بين الاسلام والمسيحية

١٦٦ - ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ - ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧

٢٠١ - ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣

لغة الحبشة المسيحية ٢٢٨

المصريون : آثار قبطية في المجتمع الحبشى ١٢٩ ، ٢٥٢ - ٢٥٣ بين

مصر والحبشة ١٥٩ ، ١٦٦ - ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
١٨٣ - ١٨٤ ، ٢٠٦ - ٢٠٧

مصوع : تدميرها ١٤٤ الترك يحتلونها ١٩٤ المصريون يستولون عليها ٢٠٦
مقدشو : ١٥٢ - ١٥٣

مكة : ٦٣ غزو مكة ٦٣ - ٦٧ الحبشة يغيرون على ميناء مكة ٢٥٢
ملكة سبأ : انظر سليمان

من ذلك الاول : علاقته بسليمان ١٧

منليك الثاني : ٢١٢

المهدي : انظر السودان ، محمد بن عبد الله حسان

نجران : ٢ ، ٣٢ ، ٥٠ ، ٥١ نصارى نجران والتي ٨٣-٨٤ ترحيلهم
في عهد مر الى العراق ٨٤ المسيحية في نجران ٩٦ ، ٩٧ أنزرها في الأدب
١٢٠ - ١٢٣

نصيب بن رباح : ١٢٧ - ١٢٩ ، ١٣٥

نواي كرتوس (سيف أرعد) : قبضه على التجار المصريين ١٧٧
إفارة الحبشة على أسوان ١٧٧-١٧٨ ، محاربة ملوك الطراز ١٧٨ - ١٧٩

النوبة : (مرو) ٨ عزازا يفزوها ٣٦ إسلامها ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
هديه : ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧٦

هرر : استيلاء المهلين عليها ١٩١ ، ١٩٢ استيلاء الحبشة عليها ٢١٢
٢٢٦ أهميتها في نشر الاسلام ٢٢٦

الهمدانين : ٢٣ - ٢٥

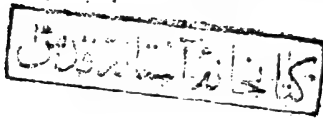
الوثنية : في نقوش الحبشة القديمة ١٠ فكرة الثالوث في عبادة البنين
القديمة ١٠ أثر اليهودية في وثنية الحبشة ١٨ أثر الوثنية في العقيدة الاسلامية
٢٣٨ - ٢٤٤

ياجماصيون : رسائته إلى مصر ١٧٤

يسحاق الاول : يقبض سلطان مصر على البطريق في عهده ١٧٩ ،
مصريون يهاجرون إليه ١٨٠ - ١٨١ يقاتل ملوك الطراز ١٨١ - ١٨٢
فكرة الصليبية ١٨٢ - ١٨٣

يكسوم : حاكم جعفي على اليمن ٦٧ ، ٦٨

يكوتو أملاك : مؤسس الأسرة السلطانية ١٤٨ اضطهاد المسلمين في عهد
١٧١ بينه وبين سلطان مصر ١٧٤ -
اليمين : طريق هامة إلى الهند ٥ رحلات الحجته إلى اليمن (انظر حيدر) غلافة
الحجبة باليمن في عصور متأخرة ١٥٩ - ١٦٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥ - ٢٥٦
يوحس الأول : ٢٠٤ ، ٢٠٥
يوحس الرابع : ٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١٢



تصويب

صواب	خطأ	س	ص
سبئية	سبئية	١٩	٣
كان أقرب	كانوا أقرب	٣	٤
أشار	أشارت	١٤	٥
Glaser	Glaser	في الهامش	٥
لم يكن يطلق ^{٣٠}	لم تكن تطلق	١٢	٧
وإنما أطلقه	وإنما أطلقها	١٢	٧
أعرق	عرق	١٨	٧
موضوع الكتاب الاول من هذا البحث	موضوع هذا البحث	١٥	٩
الحبشية	الجيشية	١٢	١٠
وقد ورد	قد ورد	٣	١٢
بين خليج	من خليج	٥	١٢
٢٧٥ ميلادية	٢٧٥ قبل الميلاد	٤	١٥
إله	له	٧	١٥

ص	س	خطأ	صواب
١٥	١٤	الخمسين عاما	الخمسين عاما بقليل
١٦	١	الحضارة السامية	الحضارة السامية العربية
١٦	٤	كانت	كان
١٧	١٤	كان	كانت
١٩	١١	الجاليات الإفريقية	الجاليات الإغريقية
٢١	١١	أول أسقف	أول مطران
٣٤	١٢	ويحه	وبجة
٣٧	٩	تميزا	تميزا
٣٩	١٢	في لهذه	في هذه
٤٤	٥	٥٢٠ - ٥٣٠ م	٥٢٠ - ٥٢٥ م
٤٤	١٧	مسروق	مسروقا
٥٩	١٩	وهو بلغة الأحباش	وهو لغة حبشية في
٦٠	١٩	Kopenhagen	Kopenhagen
٦٣	٨	هذا السيل	هذه السيل
٧٤	٦	سيلقون منهم	سيلقون منهم ترحيا
٨٥	١٣	٦٣٤ م	٦٣٢ م
٨٨	١٦	الطرز المنقوش	الطراز المنقوش

ص	س	خطأ	صواب
٨٨	١٧	بفل	بغل
٩٥	٥	ومع هذا فلم تكن	ومع هذا لم تكن
٩٧	١٣	الآباء	الآباء
٩٧	١٧	وغيرهما	وغيرها
٩٧	٢٠	شيخون	شيخو
٩٨	١٩	Zur	zur
٩٩	١٩	١٢٩٩ م	١٩٢٩ م
١٠٨	٩	والذى	وما
١٠٩	١٣	وكانت توكل	وكان يوكل
١٠٩	١٨	لافكاريو	لافكاديو
١١٣	١٩	٣٥٨	٢٥٨
١١٥	١١	طاهرة	ظاهرة
١٢٧	٢-١	كانت امرأة يحبها	امرأة كان يحبها
١٤٥	١١	ثم غزا	والذى غزا
١٤٧	٢	كان لفتوح	كان من أثر فتوح
١٥٧	٦	أسبقهم	أسبق الأقاليم
١٥٩	٦	الدراسة	لدراسة

ص	س	خطأ	صواب
١٥٩	١٨	كان طبيعا	كان طبيعا
١٦٠	٢٠	السومالية	الساحلية
١٦١	١	مع اليمن	مع أهالي جنوب بلاد العرب
١٧١	١٠	٣	٢
١٧٧	٩	عن طريق البر	أو عن طريق البر
١٨٣	١٩	التبرك المسبو	التبر المسبوك
٢٠٦	١٤	يوحنس	يوحنس الرابع
٢٢٣	١٧	المسافرن	المسافرون
٢٢٤	١٢	الذي	الذين
٢٢٤	١٥	الذي سرقة	الذين سرقه

مجلد ١٢٤٨ خلدش

بازي شيد

أصدرت حديثاً

مرفص العميان : للدكتور عارف العارف

قصة رائعة تعرض حوادث فتي فقد البصر ولم يفقد البصيرة
فصورت نزعاته وآراءه ، وآلامه وملذاته على الشيء ، وأطلعنا
على الشيء الكثير من دنيا العميان ، وثمنه ١٥ قرشا .

فلسفة الفهم : لبندتو كروتشه تعريب سامي الدورني
صرح فلسفي شائع يضع النشاط الفتي في موضعه من سائر صور
النشاط الروحي ، فيدرس علاقة الجمال بالحق والخير واللذة
والمنفعة ويعرض على ذلك لمختلف مسائل فلسفة الفن مع عرض
شيق لتاريخها من اليونان القديم إلى يومنا هذا ، وثمنه ٢٠ قرشا

قصصنا الشعبي : للدكتور فؤاد حسنين على

قال فيه محمود تيمور بك ملك القصة في مصر ، اطلعت على
أبحاث فنية عن قصصنا الشعبي ديجتها براعتكم فراقى منه تحليلكم
الفتى لهذا القصص واهتمامكم بالتعريف به فكتبت إليكم هذا
لأعبر لكم عن صادق إعجابي ، وثمنه ٢٠ قرشا .

الحواجب سيف بني مروان : للأستاذ عبدالرزاق حميدة

يعرض تاريخ رجل من رجالات بني أمية الذين كان لهم فضل
على السياسة والأدب ، في أسلوب على دقيق ورعاية للحق
وعناية بالشواهد والبراهين ، وثمنه ٢٥ قرشا .

الأدب المقارن: تأليف فان تيجم أستاذ الأدب بالسوربون
باكورة سلسلة الآداب العالمية التي تصدرها دار الفكر
العربي من تأليف كبار الأساتذة وترجمة خير الكتاب العرب، نقطة
حاسمة في تاريخ الدراسات الأدبية باللغة العربية. وثمنه ٢٠ قرشا

فصل الاضطهاد الربني في المسيحية والاسلام :

للدكتور توفيق الطويل

سيرة الاضطهاد الدامي الذي أنزله الرومان بالمسيحية وشهادتها،
والكنيسة الكاثوليكية على خصومها والبروتستانت وغيرهم ،
وتاريخ ما وقع في الاسلام من مآسي الاضطهاد المرير، وثمنه ١٨ قرشا

سر الحاكم بأمر الله : للاستاذ علي أحمد باكثير

أقوى مسرحية ظهرت باللغة العربية ، تجلو شخصية الحاكم
وتكشف سرها الذي حير المؤرخين . وقد فازت بالجائزة
المتأخرة في مباراة وزارة الشؤون الاجتماعية وثمنه ١٥ قرشا

أطفال بلا أسر : تأليف أنافرويد ودوروثي برلنجهام

تعريب الأستاذين محمد بدران ورمزي يسي

يبحث مشاكل الأطفال الذين يربون بالملاجيء ودور
الحضانة ، كما يبحث في العلاقة بين الأطفال وأنفسهم ، وبينهم
وبين مربياتهم ، وبين أثر المعاهد في نفوسهم كما يكشف عن
الآثار التي تنجم عن حرمان الطفل من أسرته وثمنه ٢٠ قرشا